ميشال زيفاكو

رواية

الملكة إيزابو

www.mlazna.com
^RAYAHEEN^

١

المكتبة الثقافية
بيروت - لبنان

www.mlazna.com-RAYAHEEN

ميشال زيفاكو

رواية

الملكة إيزابو

ترجمة

طانيوس عبدو

المجلد الاول

www.mlazna.com
^RAYAHEEN^

المكتبة الثقافية
بيروت - لبنان

www.mlazna.com
^RAYAHEEN^

الملكة

١

الليلة ليلة صيف اشتد فيها الهجير وترصعت السماء الزرقاء بنجومهـا اللامعـة وساد السكون في باريس ولا سيما في تلك الجهـة الممتدة من شارع سانت بول الى الباستيل ومن شارع سانت انطوان الى نهر السين .

هناك حيث شيـد ذلك القصر الرهيب ، قصر سانت بول ، الذي كان قبل اللوفر مسكن ملوك فرنسا وحسبك في وصف هذا القصر انه كان يسع عشرة آلاف انسان وكان فيه سبع كنائس وست حدائق وثمانيـة قصور مختلفة للملكة والملك ورئيس الأساقفـة وغيرهم وهي جميعها محاطـة بسور عظيم فكان يطلق على هذه البنايات كلها اسم سانت بول .

وفي حدائق هذا القصر العظيم مكان خاص للوحوش الضارية فكانت اذا دقت اجراس الكنائس جاوبتها الاسود بزئير يشبه دوي الرعود فلم يكن يعلم الناس شيئاً عن داخلية هذا القصر ولذلك كثرت الإشاعات عنه وتوالت الخرافات فيه فكان مثله في عهد الملكة ايزابو مثـل قصر يلدز في ايام السلطان عبد الحميد .

ففي الساعة العاشرة من مساء تلك الليلة كانت الملكة ايزابو واقفة امام مرآة من الفولاذ وقد لبست في معصمها سوارين رصعا بالزمرد وتختمت بالخواتم المختلفة في جميع أصابعها حسب العادة في ذلك العهد وجعلت تنظر الى محاسن وجهها البديع وجمال شبابها الفتان إذ لم تكن تتجاوز الثامنة عشرة من العمر .

ولكنها كانت تنظر وهي تصغي وقد بدت عليها علائم الجزع فكانت تتنهد من حين الى حين .

حتى اذا دقت الساعة العاشرة فنهدت تنهد ارتياح وقالت : لقد آن الأوان .

وعند ذلك التفتت إلى من كان حولها من بنات الشرف وهن ثلاث فقالت لهن .

اني آذن لكنّ هذه الليلة بالراحة فسيوصلك الحراس يا لورانس الى منزل باسافان وانت يا بلانب الى قصر دي كوسى وانت يا كوليت الى قصر دي سافيز فاذهبن .

وكانت تقول هذا القول وعلائم الاضطراب العظيم بادية في وجهها فلم تنقص من جمالها البديع بل زادته جمالاً .

ومن كان يعلم ما يجول في نفس تلك المرأة الصبية في تلك الساعة فقد كانت تلك المرأة النارية هي التي تمثلت بها ليكريسيا بورجيا حين جاءت بعدها .

ولكننا لا نصفها الآن بل ندع الحكم عليها لأعمالها التي سيقف عليها القراء .

أما بنات الشرف فانهن حين تلقين امرها بالانصراف انحنين امامها بملء الاحترام وقد اشرقت وجوههن بسيماء البشر ما خلا احداهن لورانس دي ابزيم فقد امتقع وجهها وصبغ بصفرة الموت وارتسمت الكآبة على محياها الجميل .

www.mlazna.com-RAYAHEEN

وقد تنبهت الملكة الى اصفرارها واضطرابها فاصفر وجهها ايضاً فقالت لها بلهجة تشف عن الريب والوعيد .

ما هذا الاضطراب الذي تولاك يا لورانس ولماذا ؟ اجيبيني .

قالت : انه صداع أصابني وحبذا لو تفضلت مولاتي الملكة واذنت لي بالبقاء في القصر .

فأجابتها بلهجة المؤنب وقالت :

كلا بل عودي الى منزلك واستريحي فيه هذا الاسبوع بجملته وسأرسل لك في صباح غد طبيبي الخاص الى منزل باسافان .

فتمتمت لورانس بضع كلمات شكر وخرجت مع رفيقتيها .

فلما خرجت من تلك الغرفة بدت عليها علائم اليأس وقالت في نفسها :

انها لم تبعدنا عنها إلا لأنها تنتظر الكونت دي نيفر .. نعم ان ذلك لا ريب فيه .. ويلاه ان الشقاء والعقاب .. رباه رباه لا تعاقب سواه وانقذ البريئة .

وقد اجتازت مع رفيقتيها بنايات الملكة الخاصة فرأت لورانس ان جميع القاعات والاروقة كانت خالية من الناس وزادها ذلك يقيناً بأن الملكة تنتظر الكونت .

فبينما كانت رفيقتاها تمتثلان لأمر الملكة وتبرحان قصر سانت بول كانت لورانس واقفة في احدى الاروقة وقد استندت الى عامود من الرخام وقالت بلهجة اليأس .

انه سيحضر لقد قضي الأمر .. الوداع يا املي الأخير .. انه يحب الملكة .

وبعد هنيهة لم تعد الملكة تسمع وقع خطوات البنات الثلاث وكانت واثقة من خلو قاعاتها فخرجت من الغرفة التي كانت فيها بنات الشرف حتى بلغت الى منتصفها وهناك سلم من المرمر نزلت منه الى قاعة بديعة

عبقت فيها روائح الطيب فوقفت هنيهة تتنشق تلك الروائح ثم ظهر الذي كانت تنتظره .

وكان فتى في الخامسة والعشرين من العمر جميل المحيا رشيق الحركات براق العينين تدل نظراته على الشجاعة والريب فمشى الى حيث كانت الملكة ايزابو فركع امامها وقال لها :

ان الكونت دي نيفر الملقب « بجان الذي لا يخاف » ينتظر جاثياً على ركبتيه اوامر ملكته .

فقالت له بصوت مضطرب : انهض .

ولما امتثل ظهرت عليها علائم التردد وخفق صدرها وارتجفت شفتاها ثم قالت فجأة :

لماذا لم تكن تنظر الا إليّ في تلك الحفلات التي كانت تقام لك منذ اسبوع ؟

فأجابها قائلاً :

ولماذا في تلك الحفلات وفي كل مكان كنت وحدك التي تحكين على نظري وعقلي وقلبي .

فارتعدت الملكة ولم تجب بحرف .

ووقف جان يتمعن في محاسنها وينظر اليها نظرة الفاحص الماكر فانه كان في ابان شبابه وهو يحب الملكة ويطمع ان تحبه ولكنه كان يحب نفسه فوق ذلك الحب إذ كان شديد المطامع وهو مستعد ان يسفك الدماء ويسيل الدموع ويرتكب كل منكر في سبيل غايته التي لم يكن يفتكر بسواها منذ حين .

ثم قال لها بعد ذلك السكوت القصير :

اذن ان مولاتي غير حانقة عليّ .

فقالت : أأنا احنق عليك ؟

www.mlazna.com-RAYAHEEN

وقد قالت له هذا القول بلهجة دلت على سقوط شرفهـا بصفتها امرأة وعلى ضياع حرمتها بصفتها زوجة .

وكانت هذه اول مرة تبادلت الحديث معه دون ان يسمعهما احد وكان هذا اول لقـاء بعد فراق ثلاثة اعوام كان الكونت غائباً فيهـا عن باريس فارتفع صدرها بتنهد عميق وقالت :

يا نجوم السماء التي اناجيها بأسراري ويا ازهار الحدائق التي اودعها رجائي واغسلها بدموعي منذ غيـاب الكونت ومنذ قبل هذه اليد اول قبلة انك عالمة بأني غير حانقة عليه .

ثم رفعت يدها إلى فمها وقبّلتها كأنها تريد ان تقبل قبلته .

فطاش رأس الكونت لهذا الاقرار السريع فانه لم يكن يتوقع ان ينتصر الى هذا الحد ولكن ايزابو قالت له اقوالاً قد تجعله اعظم ملك في العالم .

فانها قالت له : أيحبني جان الذي لا يخاف ؟ اني في سبيل تحقيق هـذه الأمنية أتخلى عن هذا التاج الذي يجعلني شبيهة ببنات الآلهة كلا بل اني أهب العرش والتاج لهذا الحبيب الذي اختارته نفسي .

فانعقد لسان جان لما سمع وجعل يقسم ايمان الوفـاء والحب بكلمات لا تخرج صريحـة من فمه لفرط اضطرابه ثم فتح ذراعيه وحاول ان يضمها إلى صدره .

ولكن الملكة تراجعت لفورها ونظرت اليه نظرة وعيد وتأنيب وقالت:

انني اريـد ان تكون لي وحدي بجملتك اي بقوتك وضميرك وعقلـك وروحك وجسمك فاحذر يا كونت وتمعن قبل ان تجيبني الجواب الأخـير أتقسم لي انه ليس لك علاقة حب مع احد سواي ؟

ـ اقسم .

ـ واذا كان لك علاقة حب أتقسم انك تزيلها واعلم اني لا اكتفي بقطع تلك العلائق كما يقطعونها عادة بل اني لا اريد ان يكون بيني وبينك حائل من ابناء الحياة .. أفهمت ما أريد ، أتقسم ؟

فرفع الكونت يده وأقسم .

وعند ذلك سمع من آخر الرواق تنهد يشبه الأنين وصوت يقول :

الوداع يا كل رجاء في هذا الوجود .

ولكن الملكة والكونت لم يسمعا هذا الصوت ودنت الملكة منه وعيناها تدلان على انها ستقول له قولاً هائلاً فقالت له صوت متقطع :

ليست علائق الحب وحدها التي تحول بيننا فان ابنة عمي مرغريت دي هينوت هي زوجتك ، وابن عمك شارل السادس هو زوجي ..

وهنا توقفت عن الكلام وجعل كل من الاثنان يحدق بالآخر فيتساءلان بلغة العيون ويتجاوبان .

ثم اطرقت تلك العيون ، وقد فهم كل منهما مراد صاحبه ، وتم الاتفاق بينهما .

وعند ذلك قالت له : انك تستطيع الآن ان تجيبني يا كونت فاحذر .

فأجابها بدون تردد قائلاً :

اقسم بالله وبهذه الليلة التي تبدأ بها حياتي وبهذه النفس التي اهبك إياها ، اني أحبك .

ولم يكد يتم قسمه حتى التفت الاثنان منذعرين ذلك انهما سمعا صيحة من بعيد ووقع خطوات .

فوثبت الملكة من موقفها الى المكان الذي سمعت منه الصوت أي الى الرواق الخاص بنساء الشرف فرأت شبحاً يتباعد مسرعاً .

فعادت الى الكونت وسارت به الى غرفة رقادها فقالت له :

انهم كانوا يراقبوننا فاذا لم تقتل الجاسوسة قضي علينا .

فأشار الى خنجره وقال : اني مستعد .

ـ ولكني لا أريد ان يكون ذلك في القصر فان الجثة تكون شاهدة علينا ولا أريد ان يكون القتل بالخنجر فان الدم يبقي .

ـ اني اقتلها كما تشائين وفي أي مكان تريدين .

وعلى ذلك تقرر بينهما قتل هـذه الجاسوسة، وقـد اشرق محيا الكونت وجعل يقول في نفسه :

اني سأنال التاج والعرش ومن يدري فقد اجدد مملكة شارلمان ويصبح زمام الممالك بيدي .

أما هذه الفتاة التي تتوسل اليّ بنظراتها منـذ أسبوع فالويل لهـا اذا اعترضتني في سبيل مطامعي .

وأما الملكة فانها أشارت الى الكونت ان ينتظرها وذهبت الى الرواق الخاص بنسائها فوقفت عند باب إحدى غرفه ، ثم فتحت ذلك الباب بعنف ودخلت الى تلك الغرفة .

وكانت هذه الغرفة خاصة بلورانس دي ابزيم إحدى نسائها .

٢

لورانس دي ابزيم

نقص هنا تاريخ هذه الفتاة بما يقتضيه المقام من الايجاز فنقول :

كانت هذه الفتاة يتيمة فقد ماتت أمها يوم ولدتها وعندما بلغت الخامسة عشرة من عمرها توفي أبوها البارون دي ابزيم في سنة ١٣٨٧ وكان من أخص أعـوان الدوق دي بيري في محاربته دوق دي بورجونيا والد جـان الذي لا يخاف .

وكان له صديق وفي يدعى الشفالييه تنكريد دي باسافان ، فلمـا شعر بقرب الوفاة عهد بابنته لورانس الى أرملة ذلك الصديق .

فأخـذتها تلك الأرملة ، من بيت أبيها بعـد موته ، وجاءت بها الى قصرها .

www.mlazna.com-RAYAHEEN

وبعد ذلك بعامين ماتت تلك الأرملة أيضاً لشدة حزنها على زوجها وقد ماتت عن غلام يبلغ السادسة من العمر يدعى هاردي بحيث باتت لورانس وهذا الغلام كل العائلة فكانا شبه أخ وأخت وقد بلغت هي عهد الصبى وجعل هو ينمو أفضل نمواً سريعاً فوق النمو الطبيعي .

ففي أواخر هذا العام جعلت علائم القلق تبدو على وجه الفتاة فكانت تبرح المنزل ، ثم تعود وعيناها محمرتان ، وهي تزيد اصفراراً ونحولاً في كل يوم .

الى ان عانقت في ليلة هاردي الذي كانت تدعوه أخاها الصغير ، ثم خرجت من ذلك المنزل دون ان تعود اليه .

وسيعلم القراء السبب في انصراف هذه الفتاة المنكودة التي لم يكن لها أم ترشدها ولم تتجرب بعد في معارك الحياة فتأمن العثار .

أما هاردي فانه بكى بكاء كثيراً لفراق التي يدعوها بأخته ، ثم تلهى عنها بما كانوا يعلمونه إياه من ركوب الجياد وطعن الرماح والحراب والعاب السيف فمر به الزمن على ذلك حتى بلغ العاشرة من عمره .

ففي إحدى ليالي الشتاء الباردة أي بعد الفراق بثلاث أعوام ، عادت لورانس كما ذهبت ولكنها كانت شديدة الهزال والحزن، فكانت تشبة الطير الجريح يعود الى عشه الأول .

وكانت تلبس ملابس سوداء ، وهي تحمل بين ذراعيها طفلة ، وتقول في نفسها :

انني كنت أؤثر الف موت على ان أدنس هذا المنزل الشريف بوجودي ولكني أؤثر كل خجل وعار على شقاء ابنتي .

فلما رآها هاردي وثب اليها ، وهو يكاد يجن سروراً ، ولكن الفتاة استوقفته قائلة بصوت يضطرب :

هل يوجد لي محل أيضاً في منزل باسافان ؟

فكان جواب هاردي انه جمع الخدم وامرهم ان يمتثلوا لأوامر لورانس ، كما يمتثلون لأوامره .

فتقزز الخدم حين رأوا ذلك الطفل بين يديها ، وأبدوا النفرة فجاهرت إحـــدى الخادمات بالعصيان فطردها للحال وحاول مدبر القصر ان يبدي ملاحظته ، فجرد هاردي خنجره ، وتهدده بالقتل الذريع ، فرجفت قلوب الخدم وانصرفوا صاغرين ممتثلين ، وهاردي يعجب لنفـورهم ولا يعلم شيئاً من اسبابه .

ثم عاد الى لورانس فمسح عينيها ونظر الى الطفلة وهي تبتسم فضمها الى صدره وسأل لورانس سؤالاً لا يجسر رجل انيسألها إياه ولكن حداثة سنه وجهله دفعاه الى هذا السؤال فقال :

هل هي ابنتك ؟

فاضطربت لورانس اضطراباً لا يوصف ورفعت عينيهـا الى السماء ، ثم قالت دون ان تجيبه عن سؤاله :

انها تدعى روزالي .

فجعل هاردي ينظر اليها نظرة إعجاب ويقول :

لله ما أجملها !

***

مضى على ذلك ستة أشهر وعادث لورانس ، تلك الصبية الحسناء التي كانت تفتن العقول بجمالها، ولكن عـلائم الكآبة والانكسار كانت لا تزال بادية عليها فكانت تزيدها جمالاً ولم تكن عائشة إلا من أجل روزالي وبها فترى الدنيا كلها قد جمعت فيها .

وفي ذلك الحين قدر لها ان تلتقي بالدوقة دي بيري .

وكانت هذه الدوقة من اهل الخبرة والوفاء وهي عارفة بما فعـــله والد لورانس في خدمة زوجها فحنت اليها ووعدتها ان تعينها إحدى بنات الشرف لدى الملكة وعينت لابنتها مهراً .

فشكرتها لورنس ولكنها اضطربت لهذا المنصب الذي كان يتمنى ان ينالـه أشرف بنات باريس وانما كان اضطرابها لخوفها ان يدعو هـذا المنصب الى التدقيق بأمرها

وبعد اسبوع استلمت منصبها الجديد في بلاط الملكة مع خمس عشرة فتاة من أعرق الأسرات نسباً .

وكانت مهمتها ان تقيم لدى الملكة خمسة عشر يوماً في الشهر ، اسبوعاً في الليل واسبوعاً في النهار كسائر وصيفاتها .

وقد بات لها في خدمة الملكة ثمانية عشر شهراً دون ان يعلم احد سرها حتى كادت تطمئن ، وبلغت ابنتها الخامسة من عمرها وهاردي الثانية عشرة ولكنه كان يظهر عليه انه بلغ عهد الشباب .

ففي ذات يوم عادت الى منزل هاردي حيث كانت تقيم فرأت الاضطراب بادياً على جميع الوجوه وسألت عن السبب فعلمت ان بنتها قد سقطت في النهر بينما كانت تلعب وان هاردي ألقى نفسه في اثرها فأنقذها ، فضمت هاردي الى صدرها وقالت:

ويلاه ، ماذا كان حدث لو ماتت ؟

فأجابها قائلاً : كنت أموت معهـا .

وقد قال لها ذلك بصوت ارتعشت له لورنس إذ ايقنت ان هردي يحب بنتها حباً كبيراً يزيد في كل يوم وانه لا بد له متى بلغ رشده ان يسألها عن بنتها وعن إسم أبيها، فأما ان تضطر الى الفرار بها واما تكره على الاعتراف بالحقيقة وهنا الخطر الهائل .

وذلك ان الناس في هذا العهد قد يشفقون على فتاة لا يعرف ابوها وقد لا يؤاخذونها بجريمة ابويها خلافاً لما كان الناس عليه في ذلك العهد الهمجي ، فان من قدر عليها من الفتيات ان تكون من غير إسم يقضى عليها القضاء المبرم ولا تعامل إلا بالإهانة والتحقير وتضم بالإهانة كل من يتصـل بها او

www.mlazna.com-RAYAHEEN

يتدانى الى محادثتها بحيث يعزلونهـــا كما يعزلون المصاب بالأمراض الوبائية المعدية ..

حتى ان منزلة الفتاة اللقيطة كانت دون منزلة السارقة والمومسةبمراحل.

وعلى الجملة فان الفتاة اللقيطة كان مقضياً عليهـــا ان تعيش دون زوج ودون عائلة ، ولا يحق لهـــا ان تقيم في منزل ولا تلقي في الشوارع غير الإهانة والتحقير

ولذلك أخذت تفكر قانطة بمستقبل بنتها وهي عالمة بأخـلاق هردي ، فرأت انه لا بد لهـا من الفرار قبل ان يعـلم حقيقة امرها ، وكانت دائمة الهم والتفكير .

وبعد ذلك ببضعة ايام عاد الرجـــاء الى قلبها وظهرت عليها علائم الارتياح ، وذلك انه أشيع بأن جان الذي لا يخاف ، أي الكونت دي نيفر ابن الدوق دي بورجينـــا ، قادم الى باريس ، فقبلت بنتها وهي نائمة وفاجأتها قائلة :

لقد نجوت يا ابنتي ، فلا يطردك هردي حين يعلم انك لقيطـــة ، لأني سأشتري لك إسماً بحياتي التي لا فائدة فيها .

وبعد يومين ، أي يوم بدء خدمتها في القصر ،ألبست بنتها خير ملابسها وأدخلتها سراً الى قصر الملكة فأقامتهـا في القصر .

وفي تلك الليلة نفسها دخل جان الذي لا يخـاف الى قصر الملكة ، كما قدمناه في الفصل السابق ، وسمعت الملكة ذلك الأنين حين اقسم لهـا جان على الوفاء بحبها ، فتركتـه الملكة ، كما تقدم ، وذهبت الى غرفة لورانس ففتحتها .

٣

ام روزالي

اما لورنس فانها حين سمعت ما كان من الملكة وجان اسرعت واليأس ملء قلبها الى ابنتها فالتقطتها وهي تقول :

لم يبق بد من الاسراع بالفرار ، هلمي بنا ، إسرعي .

وفيما هي تضع رداء على كتف بنتها يقيها البرد سمعت ان باب غرفتها قد فتح فجأة ، فالتفتت كأنما اصيبت على رأسها وأسرعت فوقفت امام بنتها كي تخفيها ..

اما الملكة إيزابو فانها قالت لها بملء السكينة :

لقد أمرتك ان تعودي الى حيث تقيمين في قصر باسافان .

فتلعثم لسان لورانس وأجابتها بصوت يتلجلج :

لقد كنت مصابة بصداع أليم وقد سكن الألم وها انا ذاهبة .

قالت : بل ابقي .

ثم سألتها قائلة :

من هذا الطفل الذي تحاولين إخفاؤه ؟

فأيقنت تلك المنكودة ان الساعة دنت ولعنت تلك الساعة التي خطر لها ان تبعد بنتها عن هردي حذراً من المستقبل البعيد فوقعت في شر الحاضر القريب .

اما ايزابو فانها قهقهت ضاحكة وقالت :

لقد خطر لي في البدء خاطر غريب وهو اني حسبتك والدة هذه الطفلة .

فملأ الذعر قلب لورانس ولم تفه بكلمة ، فقالت :

ولكن اضحكي كما أضحك لهذا الخاطر الغريب إذ لا يخطر في بال بشر

ان تجسر إحدى بنات الشرف ، وهي بنت لا زوج لها ، على ان تدخل بنتها قصر الملكة .

ومثل لورانس ابزيم الذي اشتهر ابوها بالنبل والشرف لا تقدم على إهانة الملكة هذه الإهانة .

وعندئذ تقدمت ايزابو منها وقالت لها :

ألا تجيبين بشيء ؟ .. انها بنتك أليس كذلك .. كلا ، كلا . ولكن ماذا تدعى ؟

فتمتمت لورانس قائلة : روزالي .

ـ انه اسم لطيف ولكن أتدعى روزالي فقط فمن هو ابوها والى اية عائلة تنتسب ؟ تكلمي

ـ لا اريد

لا تريدين .. إذن لقد أدخلت بنتاً لقيطة الى قصري ؟

فالتفتت لورانس الى بنتها ونظرت اليها نظرة سالت معها نفسها حنواً ثم نظرت الى الملكة وقالت :

مولاتي التمس منك الرحمة والإشفاق على هذه الطفلة البريئة التي ...

وقد توقفت عن إتمام الحديث فأتمته ايزابو عنها قائلة :

التي التقطها اليس كذلك ؟ لا تخافي وقولي الحقيقة ، اليس كذلك ؟

ـ اجل يا سيدتي هو ما تقولين .

ـ مسكينة هذه الفتاة فقد خبأتها يد العناية في قصر باسافان وهي لا إسم لها ، أليس كذلك ؟

ـ نعم .

ـ اذا كنت ذلك وكنت تحبينها هذا الحب فقد وجب ان نجعل لها اسماً

فذعرت لورانس ذعراً عظيماً ، وقالت لها الملكة :

نعم يجب ان يكون لها اسم تدعى به اذ لا بد ان نجد من يتبناها ، ولأجل ذلك يجب ان تعرض ثلاثة ايام عند باب الكنيسة .

www.mlazna.com-RAYAHEEN

فصاحت لورانس صيحة منكرة ، وحمات روزالي بين ذراعيها كأنها تريد ان تحميها من ذلك القضاء وهي تقول :

ابنتي .. ابنتي .

فابتسمت الملكة وقالت :

لقد كنت واثقة بأني سأكرهك على قول الحقيقة .

وساد سكوت هائل بينهما فكانت الملكة تتنفس كالمصارع الذي يجرد قوته ولورانس راكعة ليس لالتماس الرحمة بل لانها لم تستطع الوقوف وقد سحق ذلك الموقف الرهيب نفسها وعجبت كيف انها باقية في قيد الحياة .

وعند ذلك وضعت الملكة يدها على كتفها وقالت لها :

لقد عرفت لأول وهلة ان هذه الفتاة بنتك كما عرفت لأول وهلة اسم ابيها ... اي اسم عشيقك .

وذلك انه لم يخف عني شيء من اصفرارك ودموعك ومن فرحك الفجائي ومن تلك الاسرار التي تحيط بك منذ ثمانية ايام ، اي منذ قدومه باريس .

انه هو بعينه .. تكلمي .. اعترفي .. قولي انه هو او اقسم بالله ان اوقظ جميع سكان القصر وأأمر بضربك بالسياط عارية .

فأجابتها بلهجة تقطع القلوب من الاشفاق قائلة :

نعم هو .

— جان الذي لا يخاف ؟

— نعم هو .

وقد ساد السكوت ايضاً ووقفت الملكة ايزابو وقفة الملكات في عهد نيرون تنظر الى لورانس المنسحقة عند قدميها .

وقد كانت تتأملها ثم أخذت علائم السكينة تعود إلى وجهها بالتدريج فقالت : لماذا أتيت الى قصري بابنة جان .. انهضي وتكلمي .

فأطرقت لورانس برأسها واعترفت الملكة بجميع امرها فذكرت لها

كيف ان جان كان يرود كل يوم حول منزلها وكيف انها علقت بـه وعلق بها واظهرت ذلك الحب المتبادل بينهما وما كان من يأسهـا حين اسفر عن ولادة هذه الطفلة .

حتى اذا أتمت اعترافها قالت لها الملكة :

ولكن لماذا أتيت بابنة جان إلى قصري ؟

فأجابتها بصوت خنقته العبرات :

لكي انقذها واجعل لها إسماً فاني كنت عالمة بانه سيحضر الى قصر سان بول غداً صباحاً فخطر لي ان اتوسل اليه وان اجيء به الى هذه الغرفة على رجاء انه متى رأى بنتي وبنته يصلح خطاءه بعقد زواج سري فيكون لأبنتي إسم ويحق لها ان تكون واحدة من الناس .

ولكن واأسفاه فان ما رأيته في الرواق كان قاضياً عليّ وعلى بنتي .

فارتعشت الملكة وقالت في نفسها :

لا شك انها قد جنت أو انها لا تعرف الحقيقة وإلا كيف يخطر لها هذا الزواج ؟

نعم، ان هذه المعشوقة تجهل انه في سنة ١٣٨٥ قضت السياسة ان يتزوج جان بفتاة لا تزال مقيمة في ديجون ولا تقيم حيث يقيم زوجها .

وكانت ايزابو تحاول ان تصعقها بكلمة .

غير ان تلك الأم المنكودة خطر لهـا في تلك اللحظة خاطر اشرق به وجهها بنور الرجاء فبسطت يديها اما الملكة وقالت لها بلهجة المتوسل :

ـ ألا تشفقين ، يا صاحبة الجلالة ، على تلك الطفلة التي لا نصير لها ألا يمكن عقد الزواج اذا أردت به ؟

فقالت الملكة : انها لا شك مجنونة .

قالت : كلا ، يا ملكتي، لست بمجنونة فاني اعرف حق العرفان ما بيني وبين ولي عهد بورجونيا من التباين في المقام ولكن لا أريد ان أكون زوجته بالعلن ولا أطمع ان أكون شريكته في حياته وتاجه .

www.mlazna.com-RAYAHEEN

كلا ، يا ملكتي ، لست بمجنونة واني أقسم بابنتي وبكل مقدس في السماء انه بعد ان تصبح ابنتي ذات اسم بساعة واحدة اختفي من هذا الوجود ويصبح الكونت حراً من ذلك القيد .

فانذهلت الملكة انذهالاً عظيما وقالت :

كيف تختفين من هذ الوجود ؟

ـ اني انتحر بعد عقد الزواج السري بساعة .

فشعرت الملكة للفور انها صغيرة منحطة امام عاطفة تلك الأم الشريفة التي ارادت تضحية نفسها في سبيل هناء بنتها .

وقالت لورانس :

اني التمس نسباً لابنتي وفي مقابل ذلك اضحي حياتي وهذا كل ما التمسه من جلالتك أتقبلين ؟

فعضت الغيرة قلب هذه الملكة واتقدت عيناها ببارق مخيف فانها كانت منذ ساعة تبحث عن طريقة مضمونة لقتل لورانس تجتنب فيها فضيحة القتل في القصر .

وقد وجدت هذه الطريقة واوجدتها لورانس نفسها فابتسمت ابتسامة هائلة تشبه تلك البروق التي تتقدم الصاعقة ثم قالت :

انك غلبتني واثرت في قلبي عاطفة الاشفاق ولذلك عفوت عنك وسأنقذك وانقذ بنتك .

ـ مولاتي .. مولاتي ماذا تقولين ؟

ـ نعم ان ابنتك سيكون لها ذلك الاسم وسيعقد الزواج بالسر في هذه الليلة .. وستعيشين .

ـ رحماك الله يا مولاتي لا تعبثي بي .

ـ اني لا اعبث بك بل اقول لك الحقيقة لأنك ستعيشين فتشددي واذهبي إلى منزل باسافان فسأوافيك اليه بعد ساعة .

ـ رباه اصغ إلى ابتهالي .. رباه بارك ملكتنا المحبوبة .

وقد انصرفت الملكة ولورانس تشيعها بالدعـاء فلما توارت عن انظارها اسرعت الى ابنتها والفرح يكاد يقتلها وقالت :

اسرعي يا ابنتي وهلمي بنا الى هردي فانه يتولى حمايتنا .

ثم حملت بنتها واسرعت الى الانصراف .

أما الملكة فانها ذهبت الى احدى قاعاتها وهي تزيد من الغضب فقرعت جرساً بعنف شديد قرعاً متوالياً فهب اتباعهـا منذعرين وتراكضوا اليهـا بالمصابيح وأحاطوا بهـــا من رجل بملابس الكهنة السوداء وآخر بملابس الحراس وبعضهم بملابس الضبـاط فكانت تلقي الى كل منهم اوامرهـــا فينصرف مسرعاً .

فلما انصرف الجميع وبقيت وحدها قالت :

لقد جاء دوره الآن والويل له إذ تردد فان ريدون لا يزال في خدمتي .

وعند ذلك ذهبت الى تلك القاعة التي كان ينتظرها فيها جان ، ذلك الرجل الذي لم يلقب بأنه لا يخاف إلا لما اشتهر به من الجراءة والفظاعـة والاقدام على كل أمر ولو كان منكراً .

ولكنه على شجاعته النـــادرة كان يرتجف خوفاً حين يدخل الى قصر سـانت بول .

وقد دخلت اليه وخلت به مدة تحادثه فلم ندر ما كان بينهما ولكنه عند انصرافه كان مطرق الرأس بادي الاضطراب .

أما الملكة فانها لبست بعد ان انصرف وشاحا له قبعـة يغطي الرأس وفتحت باباً سرياً في غرفة رقادها فدخلت منه الى غرفـة صغيرة لم يكن فيها غير كرسي واحد .

وكان جالساً على هذه الكرسي رجل فيمقتبل الشباب يكاد يشبه العمالقة بضخامة اعضائه وشواهد قوته وهو ريدون الشهير الذي كان حارساً بسيطاً للملكة فبات رئيس حراسهـــا وكانوا يلقبونه بكلب الملكة لأن اخلاصه في خدمتها تجاوز اخلاص الكلب .

وقد قالت له : انك ستسير معي يا ريدون فلا تبتعد عني قيد شبر ولا تسمع ولا ترى شيئاً مما سأفعله واقوله .

قال : إني سأكون كعادتي اخرس أصم فإلى اين تريد الملكة ان تذهب ؟

– الى منزل باسفان في شارع سانت مارتين ولكني قبل ذلك اريد ان اذهب الى شارع ضيق في الجزيرة .

فاصفر وجه ريدون وقالت الملكة .

والآن فاعلم ان كل رجل أأمرك بقتله اقتله لا فرق بين ان يكون عامياً او اميراً فاقتله.

فابتسم ريدون ووضع يده على خنجره بشكل هائل .

ولما خرجا من قصر سانت بول جعل يسير ملاصقاً للملكة حتى وصلا الى قرب طواحين نوتردام .

وهناك فك رباط زورق وأعانها على الصعود اليه وبعد هنيهة وصل بها الى الجزيرة وسارا توأ الى شارع ضيق فوقفا عند باب منزل منخفض .

والغريب ان هذا الباب فتح عند وصولها كأنما سكانه كانوا ينتظرونهما فدخلت الملكة ودخل ريدون في اثرها بعد ان رسم على وجهه علامة الصليب .

يا ايها القاريء ان هذا المنزل منزل الرعب فاذا اردت ايضاح ما ستراه فانزل الى هوة الأجيال وسل نفس تلك الانسانية البعيدة .

أما الرجل الذي فتح للملكة فانه دخل بها الى القاعة الأولى ثم الثانية وهناك وقف وقال :

اني يا سيدتي مستعد فقد احضرت الاحياء الثلاثة فهل احضرت انت الميت ؟

فقالت الملكة : الاحياء الثلاثة ؟

– نعم إذ لا بد منهم لانفاذ ما اوصيتني به وقد ظفرت بهم اليوم بعد

www.mlazna.com-RAYAHEEN

العناء الشديد وبقي عليك ان تأتيني بالغلام الميت ولكن يجب ان يموت موت اغتصاب عنيف فلا تنسي .

– موت اغتصاب عنيف ؟

– نعم ولكن دون اهراق دم فلا تنسي .. اسرعي يا سيدتي فان الأحياء الثلاثة ينتظرون .. انظري .

وعند ذلك ازاح ستاراً فأغمض ريدون عينيه وجعلت الملكة تنظر .

وقد رأت الملكة ثلاثة كراسي مسمّرة في الأرض بحيث لم يبق سبيل لتحريكها .

ورأت ثلاثة فتيان مربوطين الى تلك الكراسي وقد غارت عيونهم من الرعب وشحبت ألوانهم من الخوف فلو صور الرعب لما تمثل بغير هذه الرسوم .

وكان الأول في الرابعة عشرة من عمره والثاني في الخامسة عشرة والثالث في السادسة عشرة .

فكان الناظر اليهم يخال اليه انهم يصيحون مستنجدين وانما يخال اليه ذلك مما يراه في تلك العيون من دلائل الرعب العظيم .

غير ان هذا المنظر الرائع لم يطل فان الرجل انزل الستار فمسحت الملكة العرق الذي تندى به جبينها وقالت :

اني لم احضر الليلة لأجل هذا يا ساتان .

فظهرت علائم الانذهال على هذا الرجل الذي دعته باسم رئيس الأبالسة وسألها بنظره .

فدنت الملكة منه واسرت في اذنه بضع كلمات فهز رأسه مبتسماً وذهب الى خزانة من حديد ففتحها وهناك كثير من الزجاجات المختلفة فأخذ واحدة منها ودفعها الى الملكة وهو يقول :

خذي يا سيدتي فهذه هي الصاعقة .

فأخذت الملكة الزجاجة فسترتها تحت وشاحها وخرجت فشيعها ساتان إلى الشارع وقال لها :

اذا لم تحضري لي الغلام الميت لا اكون مسؤلاً عن الأحياء الثلاثة .

فارتعشت الملكة وقالت :

حسناً ففي هذه الليلة او منذ هذه الليلة .

ثم تركته وانصرفت يخفرها ريدون الى المنزل الذي تقيم فيه لورانس والدة روزالي والذي يقيم فيه هاردي وهو غلام فتفتكر بأولئك الأحياء الثلاثة الذين ينتظرون الغلام الميت .

وكان السكون مخيماً على باسافان وقد ساد الظلام فيه ما خلا غرفتين كان ينبعث منهما نور ضعيف .

غير انه كان لا يزال يسمع في الضواحي بعض الأصوات وقد رأت الملكة ان نوافذ البيوت المجاورة كانت تقفل دون ضجيج مما يدل على حدوث حادث في هذا المنزل .

وذلك انه في الساعة الأولى بعد انتصاف الليل هوجم ذلك المنزل فارتفعت الصيحات هنيهة ثم انقطعت الاصوات فاحتل المهاجمون القاعات واسروا الخدم .

وكانت الملكة تنتظر عند الباب فدخل ريدون الى المنزل مستطلعاً وعاد اليها بعد هنيهة فقال لها :

لقد تم كل شيء بسكينة مع سكان المنزل ما خلا هردي الصغير فقد أقام الدنيا واقعدها وقتل واحداً من الجنود .

فقالت له بلهف : ولكن هذا الغلام لم يجرح ولم يسل دمه أليس كذلك ؟

ـ كلا يا سيدتي فانه لم يصب بخدش .

ـ حسناً حسناً والهيكل ؟

ـ اضيئت فيه المصابيح .

ـ وكاتب العقود ؟

ـ في الهيكل .

ـ والكاهن ؟

ـ هناك ايضاً .

ـ وهي ؟

ـ راكعة تصلي عند درجات الهيكل .

ـ وهو ؟

ـ الكونت دي نيفر ؟

ـ نعم جان .

ـ انه واقف ايضاً عند باب الهيكل .

ـ اذن ادخل امامي ولا تفارقني لحظة واحدة .

فتقدمها ريدون حتى وصلت إلى القاعة التي كان مجتمعاً فيها من تقدم ذكرهم .

وقد لقيت جان عند باب تلك القاعة التي تحولت الى هيكل فقالت له :

هل انت مستعد ؟

قال : ولكن ذلك فظيع .

ـ هل انت مستعد ؟

ـ سيدتي انهم اذا علموا بما سيجري اعاقب بالموت .

ـ قلت لك هل انت مستعد ؟

ثم قالت لريدون : انتبه .

فسمع جان ما قالته ورأى نظراتها الهائلة الى قائد حراسها فطأطأ الرأس وقال :

نعم اني مستعد .

وعند ذلك دخلوا بحملتهم الى القاعة فمشت الملكة الى لورانس التي كانت راكعة عند درجات الهيكل حتى وصلت اليها فوضعت يدها على كتفها وقالت :

لقد فتشت هذا القصر وعلمت يقيناً انه لا يعلم احد بهذا السر .

فنظرت اليها لورانس نظرة تشف عن خالص الامتنان وقالت :

هو ذاك يا ملكتي المحبوبة فاني اقطع لساني قبل ان يخطر لي ان ابوح بهذا السر وكيف افعل وانت ستمنحين ابنتي نسباً وتنعمين عليّ بالحياة .

— تشددي وانهضي .

فنهضت لورانس ولم تلبث ان نظرت الى الحاضرين حتى جعل صدرها يخفق خفوق اجنحة الطائر وتنبهت في قلبها عواطف ذلك الحب القديم ، الحب الوحيد ، الحب الأول . وذلك انها رأت جان واقفاً عند باب تلك القاعة .

وقد تغلبت قوة الحب عليها فدفعتها اليه وتقدمت منه ثلاث خطوات ولكن جان لبث في مكانه غير مكترث لها كأنه لا يعرفها .

فتراكضت منذعرة وذهبت منها عواطف الحب فلم يبق غير عواطف الامومة .

وكانت الملكة واقفة تراقب هذا المشهد فرأت لورانس تتراجع امام جان مغلوبة منكسرة فنادت الكاهن وقالت له :

هوذا الصك قد كتب وهؤلاء الشهود قد حضروا وهذان الخطيبان وهما النبيلة لورانس دي ابزيم والسيد القادر جان دي بورجونيا كونت دي نيفير . ايها الكاهن تمم واجباتك .

فقال لها الكاهن : انك تعلمين يا سيدتي بأن ذلك كفر .

قالت : وانت تعلم ايضاً انك اذا زدت كلمة على ما قلت القيتك في أعماق السجون .

www.mlazna.com-RAYAHEEN

فاصفر وجه الكاهن وتنهد ثم بدأ صلاة الاكليـــل اذ لم يجـــد بداً من الامتثال .

ثم انتهت الصلاة ولم يبقَ غير التوقيع على صك الزواج .

وكان هذا الصك مكتوباً وقد وضعوه على مائدة كان عليهـا كاهن لم يعلم احد المراد منه .

فأخذ الكاهن القلم وكتب اسمه في ذيل الصك . ثم تلاه قائد الحراس فرسم صليبـاً بدلاً من التوقيع لأنـــه لم يكن يعرف الكتـابة ثم تلاه جميع الشهود .

وعند ذلك أخذت الملكة القلم وكتبت اسمها على صك الزواج فكـان شبه حكم قاض بالاعدام .

وجاء بعدها دور جان فوضع اسمه بيد ترتجف على صك الزواج الذي اذا ظهر حوكم وحكم عليه بالقتل لانه كان متزوجاً .

وقد جرى كل ذلك دون ان يفوه احد بكلمة ولورانس واقفـة تنظر إلى ما يجري وهي لا تكاد تصـدق لفرط سرورها وتحسب نفسها حـالمة وتناجيَ نفسها فتقول :

روزالي ان هردي لا يطردك والناس لا يحتقرونك .

وعند ذلك قالت لها الملكة : لقد جاء دورك .

فأخذت لورانس القلم والدموع تسيل من عينيها وكتبت اسمها :

اما الملكة فانها ذهبت الى الكأس فملئتها من زجاجة السم الذي اعطاها إياها ساتان .

وبعد ان وقعت لورانس توقيعها التفتت الى الملكة كي تشكرها ولكنها لم تكد تراها حتى وهت قواها وارتعشت ركبتاها وملأ الذعر قلبها فانها فهمت قصد تلك الملكة الهائلة .

وذلك انها رأت الملكة تدنو منها وتمد لها الكأس .

اما تلك الوالدة المنكودة فانها جثت على ركبتيها وقالت .

رحماك ، دعيني ارى ابنتي مرة ايضاً
فأجابتها الملكة قائلة بعنف :
إشربي .
فوثبت لورانس وتراجعت منذعرة وهي تقول :
لا أريد ان اموت قبل ان أرى بنتي .
فمشت الملكة اليها وقالت :
إشربي .
ـ رحماك ، دعيني أرى بنتي وبعد ذلك أموت .
ثم انثنت عن عزمها كأنما كلمة الموت اذكرتها الحياة وطيبها فقالت :
كلا .. كلا .. اني لا اريد ان أموت ، اني لا اريد ان افارق بنتي .
وكانت تقول هـذه الأقوال وهي تتراجع منذعرة ، والملكة تمشي اليها بالكأس حتى التصقت بالجدار .

٤

سم ساتان

ان هذا الرجل الذي كانوا يلقبونه بساتان ، أي رئيس الأبالسة ، بعد ان قبع الملكة ورئيس حراسها الى الشارع ، عاد الى منزله فأسرع الى الخزانة الحديدية وتفقد تلك الزجاجات التي كانت فيها ثم اقفلها وهو يقول :
حسناً ، فاني احب ان اعـلم اذا كان شرب ذلك الشراب الذي اعطيته للملكة يحول دون الموت .
وهذا اخص ما أريد ان اعلمه فلاعلم الآن اين تجري هذه الحادثة .
وقد اسرع بالخروج من منزله ، واقتفى اثر الملكة عن بعـد حتى رآها دخلت الى منزل باسافان فوثب الى الحديقة ، ووقف تحت نافذة القاعة التي

جرى فيهـا الاكليل ، فسمع صراخ لورانس تصيح تلك الصيحـات المنكرة وهي ترى الموت امام عينيها ، وترى نفسها في مقتبل الشباب فتخاف ذلك الموت خوفاً ذريعاً .

ولقد تركنا تلك المنكودة تتراجع حتى التصقت بالجدار فنظرت الى ما حواليها نظرات نارية ، ورأت جان واقفاً في مكانه لا يتحرك ، فدنت منه وقالت له :

اذكر اني احببتك .

فلم يجبها بحرف .

فوثبت اليه وهزته بعنف وهي تقول :

اذكر ايضاً انك احببتني .

فدفعها بعنف كي يتخلص منها .

فكادت تجن ليأسها ورأت ريدون فقالت له بلهجة المؤنب :

سيدي ، انقذني .

فأجابها قائلاً : ذلك لا يعنيني .

فالتصقت عنـد ذلك بالجدار واطرقت برأسها وجعلت تبكي وقد فقدت كل رجاء بالحيـاة فلم يبق لها غير خوف العذاب ، عذاب النزع ، وجعلت تنظر منذعرة الى الكأس التي كانت تقدمه لها الملكة والملكة لا تشفق عليها وتقول لها : إشربي .

فأخذت لورانس الكأس بيد ترتجف وقالت .

رباه ، كم سأتعذب !

قالت : كلا ، انك لا تتعذبين فان هذا السم يلقب بالصاعقة .

فأدنت لورانس الكأس من شفتيها وافرغت ما فيها في فمها على رجاء ان الشراب سيصعقها فلا تشعر بعذاب ، ثم القت الكأس من يدها .

وقد مرت بالجميع دقيقة هائلة فانهم كانوا واقفين وقوف من يلهب فتيل لغم وينتظر انفجاره .

www.mlazna.com-RAYAHEEN

ولكن اللغم لم ينفجر ، أي ان لورانس لم تصعق ، ولم تمت ذلك الموت السريع كما قال ساتان حتى انها لم يبد عليها شيء من علائم الموت ، بل ان الأمر كان على عكس ما يتوقعون ، فان وجهها ، بعد ان كانت تعلوه صفرة الموت ، تورد وابرقت عيناها وظهرت عليها علائم الارتياح حتى انها كانت تبسم .

فذهل ريدون وذعر جان وبلغ الغضب بالملكة اقصى حدوده اذ أيقنت ان ذلك الشراب لم يكن سماً .

وقد أصابت في اعتقادها ، فان ساتان لم يعط الملكة سماً صاعقاً ، كما قال لها ، بل أعطاها شراباً مخبباً ، منعشاً ، ولذلك كانت تتقوى في كل لحظة وتتشدد .

والأغرب من كل ذلك انها كانت تضحك ضحكاً يشبه ضحك أولئك الأبطال الذين لا يعرفون ان يترجموا عن هنائهم بغير الضحك ، وقد بسطت يديها الى الملكة وقالت لها :

انك أردت تجربتي ، يا سيدتي ، كما يظهر .

وعند ذلك التقى نظر جان بنظر الملكة فكأن نظر جان يقول :

انها اذا عاشت لا يكون لي من حياتها غير الموت .

وكان نظر الملكة يقول :

إذن ماذا تنتظر ؟

أما لورانس فانها نظرت الى الاثنين نظرة امتنان وقالت :

كن مطمئناً ، يا مولاي ، واطمئني يا مكلتي ، فقد منحتماني الحياة ولكن ..

وقد قطع عليها حديثها تنهد عميق سقطت على أثره الى الأرض ، فان الصاعقة قد انقضت حقيقة هذه المرة ، وكانت ممثلة بخنجر جان .

وفي تلك الساعة ، دخلت إمرأة لابسة ملابس السواد ، وعليها هيئة اللصوصية فانحنت امام الملكة وقالت :

ان سكرتيرك ، يا مولاتي ، قد ابلغني اوامرك فحضرت .
فقالت لها الملكة : أتعرفين ما يجب ان تعمليه يا جيرود ؟
قالت : نعم ، فقد اخبرني السكرتير ما يجب فعله .
ـ هل أنت مستعدة ؟
ـ دائماً .
ـ حسناً .
ـ وهذه المركبة التي تنتظر في شارع سانت مارتين ؟
ـ انها هنالك .
أما جان فانه دنا من لورانس ، بعد ان طعنها تلك الطعنة ، وفحص جرحها .
فحركت يدها المنغمسة بدمها دون ان تريد ، ثم لم تعد تبدي حراكاً .
فمسح جان عند ذلك العرق عن جبينه ونظر الى يده فارتعش اذ رآها مصبوغة بالدم ولم يكن الذي يتوهمه عرقاً على وجهه غير دماء ضحيته .
وكذلك ريدون فانه انحنى وفحص تلك المنكودة ووضع يده على قلبها ، ثم نهض وهو يقول :
لقد ماتت .
فوثقت الملكة من قول ريدون لأنه كان من العارفين والتفتت الى تلك المرأة التي دعتها جيرود كي تكلمها فسمعت ضجيجاً فجائياً تلاه صوت ركض وشتائم في المنزل واصواتاً تقول :
اقبضوا عليه امسكوا .
ثم فتح الباب بعنف شديد ، ودخل منه الغلام هاردي ممزق الملابس وخنجره بيده .
فأوقفت الملكة باشارة الجنود الذين كانوا يطاردونه بحيث لبثوا خارجاً ودنا جان من الملكة فقال لها :
ان هذا الغلام قد يكون شاهداً على فعلنا ويجب ..

فقاطعه ريدون قائلاً :

انه سيذهب الى محل بعيد .

وقالت له الملكة :

اسكت ، ثم قالت لريدون :

انه يجب ان يذهب الى الجزيرة ، أي الى ذلك المنزل الذي خرجا منه.

أما الغلام هاردي فانه كان يصيح بملء صوته قائلاً :

ماذا تفعلون هنا ، ومن انتم أيها اللصوص ؟.. قولوا ماذا فعلتم بروزالي وإلا قسما بابي وبالله ، اني سأمزقكم شر ممزق ، وستعلمون ما يصنعه هاردي باسافان .

ان هاردي وان كان يظهر عليه انه يبلغ الخامسة عشرة من عمره فهو لا يزال غلاماً .

ولكن تاريخ ذلك العهد كان حافلاً بمثل هذه الحوادث ، فقد روى لنا التاريخ ان ابن الملك جان الملقب بالطيب كان غلاماً حين ابى ان يسلم الى فرقة انكليزية حملت عليه بحملتها في معركة بواتيه فقاوم تلك الفرقة ودافع عن أبيه الجريح خير دفاع وهو لم يكن غير غلام .

وما جاز للتاريخ يجوز لنا فلا يستغرب القراء في مثل ذلك العهد ، عهد الفروسية ، ان يروا هاردي يهجم على جان وعلى ريدون .

وكانت الملكة قد اصدرت أوامرها الى ريدون وختمها بكلمات ساتان وهي « لا تنس انه لا يجب أراقة دمه » .

أما هاردي فقدكان أول ما فعله انه وثب الى المائدة كي يصل الى ريدون وجان فانقلبت المائدة وتبعثر ما عليها من الأوراق وبينها صك الزواج .

فالتقطها جان بيد ترتجف وقالت الملكة للمرأة جيرود. إسرعي باجراء مهمتك وصاح هاردي قائلاً :

اخرجوا من هنا أيها اللصوص الاشقياء .

www.mlazna.com-RAYAHEEN

وقد جرى كل ذلك في وقت واحد ، فلم يكن غير لحظة بعد خروج تلك المرأة حتى سمع صوت طفلة تصيح قائلة :

هردي ، اليّ يا هردي .

وكان هذا الصوت صوت روزالي التي يخطفونها ، فعلا بكاؤها ثم انقطع صوتها ، فالتفتت الملكة الى جان فرأته يحرق بنور الشمعة تلك الأوراق التي التقطها ويقول :

لقد احترق الصك ومات الشاهد فلم يبق مجال للخوف .

ولكنه كان يرتجف وهو يقول هذا القول كأنما قلبه كان يحدثه بأنه كان كاذباً في اطمئنانه .

فلم تكترث الملكة لما رأته وقالت : هلم بنا ، ثم خرجت من تلك الغرفة يصحبها جان دون ان يلتفتا الى تلك الشهيدة التي سفكا دمها .

وعند ذلك خرج ساتان من مخبئه والتقى بالملكة حين وصولها الى الباب فقال لها :

سيدتي لقد حصل خطأ ولكنه يصلح دون شك

فأجابته قائلة : لقد اصلحنا هذا الخطأ .

قال : ولكن أشرب الذي اعطيته الزجاجة كل ما فيها ؟

قالت : نعم ، فاني أغفر لك خطأك هذه المرة ، ولكن لا تنسى ما وعدت به ..

اعطني يا سيدتي الغلام الميت وعليّ البقية .

فقالت له بصوت أجش : سيذهبون به الى منزلك .

ثم توارت عن انظاره مع جان يخفرهما بعض الجنود وبأيديهم المشاعل .

فقال ساتان في نفسه : انها اذا كانت تعني ذلك الغلام الذي يطاردونه دون ان يقتلوه فاني مشكك بأمر فوزهم لأني رأيته شيطاناً بصورة إنسان ، ومع ذلك فان الوقت لا يزال فسيحاً لدي ، فلأنظر ماذا حدث .

ثم دخل الى المنزل وذهب الى تلك القاعة التي جرت الحادثة فيها ورأى جثة لورانس منطرحة على الأرض .

فأسرع وركع امامها ووضع يده على قلبها كما فعل ريدون من قبله.

وبعد هنيهة ابتسم ابتسامة المنتصر وقال :

لقد صحت التجربة ، فان الخنجر قد أصاب مقتلاً منها ، وكان يجب ان تكون ميتة الآن ، بل انهم خرجوا وهم يعتقدون كل الاعتقاد بموتها .

ولكنها شربت ذلك الشراب الذي أعددته فأوقف الموت . إذن ، لقد صحت تجربتي الاولى ، والآن سأمزج دم الغلام الميت بدماء الفتيان الثلاثة الأحياء ..

وهنا توقف عن الكلام وقد اتقدت عيناه ببارق الكبرياء فلم يعد يكترث للورانس وانصرف مسرعاً فتركها حيث وضعها .

وبعد هنيهة انقطع سيل الدم من جرحها وعاد التنفس اليها وعاد قلبها الى الخفوق وهو ذلك القلب الذي أكد ريدون انه لا ينبض ، فان تلك التي كانوا يعتقدون انها ماتت كانت لا تزال على قيد الحياة .

وأما الغلام هردي فقد فعل فعل الابطال ولكن ما عساه يفعل مع ريدون وأمثاله فأخذوا يطاردونه ويسدون عليه المنافذ حتى اوصلوه الى الشارع ثم جعلوا يطاردونه الى جهة الجزيرة وهو يرتد اليهم من حين الى حين فيجرح كل من يصل اليه ولكنهم لا يصيبونه بأذى بل يدفعونه الى الجزيرة بحيث لم يخدش خدشاً .

وقد عجب لأمرهم وجعل يقول في نفسه : ترى لماذا يقتلوني وقد جرحت ستة منهم وهم قادرون عليّ !

وعند ذلك دب الرعب في قلبه وأيقن انهم لا يريدون قتله لغرض خفي عليه فعلم ان هناك خطراً يتهدده وهو أعظم من القتل .

فكان ذلك الخوف من الخطر المجهول يزيده عنفاً وارتياحاً الى الموت

www.mlazna.com-RAYAHEEN

فيهجم عليهم بقلب لا يخاف فيجرح من يجرح منهم ثم يكرهونه الى الارتداد ويعودون الى المطاردة بالطريقة المتقدمة .

وما زالوا على ذلك حتى دنوا من النهر فشعر بضربة يد عظيمة اصابت رأسه فسقط على اثرها مغمياً عليه

٥

هردي دي باسافان

لم يطل إغماء هردي ، فلما صحا شعر انه مطروح على خشبة وان هذه الخشبة تتحرك ، ثم سمع صوت الجاذيف والأمواج فأيقن انه في البحر وانه في زورق .

فحار في امره وقال في نفسه : ترى لماذا وضعوني في زورق وإلى أين يذهبون بي ؟

وعندما فتح عينيه رأى ريدون ، ذلك الرجل الهائل الجثة ، ينظر اليه وما في عينيه يدل على انه يريد قتله ، فعاد الى الاضطراب وقال في نفسه :

اذا كان الأمر كذلك فلماذا لم يقتلني ومن الذي منعه عن قتلي ؟

اما ريدون فكان يناجي نفسه فيقول :

ترى لماذا ارادت الملكة ان لا يسال دمه ، فقد كان بوسعي ان اقضي عليه بطعنة خنجر ثم ألقيه في الماء فلا يراه احد .

ولكن كل ذلك من اسرار ساتان فما عسى يريد هذا الشيطان الرجيم ؟ على اني استطيع قتله بضربة على أم رأسه دون ان اهرق دمه .

وكان الاثنان يحدثان نفسيهما بهذه الاقوال والزورق يسير حتى بلغ الى منتصف النهر .

www.mlazna.com-RAYAHEEN

وعند ذلك صحت عزيمة ريدون على قتله بضربة على رأسه كما قرر ، فنهض بتلك السكينة ، سكينة من تعود على القتل ، وضم يده وقد اتقدت عيناه .

اما هردي فانه رأى ما كان منه وأيقن انه قاتله ، فلم تكن إلا لحظة حتى وثب بخفة النمر من الزورق الى المياه .

فرفع احد البحارة المجذاف وحاول ان يضربه ولكن ريدون اسرع الى ايقاف يده قبل ان يفعل وقال له :

ألم أقل لك ايها الأبله اني لا اريد ان اسيل دمه ؟

ثم وثب الى النهر في اثر هردي .

وعند ذلك سار الزورق مسرعاً كي يقطع سبيل الرجعة على هردي واقتفى ريدون اثره سابحاً .

وما زال مجداً في أثره حتى أدركه قرب الشاطيء فضربه على رأسه تلك الضربة الشديدة ، وكان هردي قد وهنت قواه فعاد الى الاعماء .

وعند ذلك جذبه ريدون الى الرمال وفحصه فحصاً مدققاً فأيقن انه مات .

وكان الزورق قد ادركه فحمله اليه وسار به حتى وصل الى منزل ساتان .

وهناك رسم علامة الصليب على وجهه وقرع الباب ففتح له ساتان الباب وقال له ادخل.

فدخل ريدون بهردي القاعة الاولى ثم الثانية .

وكانت الستارة مفتوحة فرأى اولئك الفتيان الثلاثة مربوطين الى تلك الكراسي الغليظة وقد جمدت عيونهم من الرعب إذ رأوا ريدون يحمل جثة على ظهره .

أما ساتان فانه أمر ريدون ان يدخل الى قاعة ثانية فرسم علامة الصليب ودخل وهو يتمتم بالصلاة الى قاعة لم يكن فيها من الأثاث غير مائدة من

الرخام وبقربها في زاوية الغرفة أناء من تلك الأواني التي يضعون فيها المياه وفيه أسفنجة كبيرة .

فأمره ساتان ان يضع الجثة على المائدة ففعل وهو يرتجف رعباً وهو يرسم علامة الصليب.

وبعد ذلك سأله ان يعينه على نقل الفتيان الثلاثة بكراسيهم الى تلك الغرفة فامتثل وهو يرتجف من الرعب وقد شخصت عيون الفتيان الى تلك الجثة الموضوعة على الرخام وبدت عليهم علائم الحزن .

أما ريدون فانه لم يكد يفرغ من هذه المهمة حتى اسرع بالخروج من هذا المنزل الرهيب فلما وصل الى الشارع جعل يركض وقد كاد يضيع رشاده من الخوف فبقي ساتان وحده أمام جثة هردي والفتيان الثلاثة .

كان هذا الرجل اذا نظر اليه احد لا يستطيع ان يعلم اذا كان من اهل الكهولة ام من اهل الشباب فقد بلغ النحول ما لم يبلغه المرضى ولكنه لم يكن مريضاً بل كان قوي البنية شديد العضل وله عينان تتوقدان ذكاء ينفذ نورهما الى اعماق القلوب ومجمل هيأته يدل على الجلال .

وقد رأوه في نابولي وفينيسيا وفلورنسا وروما حتى استقر في باريس فلم يعلم احد شيئاً من حياته السرية ولكن الناس كانوا يخافونه ويجتنبون المرور بمنزله لاعتقادهم انه من عمال الأبالسة ورسل جهنم واهل السحر وهذه الخرافات كانت كثيرة الشيوع في ذلك الجبل وفي الجبل الذي تقدمه كما بسطناه جلياً في رواية الساحر العظيم .

وقد وقف ساتان ينظر الى جثة هردي وهو يناجي نفسه فيقول :

اني سأبذل جهداً آخر وأفوز الفوز الأخير نعم فان ما رأيته من هذه المرأة في منزل باسافان أكد لي اني سائر في اقوم سبيل ولا بد لي من الفوز .

وبعد فماذا كان مصير هذا الغلام لولا ان أتصدى له ؟

ذلك امر منوط بالغيب ولكن ما بالي اشفق عليه ألعلي أشفقت على تلك

الجثث التي كنت اسرقها من المقابر .. ألعلي اشفقت الآن على هؤلاء الفتيان الثلاثة الذين احتاج الى دمائهم .

ان هردي دي باسافان يجب ان يكون دمه نقياً .. اسكتوا انتم .

قد قال هذا القول للفتيان الثلاثة الذين كانوا يأتون .

ولكنهم لم يسكتوا بل جعلوا يزيدون انيناً فانتهرهم قائلا :

لا تكثروا الصياح والأنين فانكم لا تخيفونني ولا تحملونني على الإشفاق فان لي اسماً لا تتصل بـــه الرأفة ولا سبيل الى الرحمة لأني ادعي العلم والعلم لا يرحم .

أتعلمون ماذا ابغي ؟ ان أفوز على الموت واكتشف الخلود .

وذلك لا بد منه فاذا لم اظفر به اليوم ظفر به سواي ولو بعـد عشرة آلاف عام فيصبح الانسان خالداً في الدنيا لا سبيل للموت اليه .

فاذا قتلت ثلاثة انفس في سبيـل قتل الموت نفسه لا أكون أسأت الى الإنسانية بل اكون اعظم محسن اليها .

اسكتوا وما نفع حياتكم في جانب حياة الملايين من البشر .

فاطرقوا برؤوسهم ولم يستطيعوا ان يصيحوا لشدة ما تولاهم من الرعب وظهرت في عيونهم دلائل الجنون فمضى ساتان في حديثه فقال :

اني اريد ان امزج كل نقطة من دمائكم بكل نقطة من دماء هذا الميت . كفى واسكتوا فاني اريد كشف قلب الغـلام فلا تزعجوني بصيـاح لا يجديـكم .

وعند ذلك وضع مصباحاً قرب رأس هردي وكشف الملابس عن صدره .

ثم ذهب الى خزانة فأخذ منها ثلاث زجاجات تشبه الزجاجة التي اعطاها الملكة ووضعها على مائدة الرخام .

وبعد ذلك أخذ مبضعاً رقيق الشفر حاد النصل فتمعن هنيهة بجلد هردي .

www.mlazna.com-RAYAHEEN

٦

احلام

نبدأ في هذا الفصل من اول حدوث الاحلام فيـــه ، أي منذ اخرج ريدون هردي وألقاه صريعاً على الرمال .

فقد كان هردي منذ تلك الساعة عرضة لتأثرات عظيمـة فكانت تجول في ذاكرته الحوادث التي مرت به بحملتها من حين دخول الجنـد الى منزله وهو يعتقد انهم من اللصوص إلى حين خروجه إلى الشارع إلى مطاردته الى سقوطه في المياه.

وقد تقدم لنا القول انه كان يبلغ الخامسة عشرة من العمر ولكن كانت له قوة الشباب وهو عائش في عصر مختلف جداً عن عصرنا هذا ، أي في ذلك العصر الذي قاوم فيه ابن الملك جان فرقة بحملتها وانقذ أباه الجريح ، وفي ذلك العصر الذي هبت فيه فتاة راعية وصارت محاربة ثم صارت قـائدة جيش ثم انقذت بلاد الفرنسيس من الانكليز وهي جان دارك .

وقد كان هردي شديد الإحساس واختلفت التأثرات عليه في تلك الليلة وتكاثرت حتى بلغت اقصى حدود الهياج العصبي حين سقط على الرمـال لا حراك به امام ذلك العملاق .

وكان جرس الكنيسة يطرق في تلك الساعة فكان أول ما خيل له ان مطرقة الجرس قـد أصابت رأسه لايدريدون فسقط صريعاً وبات جثـة تشبه سائر الجثث في كل شيء ما خلا ذلك التيبس السريع الذي يصيبها .

على ان القلب لم يكن ينبض وبدت عليه كل دلائل الموت فكيف كان يحلم وهل للأموات فكر وضمير بعد ان تعرض اجزاء اجسامهم للانحلال .

ومن عساه يجسر على ان ينفي بالبرهان هذا القول وكيف يستطيع اثباته بغير الوسائل المادية والروح غير مادية .

انه صريع ملقى جثة باردة على الرمال فهل كان جثة في كل وجوده ؟

ألا يمكن ان تكون أشعة الفكر لا تزال تضيء في ذلك الدماغ شبيهة بالأنوار الغازية او تلك الأرواح التي تتراءى في الأحلام .

اذن لنجسر على القول بأن هردي كان ميتاً وبأن هردي كان يفتكر .

وكانت الأفكار تزدحم في مخيلته ولكنها تتوارد دون انتظام إذ لم يكن لها قائد ولا رابط .

مثال ذلك انه كان يتراءى له ان الموت كامن تحت المياه التي كانت تطن في أذنيه وان في هذه المياه عصافير تمر وهي تعبث بستار مسمّر بمسامير من ذهب فكانت العصافير الغيوم والستار السماء والمسامير الذهبية النجوم فيقول في نفسه .

اني خائف من هذه العصافير ومن هذه الظلمات المحدقة بي .

وكان الخوف متسلطاً عليه ولكن هذا الخوف لا تتمثل له اسبابه كما تتمثل لنا فقد كانت افكاره مضطربة مختلطة لا مرونة فيها كالجسم المفلوج .

ثم كان يخال له انه محمول وذلك حين حمله ريدون فيرتجف خوفاً ويقول:

رباه إلى اين يسيرون بي .. رباه ان الموت يحملني ولكنه يمرجحني .. رباه من هذا الرجل الأحمر الذي يريد ان يذهب بي الى الأبدية !

وقد خطر له ذلك حين فتح سائق الباب لريدون وكان متشحاً بوشاح احمر .

وقد حسب هردي انه يصيح مستنجداً ولكن شفتيه لم تفتحا ولم يخرج من فمه صوت عالي الاطلاق .

ثم شعر فجأة ان التمرجح قد انقطع وان الرجل الاحمر يقوده الى القبر وانه وضعه فوق سرير بارد .

وذلك حين وضعه على مائدة الرخام .

ثم خيل له ان ناراً مضرمة قد دنت من عينيه وذلك حين وضع ساتان المصباح على المائدة فخيل له ان اعضاءه قد التهبت وان جهنم قد فتحت ابوابها كما خيل له انه يملأ الأرض صياحاً ولكنه لم يفتح فمه .

وعلى الجملة فقد كان في أشد حالات الاضطراب في فكره لا في جسمه إذ خيل له ان هذا الرجل الاحمر قد قيده على السرير الحجري وجعل يربط عروقه ويعذبه عذاباً لا تحتمله النفوس .

وآخر ما كان من سلسلة عذابه انه خيل له ان الرجل الأحمر قد استحال الى شيطان وانه يحمل بيده حربة مسنونة ويدنو منه محاولاً خرق صدره بها .

وذلك حين أخذ ساتان المبضع وحاول فتح صدره بها فخيل له ان هذا الشيطان يبحث بتلك الحربة عن قلبه .

وقد كان مصاباً عند ذلك بما يصاب به النائم حين يفاجئه الكابوس فجعل يدافع الموت دفاعاً عنيفاً وهو يجد انه مقيد لا سبيل له الى الدفاع .

وما زال على هذا العذاب الى ان وضع ساتان المبضع فوق صدره فشعر ان رباطه قد حل وانه بات قادراً على مقاومة ذلك الرجل الجهنمي الأحمر الذي يبحث بحربة عن قلبه .

www.mlazna.com-RAYAHEEN

٧

حقيقة

فتراجع ساتان منذعراً وقد سقط المبضع من يده وسالت نقطة دم من صدر هردي كانت تشبه الياقوتة وجعل ساتان ينظر إلى الفتيان الثلاثة منذعراً ويقول:

من الذي صاح منكم هذه الصيحة ؟

ولما لم يجبه احد دنا منهم وفحصهم فحص المرتاب ثم عاد الى جثة هردي فوقف جامداً مبهوتاً وهو يقول :

انه هو .. نعم فان عينيه قد فتحتا وهو ينظر إليّ.. نعم نعم انه هو.. وها هو قد نهض .. نعم انه نزل عن المائدة .. نعم انه حي .

فأجابه هردي قائلاً : نعم اني لا أزال حياً .

وقد وقف كل منهما ينظر الى الآخر نظر المبهوت اما هردي فقد كان بين النائم والصاحي والحقيقة والخيال واما ساتان فانه لم يصدق ما يراه بعد ما ثبت له انه كان ميتاً .

غير ان هردي صحا أتم الصحو بعد هنيهة ونظر الى تلك الآلات التي كانت على المائدة فمد يده اليها وأخذ منها مبضعاً كبيراً يشبه الخنجر دون ان يراه ساتان فان عينيه كانتا شاخصتين الى تلك النقطة من الدم التي اسالها في صدره .

والعجيب انه لم يشعر بشيء من الرعب حين رآه قد بعث بعد الموت .

ولكنه كان ينظر الى تلك النقطة الدموية نظرات حقد لا تصفه الاقلام لحبوط مشروعه .

ولم يفه الاثنان بكلمة فكان هردي واقفاً عند المائدة الرخامية وساتان مكتوف اليدين على قيد اربع خطوات منه والفتيان الثلاثة ينظرون إلى هردي نظرات انذهال لا توصف .

أما هردي فانه حين نظر الى هؤلاء المقيدين ورأى نفسه في تلك القاعة المظلمة الباردة كان اول ما خطر له ان يركن إلى الفرار .

ثم تغلبت عليه عواطف البسالة والمروءة والاشفاق حين سمع أولئك الثلاثة يستغيثون بمروءته ، ويستنجدونه على ذلك الساحر فقال :

نعم ، اني سأنقذكم .

وعند ذلك جرد ساتان خنجره وقال :

انك قد نجوت من مبضعي وبذلك كفاية ولكن الويل لك اذا لمست أحداً من هؤلاء .

ولكن هاردي لم يسمعه أو انه ابى ان يصغي اليه فوثب الى الثلاثة وقطع رباط اقربهم اليه بتلك الآلة الجراحية التي كانت بيده .

وعند ذلك هجم عليه ساتان وطعنه طعنة هائلة .

ولكنه خلا من تلك الطعنة برشاقة عجيبة اذ انبطح على الأرض وزحف من تحت المائدة فوثب الى الأسير الثاني فقطع رباطه ، ثم قطع رباط الثالث مغتنما فرصة وجود المائدة بينه وبين ساتان بحيث اصبح الثلاثة أحراراً .

وقد كان عجيباً بخفة حركاته ، ولكن الاعجب من ذلك ان يفطن الى انقاذ قوم لا يعرفهم وهو في هذا الموقف الخطير .

أما ساتان فقد وقف مأخوذاً مبهوتاً من هذا العدو الهائل الذي لم يكن ينتظره ، ومن هذا النحس الذي لم يكن يتوقعه فقد نجا الأحياء الثلاثة وقام الغلام الميت من الموت وفي ذلك قضاء على آماله اذ كان ينوي ان يجرب التجربة النهائية في هذه الليلة .

وهو يجمع عدة هذه التجربة من عهد طويل ، وقد اسر الفتيان الثلاثة فسجنهم عنده كما رأيناه واقام ينتظر ان تمكنه الفرص من الغلام الميت بعد حيلته وصبره بالحصول على الاحياء .

وقد يأس يأساً شديداً لهذه الضربة وقال في نفسه :

ان هذا الغلام سيشكوني الى الحكام ويقول اني من السحرة ، وعند ذلك لا بد من الحكم عليّ بالأعدام فاذا قتلت فما يكون بعدي من أمر اكتشافاتي واذا هربت فكيف ادع هذه المعدات التي اعددتها في هذا المنزل ؟

وقد نظر عند ذلك نظرة قنوط الى الفتيان الثلاثة فرآهم واجمين ساكتين فقال في نفسه :

ان الرعب المتصل قد اضعف ذاكرتهم فهم لا يشكونني ، ولا يعرفون ان يعودوا الى هذا المنزل ، بل لا يجسرون ان يعودوا اليه ، ولكن هذا الغلام الذي كنت احسبه ميتاً في حين انه لم يكن إلا مصاباً بسكتة دماغية .. انه فوق الرعب فهو سيشكونني ولا تدافع عني الملكة ، بل انها باتت تريد التعجيل بقتلي .

والآن ، ماذا أصنع ؟.. انهم أربعة فاذا هاجمتهم كان الفوز لهم وحدثت معركة تنبه لها الجيران .

كلا ، بل يجب ان احتال على تفريقهم ومهاجمة الغلام الصغير .

وعند ذلك قال له هاردي :

أيها الشيطان الرجيم ماذا تريد منا ؟

فردد الثلاثة صوته قائلين :

ماذا تريد ان تصنع بنا ؟

فقال لهم ساتان : اذهبوا فانكم أحرار .

فقالوا وهم يكادون ان لا يصدقوا ما يسمعونه : أحرار ؟

قال : تعالوا .

ومشى أمامهم فتبعوه حتى اذا فتح الباب وخرجوا الى الشارع نسي

www.mlazna.com-RAYAHEEN

الفتيان الثلاثة كل شيء ، ولم يذكروا غير خـوفهم من ذلك الساحر فجعلوا يركضون ولا يلوون على شيء دون ان يقولوا كلمة شكر لمن انقذهم .

فابتسم ساتان وقال في نفسه : هذا الذي كنت اتوقعه .

أما هاردي فانه قال :

اني ذاهب عنك فاشكر مولاك بعلزبول الذي انقذني منك .

ثم انصرف بملء السكينة والاطمئنان يسير الهوينا .

فخفق قلب ساتان سروراً ، وجعل يسير في اثره في ظـلام الليل دون ان يراه .

وما زال هاردي يسير من شارع الى شارع حتى اقترب مـن نوتردام ، وهناك جعل يرتجف اذ أصيب بما يسمونه رد الفعـل ، فان ثيابه كانت مبتلة فشعر ببرد شديد ورأى نفسه وحيداً شريداً في هذه الظلمات وهو لا أب له ولا أم ولا أهل ولا صديق ، فجعل يبكي بدموع غزيرة ولا يجول في فكره غير إسم واحد وهو إسم روزالي .

وعند ذلك تجلى له لغز لم يستطع حله فقال: ترى ماذا جرى لأم روزالي ولماذا هاجموا منزله وماذا صنعوا بروزالي ؟

وكان ساتان منزويا في منعطف يراقبه فخيل له ان الفرصة موافقة فوضع يده على خنجره .

وعند ذلك مر العسس وسمع ساتان صوت رئيسهم يقول :

من هنا .

فنظر ساتان نظرة الى هاردي وهو على قيد عشر خطوات منـه وخطر له خاطر فجائي فالتفت الى رئيس العسس وقال له:

أرى انك تحمل صليب سانت أندريه ؟

قال : نعم ، وبعد ذلك :

ـ وان هذه الشارة خاصة ببيت دي بورجونيا .

ـ نعم ، فان الدوق دي بورجونيا مولاي.

ـ والكونت دي نيفير ولده أي جان الذي لا يخاف .
ـ نعم ، فهل تريد ان تهزأ بي أيها الرجل ؟
ـ كلا ، ولكن أترى هذا الغلام الواقف هنا ؟
ـ نعم .
ـ إذن فاعلم انك اذا اردت ان تخدم الكونت دي نفير اجل خدمة فاذهب بهذا الغلام اليه واذا اردت ان تشنق في صباح الغد فتجاوز عنه .

فأشار الرئيس الى جنوده إشارة فطوقوا هاردي وقبضوا عليه دون ان يستطيع الدفاع ، ثم التفت الى ساتان وقال له :

هلم بنا الى قصر دي بورجونيا ، واعلم انك اذا كنت تخدعني فلا يكون نصيبك غير الموت .

قال : اني اذهب معك، ولكنك اذا اردت ان تلقي الكونت دي نيفير فلا تجده الآن في قصر دي بورجوانيا .

ـ إذن أين أجده ؟
ـ قصر سان بول .

وعندذلك سار الجميع وهاردي بينهم طائعاً طاعة من يرى انه لا يستطيع معاندة الاقدار.

حتى اذا وصلوا الى ذلك القصر ارتعد هاردي اذ عرف انه قصر سان بول الرهيب .

وعند ذلك قال رئيس الحرس كلمة السر ففتح باب القصر الضخم ودخل الجميع تحت قبة مظلمة فخاف هاردي خوفاً شديداً وخيل له انه دخل الى ظلمة القبر فحاول ان يدافع عن نفسه ويهرب من الجنود ولكنهم تجمهروا عليه وقيدوه .

www.mlazna.com
^RAYAHEEN^

٨

امباريا

للكونت دي نيفير في هذه الرواية ثلاثة أسماء : أحدهم الاسم المتقدم ، والثاني جان الذي لا يخاف ، والثالث دوق دي بورجونيا .

فلندعه منذ الآن جان كي لا يشكل على القراء .

بعد ان خرجت الملكة من منزل باسافان صحبها جان الى قصرها ، وهو يعجب بمحاسنها ودهائها حتى وصلا الى القصر فدخلت به الى إحدى قاعاتها وقالت له وهي تبتسم :

إذن لم يبق حائل بيننا تقريباً ، فان لورنس دي ابزيم قد ماتت وابنتها روزالي أي ابنتك ستكفلها جيرود .

قال هو ذاك يا ملكتي ، فاسمحي لي الآن ان اكشف لك سرائر قلبي . اني لا اعلم ما اصابني بك ولا استطيع ان اعلم ، فلقـــد كنت أحسب اني احبك حين رأيتك في هذا الرواق وحين سمعت اقوالك فخلت انك حملتني على اجنحتك الى قمة الملذات .

ولكني كنت كاذباً في ظني ، فاني ما أحببتك إلا حـين رأيتك في تلك القاعه التي حولتها منذ ساعة الى هيكل بل شعرت اني ارتعـــد حباً وان حبك قد جرى في قلبي مجرى دمي في مفاصلي فوقفت اتأمل محاسنك وأعبدها كما يعبد المؤمنون الله ، والآن ..

وهنا هاج به حبه فتمتم كلمات لو سمعها سوى الملكة لما فهمها ولكنهـا

www.mlazna.com-RAYAHEEN

فهمتها ، فاقتربت من احد ابواب القاعة واتكأت عليه وجعلت تنظر اليه تلك النظرات الساحرة ، فانها كانت تكهربه بعينيها .

وقد خلعت رداءها وطرحته الى الارض فبان معصماها العاريان وعنقها الجميل ، وغلت الدماء في عروق جان فقال في نفسه :

انها اذا دفعتني وصدتني قتلتها ضماً بين ذراعي ، ولكن لماذا تدفعني ؟

أما الملكة فقد كانت تراقبه فقالت له بمنتهى الرقة :

انك الآن على ما اريد ان تكون ، حين تصبح دوقاً لبورجونيا وعندما يموت ابوك وتموت امرأتك دي هينوت ويموت زوجي شارل السادس فنضم دوقية بورجونيا الى مملكة فرنسا ونؤسس بجيشنا امبراطورية الغرب .

فهاجت لهذا القول اطماع جان كما هاج حبه وخيل اليه انه بات امبراطوراً ورئيساً اعظم لجميع العالم المسيحي .

وانها هي تفتح له ابواب هذا المستقبل العظيم فبذل جهداً عنيفاً كي لا يفتكر إلا بالطريق المؤدية الى هذا العرش وهي طريقة الدم دم الملك ، ودم امرأته ودم أبيه .

وهنا ابتسمت له الملكة ألطف ابتسام قائلة :

وعند ذلك أصبح لك يا جان .

ـ عند ذلك ؟

ـ نعم يا جان .

وقد نظرت اليه نظرة فتنت بها عقله فهاج الدم في عروقه فقال :

بل تكونين لي الآن وأنت لي .

وهنا وضع يديه المضطربتين على كتفي ايزابو ، فلم تبدي شيئاً من الاعتراض ولكنها اسرعت الى فتح الباب الذي كانت مستندة اليه ونادت بصوت رقيق قائلة :

امباريا .

فذعر جان إذ رأى للفور ان نمرة هائلة قد دخلت مسرعة الى القاعة فتمرغت عند قدمي الملكة ثم نظرت الى جان بعينين تتوقدان .

وتراجعت كأنها تتحفز للوثوب عليه .

فجرد جان خنجره وقد اصفر وجهه وقال في نفسه :

اني اذا خفت او تراجعت خطوة قتلتني باحتقارها وأطلقت علي هذا الوحش المفترس

فابتسمت له ايزابو ابتسام المنتصر ثم التفتت الى النمرة فوضعت يدها عليها وجعلت تلاعبها وتقول لها :

ألا ترين يا امباريا انه صديق ، إذهبي اليه ولاعبيه.

فأطرقت النمرة برأسها ولم تثب ولكنها امتنعت عن الامتثال وجعلت تنظر الى جان نظرات نارية .

فقالت لها إيزابو :

لقد قلت لك انه صديق فاذهبي اليه ولاعبيه او اني اغضب عليك

فشعر جان ان قلبه لم يعد يخفق وتمنى لو استطاع الفرار في تلك اللحظة ولكنه رأى من عيني النمرة انه لا يستطيع التراجع خطوة .

فانتهرت ايزابو النمرة وقالت لها :

إسرعي الى ملاعبته .

فامتثلت النمرة عند ذلك وذهبت الى جان وجعلت تحتك به .

فدنت منها الملكة فقبلتها وقالت :

حسناً فعلت بامتثالك وإني راضية عنك إذ لم تضع التربية فيك ،فادخلي الآن الى عرينك .

فامتثلت النمرة ودخلت فأغلقت ايزابو الباب ، ووقف جان مطرق الرأس إخفاء لرعبه وإظهاراً لخضوعه ، فقالت له الملكة :

لقد أعد لك مكان في القصر ، فأنت الليلة ضيف شارل السادس وايزابو فاذهب انت ايضاً وفي صباح غد تجيبني فاذا فهمتني وكنت جديراً بي ،

واذا كنت ذلك الامبراطـــور الذي تحلم به الامبراطورة فسافر غداً الى ديجون .

وحين اعلم بموت امرأتـــك مرغريت تعلم أنت بموت زوجي شارل ، فاذهب يا جان وافتكر بحب وعظمة وجلال تلك المرأة التي دعتـك اليها لتقول لك :

احبك ..

وقد قالت له هذه الكلمة الأخيرة بحلاوة خفق لها قلب جان وحاول ان يعود الى ما كان عليه .

ولكن الملكة اسرعت بالانصراف فتنهد جان تنهداً عميقاً وقد امتزج في قلبه الحب والطمع فخرج من قصر الملكة ورجليه تضطربان وقد وضع يده على قبضة خنجره .

فلما وصل الى المكان المعد له في قصر سانت بول اخذ يقول في نفسه :

ترى ماذا تريد الملكة بهذه الظواهر الفخيمة ألعلهـا تريد إظهار حسن احتفاءها بي أم انها تريد ان تظهر لي اني أسيرها ؟

وذلك انها اعدت له افخم مكان في القصر ، فلما دخـل اليه كان الخدم يتقدمونه في كل مكان بالمصابيح والحراس يسيرون من خلفه .

وقد وقف جان في قاعة السلام واطلق سراح الحراس وجلس على كرسي كبير .

أما الحراس فانهم انصرفوا ودخلوا الى القاعة المجاورة .

وقد اسند جان رأسه الى يده وجعل يقول في نفسه :

الدوق دي بورجـونيا أبي .. مرغريت دي هينوت إمرأتي .. شارل السادس ابن عمي .

ويح لنفسي مما سأقدم عليه فما هذا العرش الذي الطخ درجاته بدم اهلي.

ولكن أي عرش هـو ؟ انه عرش الامبراطورية . . انه عرش شارلمان العظيم ، بل وهي .. انها تساوي الف عرش .

وقد لبث زمناً طويلاً تتنازع نفسه هذه الافكار الى ان دخل اليه أحد الخدم فانحنى أمامه وقال :

مولاي : في الباب رجل يقول انه قادم من منزل في شارع سانت/مرتين.

فارتعش جان إذ ذكر لفوره منزل باسافان وصك الزواج وتلك الفتاة المنكودة التي قتلها وابنتـــه التي لا يعلم ماذا جرى لها ، وأمر بادخال هذا الرجل .

وبعد هنيهة ظهر ساتان .

٩

جهنم القصر

فلما دخل ساتان قال له جان :

من انت وماذا تريد ؟

فأجابه ساتان قائلاً :

أما إسمي فـلا يهم مولاي ان تعرفه ، وأمـا من انا فليسأل مولاي غير مأمور جلالة الملكة من هو هذا الرجـــل الذي ذهبت اليه ست مرات في منزله في الجزيرة ، وأما الذي أتيت لأجـله فهو إخبار مولاي بانـه لا يزال يوجد شاهد على ما جرى في منزل باسافان منذ ساعتين .

– بماذا تتداخل ايها الرجل ؟

– بما يتعلق بشهرتك وسمعتك يا مولاي .

فغضب جان وجرد خنجره .

ولكن ساتان اسرع فقال له :

انك لا تستطيع ان تقتلني يا مولاي ، فانك إذا أصبتـــني تكون قد أصبت الملكة .

www.mlazna.com-RAYAHEEN

ويح لك ايها السافل .

فتراجع ساتان وقد اتقدت عيناه ببارق متألق وتوقـــد الحقد في نفسه المظلمة ، فان جان قال كلمة لا يستطيع ان يصفح عنها .

ورأى جان اتقاد عينيه فقال له بصوت منخفض ؟

قل واسرع بما تقوله ، فان حياتك معلقة بأوهى من خيط العنكبوت.

فوقف ساتان وقفة المتشامخ وقال له بلهجة ملوءها الاستكبار وبصوت مرتفع :

انك ارتكبت بما فعلته أقبح وما يرتكب من آثام الخيانة والغدر والتزوير

فعبق وجه جان ، وكادت عيناه تخرجان من وجهـه ، فمشى الى ساتان وقال له :

ويح لك ايها الشقي ، أتجسر على إهانة مولاك ؟

وقد رفع يده عند ذلك وصفعه على وجهه .

فاصفر وجه ساتان ولم يقل كلمة ولكن العرق البـارد جعل يسيل من جبينه ، ولو قرأ جان ما كان يقول في نفسه في تلك اللحظة لكان قتله لفوره ولكنه بعد ان صفعه قال له : تكلم الآن .

فأجابه ساتان بسكينة قائلاً :

مولاي ان صك الزواج قد تمزق وأنت تعلم انك لا تخاف الذين أمضـوه معك إذ ان الخطيبة ماتت والشهود سيكتمون هذا السر ولكن يوجد شاهد آخر سيبوح بهذا السر .

ـ من هو هذا الشاهد ؟

هو ذلك الغلام الذي عهد الى ريدون بقتله ، أي هردي دي باسافان

ـ ألعله نجا من ريدون ؟

كما انه نجا من الموت .

ـ ولكن يجب بذل كل نفيس في سبيـل القبض على هـــذا الغلام ، ويجب ان ..

فقاطعه ساتان قائلاً :

ـ ولكنه موجود هنا وهو سيبوح بما رآه الآن او بعد الآن ، حتى انه لو مضى به عشرون عاماً لتصدى لك يوماً وقال لك : اني سمعت ورأيت.

ولكن هذا لا يعنيني يا مولاي إذ هو من شؤونك ، أما انا فقد أتيتك بالغلام وعليك ان تسكته ، وآخر ما اقوله يا مولاي ان الاموات لا يتكلمون .

فأخرج جان كيساً من جيبه كان مملوءاً بالذهب ووضعه امام ساتان .

فدفعه ساتان باصبعه مبتسماً وانحنى أمامه وقال :

ـ انك ستكافئني يا مولاي فيما بعد .

ثم خرج فشيعه جان بالنظر وهو يقول في نفسه :

قلبي يحدثني بان هذا الرجل من ألد اعدائي ، فلماذا ؟

وبعد هنيهة كان هردي دي باسافان ماثلاً امام جان .

وكان جان واضعاً يده على قبضة خنجره يحاول قتله وهو يعلم انه لا بد من قتله ، ومع ذلك لم يفعل بل كان يسير في القاعة ذهاباً وإياباً

ثم وقف فجأة على قيد خطوتين منه فمد هردي يده اليه وقال له :

أرى دماء على وجهك وقد قتلت دون شك ، فمن الذي قتلته ؟

فتراجع جان منذعراً وقد اصفر فان دم لورنس كان لا يزال على وجهه ، ثم مسح وجهه بيده ومشى مضطرباً حتى وصل الى القاعة وخرج منها دون ان يطعن الغلام

وذلك انه وجد طريقة لقتله فقال في نفسه :

ان سجون برج هدلون قاتلة كما يقولون لم يخرج منها سجين حياً ، فان الرجل القوي البنية لا يعيش فيها اكثر من عام فكم يعيش فيها هذا الغلام ؟

اما هردي فانه حين بات وحده تنفس الصعداء وقال في نفسه : يجب ان اهرب .

وقد فتح ذلك الباب الذي أخرج منه فرأى انه يشرف على قاعة فيها

عشرة حراس مدججين بالسلاح فأقفله وعاد الى الباب الذي خرج منه جان فوجده محكم الاقفال فوثب الى نافذة ففتحها ونظر فرأى انهـــا تعلو علواً شاهقاً عن الارض .

ثم رأى ستائر الحرير معلقة فوق النوفذ فخطر له ان يهرب بها وجعـل يمزقها كي يصل بعضها ببعض ويجعلها سلماً .

حتى اذا أتم عمله التفت فذعر ذعراً شديداً إذ رأى اولئـــك الحراس ينظرون اليه ويبتسمون .

وعند ذلك صاح صيحة يأس ووثب الى النافذة كي يلقي نفسه منها فأسرع اليه اثنان وقبضا عليه قبل ان تصل الى النافذة وخرجا به من تلك القاعة الى رواق مظلم .

وبعد هنيهة رأى شبحاً على قيـد عشر خطوات منه ثم تبـين له ذلك الشبح فرآه رجلاً شديد الهزال يلبس ثوباً من المخمل الأسود ، فصـــاح به مستنجداً يقول :

اليّ .. اليّ ..

فوقف ذلك الرجل وصاح قائلاً :

قفوا .. من هذا الذي يدعونني ؟

فقال أحد الحارسين :

انه صوت الملك .

وقال الآخر :

انه الملك المجنون .

أما الملك فانه دنا من الحارسين وقال لهما:

من هذا الذي يستنجد ؟

فأجابه أحدهما قائلاً :

انه سجين ، يا مولاي .

فصاح هاردي قائلاً :

www.mlazna.com-RAYAHEEN

– اليّ .. اليّ .. انجدني اذا كنت من النبلاء .. ويلاه انه ذهب دون ان يصغي اليّ .

وذلك ان الملك المجنون عادت اليه تصوراته فسار في الظلام لا يلوي على أحد وسار الحارسان بهاردي .

وما زالا يسيران به حتى وصلا الى أرض قاحلة بني فيها برج هائل، وهو سجن هدلون الكائن في آخر قصر سانت بول فكان كأنه يقول الى الحارسين، قفا هنا فقد بلغتما جهنم القصر .

وهناك باب عظيم من الحديد يفتح عن سلمين أحدهما يصعد به الى البرج والآخر ينزل عليه الى السجون، تلك السجون المظلمة التي اذا دخل منكود اليها لا يبصر النهار ، ولا يخرج منها إلا ميتاً محمولاً على الأكتاف .

وعنـد ذلك نزل الحارسان بهاردي على ذلك السلم ، فلم يكن يرى شيئاً ولكنه شعر انه نزل الى ظلمات القبر فينقبض صدره ويقول :

الوداع يا روزالي .. مسكينة أنت .

١٠

روزالي

والآن لندع هاردي ونقفوا اثر روزالي ، تلك الفتاة الصغيرة التي اشفق عليها ذلك الغلام في أشد ساعات ضيقه ، ممـا يدل على انه مفطور على غير فطرة الأحداث .

وذلك ان معظم الصغار ارديا الطبع غلاظ الأكباد ، لا شفقة في قلوبهم وليس ذلك من خطئهم ، فان الكرم والبسالة والمروءة وغيرها من الصفات يتعلمها الأحداث تعليماً كما يتعلمون اللغات .

وقد لقي هاردي على حداثة سنه من الشقاء ما لا يصبر على بعضه رجل ومع ذلك فانه حين بلغ اشد شقائه لم يشفق على نفسه بقدر إشفاقه على تلك الفتاة فقال :

« مسكينة أنت يا روزالي » .

أما روزالي فيذكر القراء ان تلك المرأة المدعوة جيرود قد اختطفتها بأمر الملكة وحملتها الى تلك المركبة التي كانت تنظر في آخر الشارع .

وهناك دخلت بها الى المركبة فسارت بهما يخفرهما أربعة من الحراس .

وكانت الملكة قد قالت لها : أريد ان ترسلي هذه الفتاة الى محل بعيد لا تستطيع ان تعود منه الى باريس .

فعلمت انها لا تريد قتلها ، وسارت بها كل تلك الليلة حتى وصلت عند طلوع الفجر الى قرية عامرة .

وهناك أوقفت المركبة عند مدخل القرية وسارت بالفتاة الى الكنيسة فلقيت كاهنها وقالت له ؟

اني ، يا سيدي ، من قرية ناشيل ، وأنا ذاهبة الى سواسون ، للقاء زوجي فيها .

وقد احضرت معي هذه الفتاة اليتيمة فان أمها ماتت منذ ثمانية ايام .

ولكني لا استطيع ان احمل عهدتها اكثر من ذلك فاني ارى ان تعب المسير سوف يقتلها ، ولا بد لي من المسير .

فنظر الكاهن الى روزالي وقال :

أهي مريضة هذه الفتاة ؟

قالت : نعم ، فقد اتعبها المسير ، ومن اجل ذلك أريد التخلص منها .

ـ ماذا تعني؟

ـ لا إسم لها ، يا سيدي ، فهي من اللقطاء .

وقد كان هذا الكاهن شيخاً كريم الاخلاق ، طاهر السريرة فحن على

www.mlazna.com-RAYAHEEN

الفتاة في البـدء ، ولكنه حين سمع انها لقيطة تراجع مندهشاً ورسم علامة الصليب على وجهه وقال :

اذن ، لا عجب ان تكون مريضة ، أفلا تستطيعين ان تذهبي بهـا الى محل بعيد ..

ـ ذلك محال ، يا سيدي ، فانها لا تستطيع المسير .

فتردد الكاهن هنيهة ، ثم قال :

حسناً فسأعرضها عند باب الباب الكنيسة وعسى انيرأف بها الله ويلهم سيدة طاهرة الى تبنيها .

فقبلت جيرود يد الكاهن وتركت له الفتاة وانصرفت .

وبعد ذلك ارسل الكاهن مناديا في الأسواق بأن فتاة لا إسم ولا أم لها معروضة في الكنيسة لمن يريد ان يتبناها .

فلم تكن غير ساعة حتى تقاطرت الأحداث وقد سمعوا نداء المنادي فوقفوا يتفرجون على روزالي ، ويتهكمون عليها فبعضهم يهزأ بها ، وبعضهم يمد لها لسانه وآخرون يدنون منها ليقرصوها والمنكودة ساكنة ، واجمة ، لا تعلم شيئاً مما يجري حولها .

ثم جـاء دور النساء ، فاقبلن جمـاعات وجعلن يفحصنها فحص سلسلة يبتغين شرائها فلم ترغب فيها واحدة منهن ، بل هاج ثائرهن على أمها التي تجاسرت على ان تلد بنتاً دون إذن الكهنة .

وعند ذلك دنت إمرأة وقالت : أنا اتبناها .

وكانت هذه المرأة فلاحة رأت جيرود قادمة بها في مركبة جميلة يحفرها حراس من جنود الدوق بورجونيا ، فأيقنت انها قـد تنال ثروة من وراء هذه الفتاة .

وفي تلك اللحظة سمع وقع حوافر جياد كثيرة ، ثم أصوات تهتف قائلة: أورليان.. أورليان .. ليحيى أورليان .

ثم ظهر ذلك الموكب الحافل ، وهو مؤلف من مركبة تجرها أربعة من

جياد الخيل عليها شارات لويس دي أورليان ، شقيق شارل السادس تحيط به فرقة من الفرسان .

وفي هـذه المركبة ثلاث نساء ، بينهن فالنتين دي ميتان ، دوقة دي أورليان .

وكانت هذه النبيلة مشهورة بجمالها ، وسلامة نيتها ، وبعدها عن المطامع.

وقد مر هذا الموكب بالكنيسة ورأت الدوقة روزالي معروضة عند بابها والنساء من حولها ففهمت المراد وأمرت في الحال بإيقاف المركبة .

وعند ذلك نزلت وحدها من المركبة ، ومشت بين صفوف الناس الذين كانوا ينحنون لهـا احتراماً ، حتى وصلت الى روزالي ، فحملتها بين يديها وهي تقول :

ان هذه المنكودة تكاد تموت ، فلماذا لا يساعدونها ؟

فأجابتها إحدى النشاء قائلة : انها لقيطة .

قالت : أتعرفون من هي ومن أين أتت ؟

فتقدمت الفلاحة التي ارادت ان تتبناها وقالت :

أنا اعلم فقد رأيت كل شيء وقلت اني اتبناها، فليكتبوا صك التبني .

فقالت لها الدوقة : ماذا رأيت ؟

قالت : رأيتها في مركبة يحيط بها الحراس وقد وقفوا بها عنـد باب المدينة ، اما الحراس فقد كانوا يحملون رماحاً ، وعليهم شارة صليب احمر .

فارتعشت الدوقة وقالت في نفسها : انها شارة الدوق دي بورجونيا .

واتمت المرأة حديثها فقالت :

وقد اخرجتها إمرأة من المركبة ، وسارت بها فتبعتها حتى وصلت الى الكنيسة وقد تبنيتها الآن فليكتبوا الصك .

فابتسمت لها الدوقة وقالت :

أتريدين ان تتنازلي لي عن حقوقك بها ؟

وقد قالت لها هذا القول واعطتها كيساً مملوءاً بالذهب .

www.mlazna.com-RAYAHEEN

فأخذت المرأة الكيس وهي لا تصدق ما تراه وتوارت عن الأنظار .

اما الدوقة فانها اخذت بيد روزالي وسارت بها الى مركبتها بين صفوف الناس الذين اعجبوا بمروءتها فجعلوا يهتفون لها هتافاً يبلغ عنان السماء .

ولما دخلت بها الى المركبة قالت لنسائها :

لا اريد ان تقول واحدة منكن كلمة عما حدث .

فسألتها إحداهن قائلة :

ألعل مولاتي الدوقة تريد إخفاء مروءتها ؟

ـ ليس هذا المراد ، بل اني اريد صيانة حياة هذه الطفلة فاذا علموا اني أنا الذي اخذتها باتت حياتها في خطر .

ـ لماذا ، سيدتي ؟

ـ لأن هـذه الفتاة سيكون لها إسم هائل ، يروع الدوق دي بورجونيا أو ولده وسأعلم أيهما ، اما هـــذا الاسم فسيكون تقريع الضمير ، وربما كان الانتقام .

١١

مرغريت دي هينوت

عندما نزلوا بهاردي دي باسافان الى السجن واطمأن خاطر جان دي بورجـونيا اقام بقية تلك الليلة في قاعة السلاح التي كان فيها وهو يفتكر بمستقبله اذ نسي كل ما مضى حتى قتل لورانس واختطاف بنته فجعل يناجي نفسه فيقول :

ترى أأكون ملك هذه المملكة التي تحكم على الرجال وعلى الوحوش حق انها تحكم على الأبالسة » مشيراً الى ساتان » .

نعم ، اني سأضم دوقية بورجونيا الى مملكة فرنسا فأفتح المانيا وإيطاليا واهلك جميع بلاد الغرب وأضع على رأسي تاج شارلمان .

ولكن يجب في سبيل ذلك ان اكون حراً أي ان اقتل مرغريت إمرأتي ثم يجب ان اكون دوق دي بورجونيا أي يجب ان اقتل أبي .

وعند الصباح ينبغي أن اقرر كل ذلك واجيب الملكة ايزابو .

وقد اقام كل ليلته وهو يناجي نفسه بهذه الأقوال حتى صحت عزيمته على المسير الى العرش على درج من الدماء .

فلما طلع الصباح وازدحمت الاقدام في القصر ذهب الى الملكة فاخترق الصفوف ، ورفع امامها ، فأعطته يدها فقبلها ، وقال لها :

لقد رضيت .

قالت : حسناً ، وافتكر بالتي تنتظر عودتك .

فنهض جان وقد تقرر قتل شارل السادس والدوق دي بورجونيا ومرغريت دي هينوت فلم يشك أحد بان بين ابتسامة ايزابو وقبل جان قد تقرر حدوث فاجعة سوف تغير نظام العالم .

وفي ذلك اليوم اجتمع بأبيه فخلا به خلوة طويلة ، ثم برح باريس .

وقد دهش الناس لسفره الفجائي وتضاربت الآراء فيه حتى حسب البعض ان الملكة غضبت عليه ، فلم سألها بعض المقربين منها اجابتهم قائلة :

اطمئنوا فسترون الكونت دي نيفير في بلاط فرنسا .

أما جان فانه سار في طريق ديجون يصحبه ستون نبيلا مدججين بالسلاح من رجاله حتى وصل الى ديجون فدقت الأجراس احتفالاً به واقيمت له حفلة حافلة لم تحضرها إمرأته .

ولما تفرق الناس خلا بغرفته وعاد الى التفكير فقال في نفسه :

اني ما اتيت الى هنا إلا لأقتل مرغريت ولكن كيف ؟

وعند ذلك فتح باب غرفته ودخلت إمرأة .

وكانت طويلة القامة ، سوداء الشعر ، براقة العينين ، فوقف جان حين رآها ..

www.mlazna.com-RAYAHEEN

اما إمرأته فانها دنت منه فوضعت يدها على كتفه ، وقالت له بصوت اضطربت له اعضاؤه .

انك آت لقتل إمرأتك وها هي امامك فاقتلها.

فاضطرب جان اضطراباً هائلاً وقال لها :

ماذا تعنين بما تقولين ، وما هذه الاقوال التي اسمعها ؟

فقالت : كيف تريد ان تقتلني بالسم ، أم بالخنجر ، أم بكليهما كما قتلت خليلتك لورانس دي ايزيم .

فتنهد جان تنهداً خفق له صدره ، وحدق بإمرأته ، كما يحدق الوحش بالفريسة ، ثم جرد خنجره وقبض على عنق إمرأته ورفع يده اليمنى بذلك الخنجر .

اما مرغريت فلم تبد حركة دفاع ولكنها قالت :

اسرع بقتلي قبل ان يجيء الدوق دي بورجونيا الذي علم بموتي فينتقم لي.

فوقفت يد جان وتراجع منذعراً وهو يقول :

كيف عرف الدوق ؟ إذن لقد اصبحت من الهالكين ؟

فقالت له إمرأته : إجلس لنتحدث فربما فهم كلٌ منا مراد الآخر .

فجلس جان على كرسيه ، بل سقط عليها لأن رجليه لم تعودا تحملانه وبدأت مرغريت الحديث فقالت :

انه يوجد رجل من اخص الأمناء لي ينتظر الآن في ديجون ، اذا لم امت بقي فيها ، واذا قتلت اسرع الى ابيك الدوق برسالة مني .

وقد كتبت لأبيك النبيل اني مت قتيلة وانك قاتلي وانك ستقتل ايضاً وفي خلال ذلك تكون الملكة ايزابو ساعية في قتل ملك فرنسا ، وأوضحت له الغرض من هذه الجرائم الثلاث .

فطاش رأس جان وأيقن ان الأبالسة قد تداخلت في امره ووقفت على سره مع ايزابو وقال : لقد بت من الهالكين.

وعادت إمرأته الى الحديث فقالت :

إذن لقد كنت عازماً على قتلي ، ثم على قتل ابيك أيها الطامع السافل والمحب الجبان ، نعم ، انك كما اصفك لأنك لم تسر الى مطامعك وحبك إلا بطريق الجرائم السافلة .

جان دي بورجونيا هذا موقفك فاسمع .

انك اذا قتلت اباك في البدء جمعت نبلاء بورجيا وفرنسا عليك فانتقموا منك اشد انتقام ونكلوا بك اعظم تنكيل .

وإذ بدأت بقتلي اسرع اباك الى هنا وسلمك بيده الى الجلاد

وعلى ذلك فقد كان الأحرى بك ان تقتلنا معاً في حين واحد كي لا ينتصر احدنا للآخر .

فتمتم جان للمرة الثانية قائلاً :

ويلاه ، لقد بت من الهالكين .

على ان الغريب من هذه المرأة الفاضلة انها وقفت تتمعن في وجه زوجها المنكسر دون غضب او حقد او احتقار ، ولا ندري أكان ذلك لأنها تحبه ام لأنها لم تكن تفكر إلا بانقاذ شرف العائلة من تلك الوصمة الهائلة .

فلما رأت ان زوجها قد غلب على امره وقال بلهجة اليأس : لقد بت من الهالكين ، قالت له .

كلا بل انك نجوت ، فانظر اليّ يا جان ، انك قد تجدني أقل جمالاً من ابنة عمي ، ولكن لم ابلغ حداً حرمتني فيه الطبيعة من ان اكون محبوبة ايضاً .

وقد كانت في تلك اللحظة أشد جمالاً من الملكة لأنها جمعت الى جمال الوجه جمال الطهر والفضيلة والذكاء ، فقال لها :

نعم انك جديرة بان تكوني محبوبة ، فلم أرك مرة كما أراك اليوم .

وقد كان صادقاً في قوله فقالت له .

نعم انك نجوت ، فافترض ان امرأتك قد ماتت وان أباك قد مات وان ملك فرنسا قد مات ففيما يكون اعتمادك على امرأة مجنونة لأجل شهواتها ؟

www.mlazna.com-RAYAHEEN

فانها حين تمل منك سواء كنت ملكاً او امبراطـوراً تقتلك في فراشك كما قتلت زوجهـــا الأول وتأتي بخادم من اصطلبها فيحل محلك في ذلك الفراش .

ثم افترض ان ذلك لم يكن وافتكر بأعداء بيتك الألداء ، اتحسب ان اورليان وبيري يدعانـك تبلغ الى ذلك العرش من غـير قتال وهما أقرب منك اليه .

كلا ، وفوق ذلك فان خبر جريمتك الهائلة يملأ المسامع والأفواه فيبعد عنك الناس وتكون الجريمة نفسها اعظم حائل بينك وبين العرش .

جان دي بورجيا انك لا تزال في مقتبل الشباب وانك تستطيع ان ترقى الى أعلى قمم المجد فأكون لك خير مساعد ، أتريد ؟

اتريد ان تنسى ذلك الحلم الدموي .. اتريد ان اكون لك تلك المرشدة الأمينة والزوجة الصالحة التي لا تستمد مجدها إلا من مجد زوجها ؟

فوقف وهو مظلم الوجه لأن امرأته قد سحقت كبرياءه سحقاً وقال لها :

إذن انك تصفحين عني يا مرغريت وتمدين لي يد المساعدة ؟

فحدقت به لحظة وقالت :

كلا ، اني لا اعفو ولكنني أنسى ، واذا كان إنقاذ زوجي الذي وهبني إياه الله يعد ذنباً فاني اتحمل وحدي تبعة هذا الذنب .

ـ مرغريت !

ـ ايها الطامع انك تريد فخراً وسلطاناً نجدهمـا في الطريق التي ارشدك اليها فاسمع .

ـ تكلمي .. تكلمي .. انقذيني .. قولي ماذا يجب ان اصنع ؟

ـ انك تسأل الغفران ، وهذا الغفران لا بد منه ، ولكنه بيد الله ويجب ان تلتمسه من الله .

فاعلم يا جان انهم يتأهبـون للحرب الصليبية ، فاذا شئت التمست لك منصب قيادة المسيحيين العامة .

وهناك يا جان ، أي في تلك السهول التي صلب فيها المسيح وتعذب .. هناك حول ذلك القبر ينال الطامعون ما يريدون ادراكه من المجد .

وكان ذلك في عهـــد الحروب الاولى حين كان التعصب بالغاً بالمسيحيين أقصى حدوده .

فان من عاد ظافراً من تلك الربوع الشرقيـة بلغ من الفخر ما لم يبلغ بعضه الملوك .

ثم استردت قائلة : فاذا اراد الله عنـــد ذلك لا الإنسان ان يخلو عرش فرنسا وان يموت ملك فرنسا لا ان يقتل لا تجد من يجسر على مزاحمتك في الصعود الى ذلك العرش فان الشعب يحملته يحملك اليه .

هذا هو السبيل القويم الذي يجب ان تسلكه الى المجد لا سبيل الجرائم والظلمات .

فانحنى امام امرأته وقال :

سواء كنت دوقاً او اميراً او ملكاً فاني سأكون لك مدى الحيـاة وابارك لأنـك أنقذتني من نفسي ، فاطلبي لي تلك القيـادة العليا ، فاني مستعد للسفر .

وكان يقول هذه الأقوال باخلاص صادق دفعه اليه الرعب في تلك الساعة وسيرى القراء ما كان من هذا الاخلاص فيما بعد .

ولكن الذي نقوله الآن هو ان مرغريت لبثت متسلطة عليه مدة شهرين وكان يقبل جميع شروطها مكرهاً مضطراً وفي النهاية رضي ان يتولى قيادة الجيوش لمحاربة السلطان بيازيد .

وفي مساء ذلك اليوم خرج فارس من ديجون في ظلام الليل وهو ناحـل يكاد لا يرى لنحوله فكان يشبه وقد التف بردائه الأسود شبح الموت .

ولو رآه جان لعرفه ، فقـد خيل اليه انه رأى خيـاله عدة مرات في ديجون ، اما جان فقد كان يتأهب لهذه الحرب مدة شهرين ،وسنجده قريباً

www.mlazna.com-RAYAHEEN

١٢

لورانس

وفي ذلك اليوم نفسه الذي برح فيه جان ديجون حدثت حادثة اخرى في منزل الشيفاليه هردي دي باسافان في باريس .

وذلك ان لورانس دي ابريم فتحت عينيهـا في الصباح وكانت النافـذة مفتوحة فرأت السماء الزرقاء واوراق الشجر الخضراء وسمعت تغريد العصافير فقالت في نفسها .

نحن الآن في زمن الصيف .

ثم جعلت تنظر الى ما حواليها في الغرفة فعرفت كل ما فيهـا وقالت : اني في غرفتي .

وعند ذلك عادت اليها تذكارات عاداتها اليومية مضطربة بعيدة كما تظهر صور الأشباح في مرآة غير صقيلة فقالت :

يجب ان ألبس ملابسي واذهب الى قصر سانت بول .

وقد نظرت في تلـك الساعة الى السرير الصغير التي كانت تنـام فيه بنتها وقالت :

انها لم تستفق بعد ولو كانت هذه المجنونة الصغيرة قد استفاقت لكانت الآن بين يدي تعذبني بدلالها وادلالها .

وعند ذلك نهضت كي ترى بنتها، وصاحت صيحة ألم شديدة ، ووضعت يدها على ذلك المكان الذي تألم فرأت انصدرها ملتف بالضمادات فتفجرت الذكرى في دماغها كما تنفجر المياه حين يفتح سبيلها .

وذكرت طعنـة الخنجر والكأس المسموم وجميع ذلك المشهد الهـائلة فصاحت قائلة :

روزالي .. روزالي ..

ففتح للحال باب الغرفة ودخل منه رجل قدما من السرير، وهو يقول : لقد عاد اليها صوابها .

ثم قال لها : اطمئني ، يا سيدتي ، واستريحي .

قالت ابنتي بربك ، يا سيدي ، ماذا فعلوا بهـا ؟ نعم انك تعرف ذلك منهم . نعم ، ان هيئتك تخيف فمن أنت ؟

قال : اني ذلك الرجل الذي اعطى الملكة زجاجة السم التي ارادت ان تسممك بها .

فصاحت لورانس صيحة رعب وقالت :

نعم ، نعم، لقد قرأت في وجهة الشر وعلمت انك أحد أولئك الأبالسة الذين يخدمون ايزابو .

ـ هل قتلك الشراب الذي سقتك إياه ؟

ـ كلا .. هذا أكيد .. إذن أنت لم تكن تريد موتي ؟

ـ ان الكونت دي نيفير هو الذي قتلك بخنجره ، ومـع ذلك فانك لا تزالين عائشة ، وأنا الذي انقذتك .

ـ أنت .. لماذا ؟

ـ نعم انا فان جميع الخدم قد هربوا من هذا المنزل ولم يبق فيه أحد ، وأنا التقطتك من تلك القاعة التي تحولت الى هيكل واحضرت إمرأة للعناية بك و كنت أعودك في كل يوم فاغلب فيك الموت حتى غلبته .

فذعرت لورانس من هذه المروءة نفس ذعرها من حقد ايزابو وقالت : لماذا .. لماذا ؟

فأجابها ساتان بلهجة المنتصر :

ذلك لأنك شربت ما كان في تلك الزجاجـة .. أتسمعين .. ذلك لأني اردت ان امتحن تأثير ذلك الشراب الذي اعددته .. أتفهمين ؟

اني لم اكن اتخلى عنك بتلك الكنوز المخبوءة في برج اللوفر .. أتعلمين ؟

ولكن لورانس لم تفهم شيئاً من كلامه فجعل ساتان يتمتم قائلاً :

لقد بعثت بعد الموت ، وهي الآن مثل ما كانت قبل ان يقتلها ذلك الخنجر .

واما لورانس فانها بسطت يديها وقالت له بلهجة المتوسل :

انك ما زلت قد انقذتني من الموت فأتم مروءتك وامنحني قوة استطيع بها ان انهض واسرع الى الملكة .

ـ لماذا ألتسأليها عن بنتك ؟

نعم .

ـ ان الملكة لا تعلم أين هي بنتك واذا كانت تعلم فلا يجب ان تسأليها عنها ، اذا اردت ان تعيشي لأبنتك .

ـ نعم ، نعم ، اني اريد ان اعيش لها .

ـ إذن فاعلمي انه لا يجب ان تعلم الملكة بانك لا تزالين في قيد الحياة فاذا علمت انك نجـوت من الموت قتلتك ، ولو هربت الى اقصى الأرض ، فاحذري .

ـ ابنتي .. ابنتي ..

فلم يجبهـا ساتان بشيء ، ولكنه افرغ في كأس شراباً لا لون له ، وقال لها :

ـ إشربي وثقي بي .

فنظرت لورانس اليـــه نظرة دلت على ان تأثير الرعب الأولي قد محي اذ اخذت الكأس من يده وشربت ما فيه .

فقال ساتان : حسناً ، فنامي الآن بسلام .

فاطبقت لورانس عينيها وظهرت عليها علائم البشر والارتياح اذ كانت تبسم وقد زال الخوف من قلبها فقال لها ساتان :

انك ستجدين ابنتك وهذا وعد اتقيد به دون ان اعين الزمان والمكان فاني لا اعلم ما صنعوا بها ، ولكني واثق من انها لا تزال في قيد الحياة .

www.mlazna.com-RAYAHEEN

والذي اعدك به ايضاً أننا سنشترك في البحث عنها .

فأجابته بصوت خافت قائلة :

اني واثقة بك .

ثم رقدت لفورها .

فجعل ساتان ينظر اليها ويقول في نفسه :

يا جميع العناصر التي تتألف منها الحياة ، اني اريد ان اجعلك كما اشاء ، واعبث بك أشاء واخلقك كما اشاء ولا يعوزني غير إنسان اجري فيه تجاربي وقد وجدته في هذه المرأة .

وقد مضى النهار ولورانس نائمة نوماً هادئاً تحلم فيه أحلاماً سعيدة كان يظهر من ابتسامها .

وفي الساعة الحادية عشرة من تلك الليلة وقفت مركبة عند باب منزل باسافان ودخل رجلان الى المنزل فاعانها ساتان على نقل لورانس الى المركبة وهي لا تزال نائمة .

وبعد ساعة كانت لورانس نائمة في منزل ساتان في سرير يشبه سريرها وغرفة تشبه غرفتها .

غير انها لم تكن في منزل باسافان، بل في منزل ساتان ، منزل الرعب ، وكانت لا تزال في قيد الحياة ، ولكن روزالي لم يكن لها أم .

١٣

أوديت دي شامديفو

غير ان روزالي كان لها إمرأة تشبه الأم وهي الدوقة دي أورليان فانها اخذتها وهي بين الموت والحياة، فما زالت تعتني بها حتى شفيت ودفعتها هذه العناية الى الحنو عليها والتعلق بها .

وقد بحثت عنها بحثاً مدققاً فلم تعلم شيئاً عن ماضيها ولكنها رأت انه لا بد لها من اخفائها عن الدوق دي بورجونيا وعن ولده جان .

أما روزالي فانهـا لم تستطع ان تخبر الدوقة بشيء ، فان تلك الحمى التي اصابتها بعد ذلك الرعب اضاعت ذاكرتها ولكنها لم تضع صوابها وكل ما كان منها انها دخلت في حياة جديدة .

وكانت الدوقة تعرف رجلاً يدعى أونوريه دي شامديفر وهو رجل من صنائع بيتهم يبلغ الخمسين من العمر وله إمرأة تعادله كرماً ونبلاً .

وقـد ارتأت الدوقة ان تعهد اليهما بالفتاة وتربيتها لأنها تخاف اذا بقيت عندها ان يراها جان أو أبوه وهي تعتقد انها بنت أحدهما، فلما خابرت ذلك الرجل وإمرأته بشأنها تلقيا هذا النبأ بملء الارتياح ، ووعدا الدوقة ان يحبا تلك الفتاة كما لو كانت بنتهما اذ لم يكن لهما بنون .

ثم سألها عن إسمها فقـالت : لا إسم لها ولكني دعوتها أوديت وأرجو ان تدعواها أوديت دي شامديفر .

فكان هذا الرجاء بمثابة أمر وتبنياها منذ تلك الساعة .

وقد مرت الأيام والأسابيع وتوالت الشهور وروزالي عائشة في هذا المنزل بين قوم لا تعرفهم وذاكرتهـا تعود اليها تباعاً حتى توهمت اخيراً بانها كانت تعرف هؤلاء الناس .

وقالت يوماً لحاضنتها :

يخال لي اني لا أدعى أوديت .

فحاولت المرأة ان تسألها ولكن روزالي لم تستطع ان تذكر شيئاً .

وقد مر عام على شفائها دون ان تذكر شيئاً من ماضيها إلا كما يذكرون حوادث الأحلام البعيدة .

ولما بلغت الثامنة من عمرها باتت تعتقد انها ولدت في بيت شامديفر وانها تدعى حقيقة أوديت ، وأصبحت تحب اهلها الجدد ويحبونها حباً عجيباً .

www.mlazna.com-RAYAHEEN

هـذا كل ما عرفناه عن حداثة هذه الفتاة التي يدعوها التاريخ أوديته دي سامديفر .

حتى اذا بلغت السادسة عشرة من عمرها كانت آية في الجمال تشبه العذارى اللاتي رسمهن روفائيل .

ففي يوم من شهر أغسطس سنة ١٤٠٧ سمع الشيخ الذي تبنـاها صيحة قرب باب منزله فخرج الى الباب ليرى ماذا حدث فرأى جمهوراً من النبلاء قد وقفوا عند ذلك الباب .

فلما رأوا الشيخ صاح به أحدهم قائلا :

اسرع واعد غرفة .

وقد رأى الشيخ بين أولئك النبلاء خدماً على صدورهم شارة الزنبقات الثلاث الذهبية فاضطرب وقال :

ـ رباه ، ماذا أرى .. الملك عندي .. ملك فرنسا .

١٤

الملك المجنون

نريد بهذا العنوان الملك شارل السادس فقد كان في الثامنة والثلاثين من العمر في هذا العهد .

اما جنونه فقد بدأ منذ سنة ١٣٩٢ ، أي منذ خمسة عشر عاماً ، وهو يصاب بنوبات فجائية هائلة تصيبه نادراً ولكنه يبقى في اثر كل نوبة ضعيف الادراك واحياناً يعود الى صوابه .

ففي ذلك اليوم كان الملك قد ذهب الى الصيد يصحبه عمه الدوق دي بيري وجميع رجاله وهو باش الوجه ، راضي الاخلاق .

ولكنه عند عودته اصيب بتلك النوبه الفجـائية فتندى جبينه بالعرق

وظهرت علائم الرعب على وجهه دون ان يعلم أحد مما يخاف فجعل يصيح قائلاً :

اليّ .. اليّ .. ها هم أتوا .

فأشار الدوق دي بيري إشارة خاصة الى حارسين كانا يرافقان الملك في كل مكان توقعا لحدوث مثل هذه الطوارىء فأسرع الرجلان وامسكا عنان جواد الملك .

فصاح بهم الملك قائلاً :

أتريدون القبض عليّ أيها الخائنون :

وعند ذلك هاج هياجاً عظيما لم يصب بمثله من قبل حتى اضطر جميع رجال البلاط الى الترجل عن جيادهم وكان ذلك عند منزل شامديفر .

وقال الدوق دي بيري : لندخل الى هذا المنزل اذ لا نستطيع ان نعود به الى باريس ، وهو على هذه الحالة ، وسنصير فيه الى ان تزول اعراض النوبة .

وقد ادخلوا الملك الى إحدى قاعات المنزل بينما كان شامديفر يعد معدات الضيافة فكان الملك يزأر زئير الاسود، وقد اشتد صراخه وسمعوا منه ما لم يسمعوه من قبل .

وبعد مدة طويلة سكت فجأة بعد ذلك الصراخ العظيم فارتعد الدوق دي بيري وقال :

رباه ، لعله مات ؟

وذلك ان هذه العوارض ما انتهت مرة كما انتهت هذه المرة .

وقد صبر الدوق دقيقة ، فلما لم يسمع صوتاً اصفر وجهه واسرع الى تلك الغرفة التي وضعوا فيها الملك وتبعه جميع رجال البلاط فدخلوا في اثره الى تلك القاعة .

وهناك وقفوا جميعهم باهتين منذعرين لما رأوه .

www.mlazna.com-RAYAHEEN

وذلك انهم رأوا فتاة صبية لم تقع العيون على اجمل منها واقفة عند تلك القناعة والملك واقف امامها شاخص اليها ، يتمعن بها بمنتهى الاعجاب .

وكانت هذه الفتاة أورديت ، أي روزالي ، فلما رأى الملك رجاله دخلوا اليه دنوا من أورديت فأمسك يدها وقال لها :

دافعي عني .. إحميني .. انظري اليّ فان نظراتك تسكن اضطرابي وتطفيء تلك النار المتأججة في دماغي .. من أنت أيتها الفتاة .. ولماذا نظراتك تزيل كل وعيي ، ألعلك ملاك ارسلته اليّ العذراء لحماية ذلك الملك المنكود الذي تخلى عنه الجميع وخانوه .

فلم يظهر على أورديت شيئاً من علائم الاضطراب لهذا الموقف ، بل انها كانت تبسم وقد القت يدها بيد الملك ولبثت تنظر اليه تلك النظرات الطاهرة التي كانت خير عزاء له .

وقد ساد السكوت على الحضور فلم يكن يسمع غير صوت تردد الانفاس وسكت المجنون ايضاً ، مما يدل على ذهاب آلامه .

أما أورديت ، فانها سارت بالملك الى كرسي كبير ، فأجلسته عليه وجعلت تنظر اليه مبتسمة ، فرأى الحضور ان الملك قد ارتاح ارتياحاً عظيماً الى تلك النظرات واطبق جفنيه كأنه يريد الرقاد بعدما لقيه من عناء النوبة ، فقالت له أورديت بصوت رقيق اثر على فؤاده تأثيراً اشجى من تأثير الالحان .

نم ايها الملك المسكين ، نم بسلام فانك هنا في امان .

فأسند شارل السادس رأسه الى الكرسي ونام نوماً هادئاً ويده بيد ذلك الملاك .

واقامت أورديت مدة طويلة بجانبه على هذه الحالة الى ان وثقت من رقاده فجذبت يدها برفق من يده ، والتفت فرأت رجال البلاط ينظرون اليها منذهلين حائرين معجبين ورأت بينهم الشيخ شامديفر فأسرعت اليه وقالت له :

مسكين هذا المنكود انه يدعو الى الاشفاق .

وعند ذلك كثر اللغط بين رجال البلاط وكانوا كلهم يقترحون ان تقيم هذه الفتاة في قصر سانت بول وانها هي التي تستطيع شفاء الملك .

فأجابهم الدوق دي بيرى قائلاً بالرغم عنه :

نعم انه يجب ان يشفى الملك .

واصفر وجه الشيخ إذ رأى انهم يحاولون انتزاع روحه من صدره فان اوديت كانت منه بمنزلة الروح .

اما الدوق فانه نظر الى اوديت وقال لها :

اجيبي ايتها الصبية كيف اتفق لك ذلك ؟

ومن يعلم كيف اتفق لها ذلك فانهم رأوا ما كان من تأثيرها على الملك دون ان يعلموا سبب هذا التأثير ،حتى ان المؤرخين المدققين لم يستطيعوا تعليل هذا التأثير .

اما اوديت فقد اجابته قائلة :

لا اعلم شيئاً يا سيدي سوى ان الملك دخل الي هذه القاعة وكنت فيها فخفت في البدء من اضطراب وجهه وصياحه ثم اشفقت عليه وحاولت تعزيته فنظر اليّ ثم أخذ بيدي فانقطع صياحه للفور .

فهز الدوق رأسه ونظر الى الجمهور نظرة تفيد معنى الريب بحيث لو كان الجميع من انصار هذا الدوق لقضى على اوديت .

ولكن معظم اولئك النبلاء كانوا يعتقدون ان روح الله قد حلت في تلك الفتاة وانه لا بد من ان تشفي الملك وقد جاهروا برأيهم .

فقال لهم الدوق : وانا ايضاً ارتأي رأيكم ،ثم التفت الى الشيخ وقال له: أحدث لهذه الفتاة حادثة غير هذه اظهرت فيها من السلطة ما تظهره الآن ؟.

قال : كلا يا مولاي .

قال : اهي مسيحية ؟

www.mlazna.com-RAYAHEEN

قال : ان من يدعى انوريه دي شامديفر وقد سفك دمه في خدمة شارل الخامس لا يقيم في بيته غير المؤمنين الصالحين .

قال : انني لا أشك بك ، والآن فاعلم انه يجب ان تقيم هذه الفتاة في قصر سانت بول لترد عقل الملك اليه ، فان المملكة محتاجة الى ملكها.

فشعر الشيخ ان روحه تخرج من صدره والتفت الى اوديت وقال لها بصوت يتهدج :

أتتخلين عني يا اوديت ؟

قالت : كلا ، ثم التفتت الى الدوق وقالت له ؟

اذا كنت تعتقد ان وجودي في قصر سانت بول لا بد منه لشفاء الملك فان واجباتي المسيحية تقضي علي بخدمة ملكي ولكني لا ابرح هذا البيت الذي ولدت فيه إلا اذا اخذتني مع اهلي .

فاضطرب الشيخ حين رأى الدوق يتردد ولكن الدوق لم يجد سبيلاً للاعتراض على اقتراحها فالتفت الى احد رجال الحاشية وقال له :

اسرع الى قصر سانت بول وأعد مكاناً في قصر الملك لإقامة مدموازيل دي شامديفر واثنين معها .

١٥

السجين

في ذلك العام ، أي في سنة ١٤٠٧ كان جان أي الدوق دي بورجونيا مقيماً في باريس .

ولم يجر شيئاً بينه وبين الملكة ومضت الاعوام دون ان تقول له كلمة عن اتفاقهما القديم ، غير انها كانت اذا التقت به نظرت اليه نظرات غريبة .

وقد كان جان في ذلك العهد شديد الحول كثير النفوذ عظيم السلطة فان أباه كان قد مات منذ ثلاثة اعوام فورث منه دوقية بورجونيا وكثيراً من المقاطعات والولايات بحيث صار يعد اعظم عظيم بعد الملك وباتوا يخافونه في باريس نفسها بل في قصر سانت بول ما خلا ايزابو بحيث بات أشد مزاحم للدوق دي اورليان شقيق الملك الذي كان يدير اعمال المملكة وبات العداء شديداً بين أسرتي اورليان وبورجونيا .

اما حوادث شبابه فقد نسيها ولكنه في كل حال لم ينسَ ذلك الغلام الصغير الذي قال له عنه ساتان انه سيجدك يوماً فيقول لك :

لقد كنت هناك ورأيت .

ففي اول يوم عاد الى قصر سانت بول كان اول ما فعله انه دعى اليه السجان الذي سجن هردي وسأله قائلاً

ماذا جرى للغلام ؟

قال السجان : أي غلام تعني يا مولاي .. نعم نعم لقد ذكرت ولكن ذلك من عهد بعيد .

ـ حسناً فماذا جرى له ؟

ـ لقد مات .

ولم يكن هردى قد مات كما قال السجان ولكن هذا السجان كان ممرساً في مهنته وهو يعلم يقيناً انهم لم يسجنوه في اعماق برج هدلون إلا بغية موته وانه اذا لم يقتله السجن وجب على السجان ان يقتله .

غير ان السجان لم يقم بهذه المهمة الفظيعة فاضطر ان يكذب على الدوق وهو واثق انه لو رآه في السجن لما عرفه لأنه دخل اليه غلاماً صغيراً وهو الآن من الشباب .

فأعطاه الدق كيساً محشواً بالدنانير مكافأة له واطمئن باله فمحي إسم هذا الشاهد من مخيلته .

اما هردى فانه لو دخل الى هذا السجن وهو في عمر الشباب لما تحمل

www.mlazna.com-RAYAHEEN

شقاءه ولما استطاع الصبر عليه ولكنه دخل اليه غلاماً صغيراً فتعـود ذلك العيش الجديد فيه .

وقد لقي عذاباً شديداً في بدء امره ولكنه كان يرجو ان ينجو من هذا العذاب ويلاقي روزالي .

الى ان ركع يومـاً امام السجان وسأله بلهجة المتـوسل والدموع تسيل من عينيه قائلاً :

أتوسل اليك ان تخبرني متى يكون خروجي من هذا السجن وان تقول لي الحقيقة وهل حكم عليّ ان اقيم اعواماً فيه .

فأجابه السجان قائلاً :

ان من يدخل الى سجن هيدلون لا يخرج منه يا ابني .

فعلم هردي انهم حكموا عليه بالموت فهاج مدة طويلة هياج المجانين حتى ان السجان لم يكن يجسر على الدخول اليه .

على ان هذا اليأس استحال مع الأيام الى رضوخ وتسليم للقدر فجعـل يبكي بعد الغضب ويعزي نفسه بالتفكير بروزالي .

وعاد السجان الى الدخول اليه واستحال هذا التسليم للقدر ايضـاً الى عدم اكتراث

وجعل يتمرن في سجنه بالوثوب الى حلقات الحديد المعلقة بالجدران فكان ينمو ويشتد وهو لا يعلم اذ لم يكن يرى نفسه .

ومضى على ذلك عدة اعوام والسجان يزوره في كل يوم حتى تولدت في نفسه عاطفة اشفاق عليه فجعل يسليه ويسلي نفسه بألعاب السيف فيتبارزان في كل يوم مرتين او ثلاثاً على نور مشعل .

وكان هردي يرتاح ارتياحاً عظيماً الى هذه الألعاب .

ففي سنة ١٤٠٧ كان هردي قد بات رجلاً شديداً وقد أنسته الأيام اكثر حوادث ماضيـــة وباتت تلك الحادثة في منزله تتمثل له كما تتمثل الحوادث في الاحلام .

ولم يعد يذكر روزالي حق انه لم يعد يتصور شكلها إلا بعد اجهاد الذاكرة فقد تركها وهي في الخامسة من العمر ولم يعد يعرف من هذا الوجود العظيم غير هذا السجن الضيق .

ففي احدى ليالي سنة ١٤٠٧ سمع هردي ضجيجاً من خارج السجن وقد فتح الباب ودخل اليه السجان فسأله قائلاً :

ماذا حدث في عالم الاحياء ؟

فأخبره انهم يعدون حفلة كبرى لفتاة جاءت الى قصر الملك منذ شهر وشفته من جنونه وهي تدعى اوديت دي شامديفر فلم يكترث هردي لهذه الحادثة ونسيها إذ كان كل ما يهمه التمرن على لعب السلاح مع السجان وهو بين غالب ومغلوب .

ومما يستحق الثناء عليه انه اصبح بعد حين أشد من السجان فلم يخطر له مرة ان يقتله ويهرب من السجن .

وقد بلغ الرابعة والعشرين من عمره اي انه أقام في ذلك السجن اثني عشر عاماً لم يرَ فيها ضوء النهار .

وكان يسمع كل يوم خرير ماء في سجنه فسأل السجان يوماً عن هذه المياه فقال له :

انها مياه الأقنية تصب في حفرة تحت سجنك .

قال : إذن ليس عليَّ إلا ان اخرق هذا الجدار فتندفع المياه الى سجني وتغرقه .

فتفرس السجان في وجهه وقال له : ماذا اسمع ألعلك عولت على الانتحار ؟

قال : كلا فاني شديد التمسك بأهداب الحياة .

قال : احذر ان يخطر لك هذا الخاطر الرهيب فما عقاب المنتحرين غير جهنم النار .

www.mlazna.com-RAYAHEEN

ولو فعلت ذلك حين دخولك الى السجن لالتمست لك عذراً من حداثتك اما الآن فقد اصبحت رجلاً فلا اعذرك .

قال : انا رجل ؟

قال : نعم فقد دخلت الى السجن في الثانية عشرة من عمرك وانت فيه منذ اثني عشر عاماً .

ولم يكن هردي قد عرف ذلك قبل الآن فأبى في ذلك اليوم ان يتمرن على لعب السلاح وأقام كل اوقاته يفتكر في ادخال المياه الى سجنه ويقول في نفسه :

ما زال هذا السجن لا يخرج منه غير الأموات فلامت إذن فقد طالت اقامتي فيه .

وقد لقي في سجنه آلة صغيرة من الحديد كانوا قد ادخلوها لبعض اصلاحات فاستعان بها على خرق الجدار من جهة الأقنية وتمكن بعد ثمانية ايام من خرق الجدار والوصول الى القناة ولكنه وقف وقفة القانط حين رأى ان القناة من الحديد الضخم وانه لا يستطيع خرقها بالآلة الصغيرة التي كان يحفر فيها .

فركع وجعل يبكي بكاء غزيراً ويتوسل الى الله ان يخرجه من هذا السجن ميتاً او حياً .

وفي تلك الساعة فتح باب السجن فجاة وتلألأ بالأشعة وظهر له بين هذه الأنوار فتاة يدهش جمالها العقول فارتعش وقال في نفسه :

لا شك انها من ملائكة الله .

أما تلك الفتاة فانها حين رأته بكت لشقائه وقالت له :

كفاك بكاء ايها الشاب فقد انتهت ايام شقائك .

١٦

ملاك قصر سانت بول

ولنعد الآن إلى روزالي او إلى اوديت كما يريد ان يدعوها القارىء فانها جاءت الى قصر سانت بول قبل عشرين يوماً من تلك الحفلة التي سمع ضجيجها من سجنه .

وقد عين لها الملك القسم الأيمن من قصره الخاص فكانت غرفة نومها في الدور الأعلى لا يمكن الوصول اليهـــا إلا بعد المرور بقاعات عينت للشيخ الذي تبناها ولحاضنتها .

وكانت غرفتها هذه محاطة بقاعات منها قاعة كنيسة وقاعة للاستراحة وقاعة للخدم والخادمات وقاعة متقنة للاستقبال وغيرها للطعام .

ولكن كل ذلك لم يكن إلا لعيشتها الخاصة حين تريد الاعتزال .

غير ان الملك أراد ان يكون لهـا في قصره نفس منزلة اعضـاء الاسرة المالكة فعين لها قاعات خاصة للاحتفالات الكبرى وقاعة لحراسها وهم اثني عشر حارساً واصطبلات لمركباتها وكثيراً غير ذلك بحيث كان قصرهـــا لا يفرق عن قصر اولياء العهود .

وكان الجميع يعجبون بها ويجلونها ويحترمونهـــا فوق احترام الملكة ويلقبونها بملاك القصر .

ففي ذات يوم بينما كانت جالسة في قاعتهـــا الخاصة المطلة على حديقة الملك والملك جالس معها ينظر اليها نظرات ملؤها الحنو الأبوي دخل اليها رجـــل يلبس ملابس مخملية سوداء ووراءه خـادم يحمل كيسين فانحنى امامها وقال :

www.mlazna.com-RAYAHEEN

سيدتي ان جلالة الملك قد عين لك راتباً قدره عشرون الف ديناراً وقد جئتك بالربع الأول منه .

فذهل الشيخ الذي تبناها إذ بهر الذهب عينيه وشكرت اوديت الملك ثم التفتت الى الشيخ وقالت :

انك ستعين يا أبي ثلث هذا الراتب للخدم والثلث لاحساناتي الخاصة ويبقى لنا الثلث الاخير .

فابتسم الشيخ وقال : ولكننا كنا نعيش بخمسة وعشرين ريالاً في العام وبعد انصراف رئيس الخزينة دخل ثلاثة من باعة المجوهرات بأمر الملك وفتحوا حقائبهم امام اوديت فصفقت بيدها دهشاً وقالت :

رباه ما هذا البريق العجيب ألعلها حجارة من الشمس ام هي نجوم اخذت من السماء !

فقال لها الملك : بل هي حلى ليديك وعنقك ومعصميك ويجب ان تلبسيها فقد اصبح لبس الحلي عادة بين نسائنا منذ تزوجت الملكة ايزابو .

فجعلت اوديت تقلب هذه الحلى بيديها من عقود من اللؤلؤ وخواتم من الزمرد وأساور رصعت بالالماس واليواقيت الى غير ذلك من تلك المجوهرات النادرة المثال ثم قالت :

اذن يجب ان اختار ما يوافق التجمل به من هذه الحلى الجميلة ولكني لا اعرف ان اختار .

قال : لا تختاري فهي كلها لك .

وعند ذلك انصرف باعة المجوهرات وقد تركوا الحلى على المائدة فسالت مدامع أوديت فجأة ورآها الملك تبكي فاضطرب وقال : ماذا اصابك يا اوديت ؟

قالت : اني افتكر بهذه الحجارة البيضاء فرأيتها تشبه دموع اولئك الفقراء الذين يسيلون من دموعهم بقدر اثمانها ورأيت هذه اليواقيت تشبه نقط الدماء التي يسفكها اهل الظلم .

فأطرق الملك هنيهة مفكراً ثم تنهد وقال :

انك تكلميني يا اوديت كما كان يكلمني اولئك الفلاسفة الذين طردوهم اذ كانوا يشيرون عليّ بتخفيض الضرائب وتخفيف مصائب الشعب ولكن صبراً فسيعودون وفي انتظار ذلك خذي الحلى واستعدي لتجربة ملابسك فقد جاءت الخياطات .

وعند ذلك دخلت اربع نساء يحملن كثيراً من الحرائر والمخمل المختلفة الألوان والأزهار والدانتيلات البديعة الصنع الى غير ذلك مما لا تلبسه غير الاميرات .

فدهشت اوديت لما رأت واسرعت الى الملك فأخذت يده بين يديها وشكرته ودموع الامتنان تجول في عينيها فقال لها الملك :

انك ابنتي المحبوبة ولو انفقت عليك كل ثروتي واصبحت فقيراً لبقيت مديناً لك .

لا تعجبي يا ابنتي لما اقول فانك لم تري هذا القصر قبل قدومك اليه ولا تعرفي كيف كان الملك فيه فقد كان مسكيناً يخجل حتى من نفسه ولا يبحث إلا عن مكان مظلم يستر فيه شقاءه عن العيون حتى ان الخدم لم يكونوا يتدانون الى تحيته .

أما اليوم فقد استيقظ ذلك الراقد وعاد الملك ملكاً وبات النبلاء يتسابقون الى نيل رضاه واصبح كل شيء يبسم من حوله وكل ذلك بفضلك .

فمن انت : اني لا اعرف شيئاً من امرك ولكني اعلم ان هذا هو اليوم الذي نضم فيه بملاك الله .

وقد ذهب الأطباء عني ورحل اولئك الرهبان الذين كانوا يريدون اخراج الشيطان مني واستبدلت ليالي الشقاء بليالي النعيم وبت أنام ملء جفني قرير النفس ناعم البال بعد مرور خمسة عشر عاماً لم ألق في خلالها غير الهم

www.mlazna.com-RAYAHEEN

والنكد ، وكل ذلك بلحظة منك وباليسير من الشفقة فما اطهر قلبك الذي اباركه ما حييت .

وقد حاولت ان تجيبه ولكن دخل في تلك الساعة رجل فقال له : اهلا بك يا جاكمين فهل احضرت ورق اللعب ؟

قال : نعم ، هذا هو ، يا سيدي ، فقد اقمت ثلاثة ايام على رسمه .

قال : حسنا ، فهاته واذهب الى وكيل الخزينة يدفع لك ما امرته ان يدفعه .

وجلس الملك على مائدة ، وجلست أوديت امامه ، وجعلت تتعلم لعب الورق كي تسلي به الملك .

وفي تلك الليلة قدم الملك أوديت الى أهل بلاطه فدخل بها الى القاعة الكبرى ، وهو متأبط ذراعها ، فأعجب الجميع بجمالها وجلالها وسار بها الى الملكة فقال لها :

ارجو ان تحبيها اذا كنت تحبينني .

فانحنت أوديت احتراماً واصفر وجه الملكة وقد رأى جميع الحضور انها حولت وجهها عنها وان أوديت ارتعدت لنظراتها الهائلة .

أما الملكة فقد هاجت البراكين في صدرها وقالت في نفسها :

انه اذا بقيت هذه الفتاة في القصر كنت من الهالكين .

فلما ابتعد الملك نادت ريدون ، رئيس حراسها ، بينما كان الملك يطوف بأوديت ويعرفها بالحاضرين وكان بينهم جان الذي لا يخاف وهو والد أوديت دي شامديفر أي روزالي ، فلما رآها اضطرب لجمالها الفتان وقال في نفسه :

اقسم بالله ان هذه الفتاة ستكون لي .

فتركه الملك وذهب بها الى الدوق دي بيري ، فانحنى الدوق وقال له :

يسرني ، يا مولاي ، ان اكون أنا الأول من خطر له احضار هذه النبيلة الى القصر فانها ستكون السبب في شفائك .

فلما انصرف عنه قال في نفسه :

نعم ، انها ستشفيك اذا بقيت في قيد الحياة ، ولكنها لا تعيش وأنا لها بالمرصاد .

وسار الملك بأوديت الى أخيه الدوق دي أورليان وكان من أهل الظرف والكياسة يبلغ من العمر خمسة وثلاثين عاماً وقد تعلق بجميع انواع الملاهي والخلاعة بحيث لم يكن يستحق ان تكون تلك المرأة الفاضلة التي انقذت روزالي إمرأته اذ كان يتنكر في كل ليلة، ويطوف خمارات باريس مع فرق من اتباعه أهل الدعارة .

ومع ذلك فقد كان ظريفاً ، كيساً ، كثير الذكاء ، شديد التحسب للعواقب من ذلك انه بنى قصر بيارفون الذي لا يزال قائماً الى الآن ، وهو حصن منيع لم يبنه إلا للالتجاء اليه اذا انتصر جان دي بورجونيا، وطرده من قصر سان بول .

فلما عرفه الملك بأوديت قال له :

ان الدوقة دي أورليان مقيمة منذ أسبوعين في بيارفون ولو كانت هنا لنازعت جلالة الملك بتعريف هذه السيدة الحسناء بأهل البلاط .

فأجابه الملك قائلاً :

انها كانت تغلبني دون شك يا أخي فان الدوقة هي المرأة الوحيدة التي ائتمنها على هذه الفتاة النبيلة .

أما أوديت فانها لم تقل كلمة تشير الى انها تعرف الدوقة فالنتين .

واخذ الملك يطوف بها على أهل بلاطه ، بينما كان جان دي بورجونيا والدوق دي بيري يسيران الى الملكة ايزابو .

فلما التقيا بها ابتسمت الملكة لجان وقالت في نفسها :

لقد صبرت أعواماً على انتقامي ، ولكن الانتقام اذا كان اعرج بطيء السير فلا بد ان يصل .

وقال جان في نفسه وقد رأى ابتسامها اللطيف: انها نسيت دون شك.

وقال الدوق دي بيري :

www.mlazna.com-RAYAHEEN

ان الملكة تكاد تقتلها الغيرة من أوديت ، وجان يكاد يقتله حب هذه الفتاة فيجب ان اغتنم فرصة هذا الحب ، وهذا البغض واجعلهما آلتين لقتل تلك الفتاة التي ستشفي الملك .

ولبثوا يتحدثون ، بينما كانت أوديت تطوف في تلك القاعة الكبرى ووراءها خادمان يحملان ذيل ردائها الطويل ، والناس قد اصطفوا على الجانبين يتحدثون امامها احتراما ويعجبون بجلالها فكانت الملكة تنظر اليها نظرات نارية هائلة وتقول في نفسها :

ان هذا الاعجاب، وهذا الاحترام يجب ان يكونا لي دون سواي .

والويل لمن يخونني في سبيل هذه الخادمة المنافقة .

وهكذا انتهت تلك الحفلة التي توطدت بها سلطة أوديت ، وعلم الناس اجمعون انها باتت الحرة المطلقة في القصر .

وفي اليوم التالي تأبط الملك ذراعها وطاف بها في جميع حدائق القصر وبناياته ما خلا حدائق الملكة وقصرها ، فان الملك أبى ان يدخل اليها ولم تبد أوديت اقل ملاحظة ، فانها علمت لأول وهلة ، ان الملكة تكرهها أشد الكره .

وقد اجتنب الملك أيضاً تلك الاراضي المهملة التي بني فيها برج هيدلون فسألته أوديت قائلة :

ما هذه البناية ، يا مولاي ؟

ـ انها مكان يقيم فيه المسجونون .

ـ ماذا صنع أولئك المسجونون ؟

ـ لا أعلم .

وقد كانت كلمة هائلة ، قالها الملك ، قضى بها قضاء مبرماً على الحكم المطلق .

فسارت أوديت مع الملك وفي نفسها اشياء من هذا السجن فقد خيل لها كأنه يدعوها اليه ليبوح لها بسر من أسراره.

وما زال هذا الخاطر يتجسم في مخيلتها الى ان عزمت في ليلة مقمرة على زيارة السجن فأخذت ذلك الشيخ الذي تبناها وسارت به حتى وصلت الى ذلك السجن الرهيب فوقفت خاشعة لما يحيط به من السكون .

وفيما هي على ذلك الحال سمعت فجأة صوت أنين وبكاء يقطعان القلوب من الاشفاق .

فارتعدت أوديت ارتعاداً عظيما وخاف عليها الشيخ عاقبة التأثر ، فعاد بها ، وقد عرفت الآن سر هذا السجن ، وعرفت ان فيه رجلاً دفن حياً ، وكانت تضع رأسها بين يديها ، وتقيم ساعات وهي تفكر بهذا الأنين الذي سمعته وتقول :

رباه ، ما هذا الصوت ؟ انه صوت رجل نشب الموت براثينه فيه ولا يستطيع خلاصاً ولكن أين سمعت هذا من قبل وما لنبرته تؤثر على قلبي هذا التأثير ؟

ففي صباح يوم تجاسرت على الذهاب وحدها الى ذلك السجن ولقيت السجان فأعطته ديناراً وقالت :

أريد ان اعرف من هذا المنكود الذي يبكي كل ليلة تحت الأرض .

ـ انه أسير الحكومة .

ـ كم بقي له في هذا السجن ، بل في هذا القبر ؟

ـ أثنا عشر عاماً .

ـ مسكين ، انه قد شاخ تحت هذه الحجارة ، أبيضت شعره ، أليس كذلك ؟

ـ كلا ، يا سيدتي ، بل انه لا يتجاوز الخامسة والعشرين من عمره .

فهربت أوديت هائمة منذعرة وهي تقول :

عمره خمسة وعشرون عاماً وبقي نصف عمره في السجن وماذا عسى ان يسيء الى الحكومة من لم يبلغ من الرشد ؟

www.mlazna.com-RAYAHEEN

وعند ذلك تمثل ذلك السجين في مخيلتها وجعل منذ ذلك الحين يناجيها ويستغيث بها ويتوسل اليها بدموعه ان تنقذه .

وفي ذلك اليوم الذي تلاه خلت أوديت بالملك خلوة سرية اقلقت أهل البلاط ولا سيما الملكة فانها قالت في نفسها :

لا شك ان هذه الماكرة تسأله تاجي .

وبقيت على هذه الخلوات ثمانية أيام ، وفي كل يوم لا تجد من الملك إلا الرفض والاعتذار .

ولكنه في اليوم التاسع أذعن لمطالبها فلبس رداءه في الليل وسار مع أوديت الى السجن .

وهناك لقي السجان وكان الملك ملتفاً بردائه فلم يستطع السجان ان يراه ولكن اطمأن حين رأى أوديت ، فأعطاه الملك أمراً يتضمن الاذن لرجل وإمرأة بزيارة السجن .

فانحنى السجان للأمر ، ونزل الثلاثة حتى بلغوا باب سجن هاردي فأنار السجان مشعله ، وانارت أوديت شمعة كانت أتت بها ، ورقف الملك وهو مقطب الجبين .

فقالت له أوديت : اصغ .. ألا تسمع هذا الانين الذي يقطع القلوب ؟ اصغ انه يبكي.. اصغ انه يصلي ويسأل الله الفرج بالموت.. افتح ايها السجان فاني أريد .

* * *

١٧

الشفاليه هاردي دي باسافان

فامتثل السجان وفتح الباب ورأت أوديت وهي ترتعد شفقة فتى راكعاً علي الأرض وهو باسطاً يديه اليها .

فارتعش الملك ووقف السجان يتأمل وهو لا يفهم شيئاً .

وانحنت اوديت فقالت لهردي اقوالاً ردت الرجاء الى قلبه القانط .

فنظر هردي نظرة انذهـال الى جميع الحـاضرين ثم استقر نظره على اوديت كأنه يريد ان يتكلم فلم يعلم ما يجب ان يقول فضم يديه الناحلتين بشكل كان أشد تأثيراً من أنينه .

فالتفت اوديت الى شارل السادس وقالت له :

يجب إنقاذه

فوضع السجان يده على خنجره وأصغي هاردي الى ما قالته وهو يحسبها ملاكاً هبط اليه من السماء ، وهز الملك رأسه وقال :

ذلك مستحيل يا ابنـتي ، فانه سجين الحكومة ويلزم لإنقاذه ان يوافق المجلس ، فاصـــبري يا اوديت الى ان أقبض على كل السلطة ، وإني أعدك ..

فقاطعته اوديت قائلة وقد تنهدت :

إذن لست ذلك الرجل الذي كنت أحسب قلبه من أطيب القـلوب .. كيف ذلك ؟ أليس لك قلب ، ألم يؤثر عليك يأس هذا المنكود ؟

— اوديت ماذا تقولين ؟

— لك انه كيف يكون ابن اثني عشر عاماً سجين الحكومة .. انه مقيم في هذا القبر منذ اثني عشر عاماً ، فمن يخطر في باله ان الاطفال يرتكبون جرائم تعاقب عليها الحكومات اصحابها بالدفن أحياء .

— اوديت انك لا تعلمين .

كلا ، لا اعلم ولا اريد ان اعلم غير امر واحد وهو انك تعذبت فوجب عليك ان تقدر عذاب سواك حق قدره وانك تقول لي اصبري فكيف تريد ان يكون هذا الصبر ؟ أأصبر الى ان يموت ؟

فزاد وجه الملك تجهماً وجعل ينظر الى هاردي الذي كان قـد عاد اليه كل رشده بعد تلك المباغتة وبرقت عيناه بأشعة تدل على ذكائه وبسالته ،

www.mlazna.com-RAYAHEEN

وقد دنا من اوديت بثيابه الممزقة فانحنى امامها وقال لها بصوت مختنق :

سيدتي اني كنت منذ هنيهة ألتمس الموت واما لا اعلم من انت ولا اعلم تفضلك بالاهتمام بي .

أما وقد رأيتك ونفذت أشعة عينيك الى قلبي فاني لم أعـــد ارغب في الموت ولا أجسر على الانتحـــار لأنك أثرت في قلبي الذي لم يكن فيه غير الظلمات وغرست الرجاء في هذا القلب الذي كان يلعن الحياة .

قالت : اقسم لك بأنك ستعيش وتكون حراً طليقـاً ، ثم التفتت الى الملك فقالت :

يجب إنقاذه او أحسب انك ممن ينكرون الجميـل او احسب ان الله اذا عذبك فلأنك تستحق هذا العذاب ، بل اعتقد ايضاً انه لا يجب اعتراض الله وان ابرح قصر سانت بول .

ـ كلا كلا يا اوديت لا تتركيني وغداً ..

ـ بل في الحال . اني أرى في عينيك ما يدل على نفاذ الرحمة الى قلبك فدع قلبك يتكلم .

ـ حسناً فهو مطلق السراح .. تعال ايها الرجل .

فانقدت عينا هاردي وكاد قلبه يثب من صدره وقال :

انا حر طليق

فأجابه السجان قائلاً : كلا ان سراحك لم يطلق بعد .

وقد وقف بينه وبين الباب وقال للملك وهو لم يعرفه :

انك تحمل أمر الملك بالاذن لك بزيارة السجن لا بانقاذه ، فاخرج من هنا او انادي حراس الملك .. من الذي أمر باطلاق سراح هذا السجين؟

فنزع الملك الرداء عن رأسه بحيث ظهر وقال له :

انا .

فسقط السجان جاثياً على ركبتيه وقال :

رباه ، أتجاسرت على ان اقول الملك « اخرج من هنا » رباه ، لقد قضي عليّ بالهلاك .

وقال هاردي :

الملك ! وهو لم يكن امرفه ولكنه سمع السجان .

فقال الملك للسجان :

انهض فان السجين بات حراً ولكن لا يجب ان يعلم احد بأمري ، فاذا سألوك عنه فقل:

وقد جعل يبحث عما يجب ان يقوله .

فقال له السجان :اني اجيب يا مولاي بما اجبت به رجلا سألني عنه مرة

ـ بماذا اجبت ؟

ـ انه مات

فارتعش هاردي ومشى الى السجان فهز ذراعه وقال له :

ماذا قال هذا الرجل حين علم اني ميت ؟

قال : اجابني بأنه أعطاني كيساً مملوءاً بالذهب .

ـ وماذا يدعى هذا الرجل الذي يهمه موتي ؟

فهز السجان كتفه إشارة الى انه لا يعلم وربما كان صادقاً في قوله .

فتركه هاردي ، وفعلت اوديت مثل ما فعل جان حين سأل السجان ، أي انها أعطتـه كيساً مملوءاً بالدنانير ، ثم مدت يدها الى السجين وقالت له برفق :

تعال ، فان عذابك قد انتهى .

فأخذ بيديه المضطربة يدها الناعمة وهكذا صعدت به السلم وأخرجته من ذلك البرج الهائل .

وهناك وقف هنيهة منذهلا وقد اسكره منظر السماء ونجومها السابحة في اللانهاية وتلك النسمات اللطيفة التي ملأت رئتيه

وعند ذلك سارت به والملك يسير وراءهما وهو منذهـــل لما تولاه من

www.mlazna.com-RAYAHEEN

السرور بهذا الاحسان معجب بفرح اوديت وهي تسير ويدها بيد ذلك السجين الحافي القدمين الممزق الملابس وما علم انهما يمثلان الشباب والوفاء والحب ، وانهما روزالي وهاردي .

وعندما اقتربا من القصر اوقفهما الملك قائلا :

لماذا سجنت في برج هيدلون ؟ قل الحقيقة .

قال : لا اعلم .

فأطرق الملك هنيهة ثم قال :

اقسم لي انك لا تعلم .

اقسم يا مولاي بالله على صدقي فيما اقول .

— اكنت في ذلك السجن منذ اثني عشر عاماً ؟

— نعم .

فأطرق الملك ايضاً مفكراً كأنه كان يفتكر بأنه يوجد كثيرون سواه في سجون باريس لا يعلمون لماذا سجنوا ، ثم قال له :

انك الآن حر وستبرح الآن قصر سانت بول ، فاذهب الآن ، واذا سمعت اتفاقا احداً يلعن شارل السادس ورويت له ما جرى تكون قد كافئتني عن اطلاق سراحك .

فانحنى هاردي وقال :

سأفعل يا مولاى ، واذا اتفق ذلك أبقى مدينا لك ما حييت فليحرس الله جلالتك .

فأشار الملك إشارة وداع بيده ودخل الى قصره وذهبت اوديت بهاردى الى قصرها وهناك لقيت الشيخ شامديفر فألقت عليه بضع كلمات ودخلت الى قاعاتها .

ومضت بضع ساعات كان ذلك الشيخ ينفذ خلالها اوامر اوديت لأنها بعد ذلك دخل اليها رجل لم تعرفه لأول وهلة وكان يلبس ثوبا جميلا من المخمل على عادة النبلاء في ذلك العهد ، وليس حذائين ارتفعا الى ما فوق

ركبتيه ووضع في يديه قفازين وربط شعره المسترسل الى كتفه برباط من الحرير الازرق ، فان عادة إطلاق الشعر كانت متبعة في تلك الايام ، وقد اتشح فوق ثوبه بوشاح من الجوخ بحيث استحالت هيئته وبات جميلاً بالرغم عن هزاله واصفرار وجهـــه ، إذ كان رشيق الحركات عصبي المزاج رقيق الشعور وبعينيه حلاوة تدل على كرم القلب .

فجعلت اوديت تتمعن به هنيهة ثم نظرت الى السيوف المعلقة في الجدار فاختارت أشدها ودفعته الى هردي .

فركع هردي وقبـل قبضة ذلك الحسام وكان هذا كل مـــا ابداه من الشكر .

فخفق قلب اوديت ولم تسأله عن اسمه فأما كان ذلك عن عدم علمهـا بتفاصيل حياته واما انها اتبعت العـــادة الجارية في ذلك العصر وهي ان الضيف يعتبرونه مقدساً فلا يسألونه .

وقد علم الاثنان انه لا فائدة من الكلام في هـذا الموقف فان اوديت كانت تعتبر ان كل لفظة تشير بها الى ما فعلته تعد بمثابة ثمن وكان هردي يعتبر ان كل كلمة شكر يقولها لا تفي بمراده ولا تظهر واجب الامتنان .

وكان الصباح قد بدأ بزوغه ونفذت أشعة القمر من النوافذ فقال الشيخ :

يجب الآن ان تنصرف فانه بعد هنيهة تغص الاروقة بخدم القصر .

وسار به الشيخ إلى باب غير الباب الأكبر كان الملك قد اعطاه مفتاحه وتبعتهما اوديت .

وهناك أخذت اوديت المفتاح وفتحت بيدها ذلك الباب .

وعند ذلك وقفت اوديت والاسير .. روزالي وهردي .. هنيهة ينظر كل منهما للآخر ولا يدري ما يقول الى ان غضت اوديت بصرهـا وقالت بصوت يضطرب قليلاً :

اذهب وليأخذ الله بناصرك .

www.mlazna.com-RAYAHEEN

فقال لها هردي :

قولي يا سيدتي اسمك حتى اذا نسيت في ايام الشقاء ان اذكر اسم الله الذي نسيني اذكر اسمك .

فقالت وهي مطرقة العينين .

اني ادعى اوديت .

ولما رفعت نظرها رأت الشيخ يقفل الباب وان السجين قد توارى عن الأنظار فعادت مطرقة مفكرة تسير ببطء .

أما هردي فانه وقف عند ذلك الباب نحو ساعة وهو خافق القلب فلما نظر الى ما حواليه رأى أشعة الشمس ترقص فوق نهر السين وتلك السماء الزرقاء تبسم سروراً لهذه الأشعة فنظر نظرة اخيرة الى ذلك السجن المظلم وجدرانه الكثيفة فارتعد وصاح قائلاً :

ما اجمل الحياة وما اجمل الحب فاني حي محبوب .

وعند ذلك اهتز كما يهتز العقاب بعد العاصفة وسار في شوارع باريس وهو يبسم لكل ما يراه ويقول في نفسه :

ما اجمل الحياة وما احسن الحرية .. ولكن من هذا الذي خطر له ان يسجنني اثني عشر عاماً لا ارى في خلالها النور .. فلافتكر بغير هذا فهو من الماضي .

وقد تمكن من نسيان هذه الحادثة لانه كان يريد ان يعيش ويتمتع بهذه الحياة .

وسار في تلك الشوارع وهو يبسم لكل ما يراه ويعجب بكل ما يسمعه ويدخل الى كل خمارة يمر بها فيشرب كأساً والى كل دكان بائع حلوى فيأكل قطعة وينفق عن سعة مما وضعته اوديت في جيبه من المال .

وما زال ينتقل من شارع الى شارع حتى وصل الى منزله فوقف عند بابه وذكر ايام حداثته وان أباه وامه ماتا فيه وان روزالي كانت جنة في هذا المنزل فأدمعت عيناه .

وكان المنزل مهجوراً منذ اثني عشر عاماً وبابه مقفلاً فتسلق جدران الحديقة ودخل الى المنزل فذهب تواً دون ان يريد الى تلك القاعة التي كان يلاعب فيها روزالي وهي طفلة .

وهناك عادت اليه تذكاراته بجملتها وجعل يقول بصوت مختنق .

روزالي .. روزالي اين انت ؟

١٨

ساتان

في الساعة العاشرة من هذه الليلة نفسها كان زورق يسير تحت الأمطار وهو يستنير بتلك البروق الخاطفة التي كانت تخط بكتاب السماء المظلم اسرار الطبيعة بحروف من نار .

وكان في هذا الزورق الملكة ايزابو وريدون وهما يسيران في نفس الطريق التي سلكاها منذ اثني عشر عاماً الى منزل ساتان .

غير ان ريدون كان قد رقي حتى بات رئيساً لجميع حراس الملكة وهو منصب خطير في قصر سانت بول وقد اشتد عضله وقوي جسمه حتى بات رئيساً لجميع حراس الملكة وهو منصب خطير في قصر سانت بول وقد اشتد عضله وقوي جسمه حتى بات قادراً على قتل ثور بلكمة .

وقد تغير الجميع فان الملكة بلغت ريعان جمالها وجان بات دوق دي بورجونيا وهردي صار رجلاً يدعى الشفاليه دي باسافان وروزالي باتت صبية تدعى اوديت دي شامديفر ما خلا ساتان فانه بقي ذلك الرجل الهزيل الناحل الذي لا يستطيع احد ان يعرف عمره ولا يقاوم نظراته النارية .

كانت الملكة ورئيس حراسها ذاهبين الى ساتان فلما دخلا الى منزله

www.mlazna.com-RAYAHEEN

كانت الرعود تقصف والامطـــار تنهل كأفواه القرب فقال ساتان بلهجة المتهكم .

ما ابهج هذه الليلة واجدرها بزيارة الساحر اسمعي يا مولاتي فان اصوات ساتان تلعلع في الفضاء وتمزق الهواء .

فجعل ريدون يتمم بالصلاة وينظر الى ساتان ويقول في نفسه :

لقد تسلحت بالصلاة ضد سحرك فلا خوف عليّ منك .

أما الملكة فانها لم تنتبه لتهكم ساتان ولا لصلاة ريدون ولا لقصف الرعود فقال لها ساتان :

اني اختار هذه الليالي لمتابعة ابحاثي فان الأرواح تهتم فيهـا وتوحي الى رجال العلم ما يعملون غير اني اؤجل مباحثي اكراماً لمولاتي .

فقالت له الملكة : اذن لم تقنط بعد من وجود اكسير الخلود .

لا بد لي من ايجاده يا سيدتي والعودة الى تجاربي السابقة التي كدت اظفر بها ولكن ذلك الغلام الميت كان حياً .

— نعم اعلم فقد اخبرتني بذلك وان مشروعك خطير عظيم واي خطورة فان من يفوز بالخلود في هذه الدار يملك العالم .

— بل يصبح من الآلهة .

وساد السكوت هنيهـــة بينهما فلم يكن يسمع في خلاله غير سقوط الأمطار على زجاج النوافذ الى ان عادت الملكة الى الحديث فقالت :

اني سأفي بكل ما وعدتك به وسأعمل كل مـــا يجب عمله في سبيل المشروع العظيم فاني ملكة في قصر سانت بول ولكني هنا تلميذتك .

على انه لا بد لنجاح مشروعك من ان استطيع حمايتك بالسر كما فعلت من قبل حين قبضت على رئيس الشرطـة الذي اتهمك بالسحر وكما قبضت على ذلك القاضي الذي اراد محاكمتك وألقيته في اعماق السجون .

ولكني لا استطيع ذلك إلا اذا ابقيت لي سلطتي فان الاخطار تنذرها.

فابتسم ساتان وذهب الى خزانته فأخذ منها زجاجة ودفعهـا اليها وهو يقول :

إني اعددتها لك من قبل فان سلطتك لا خطر عليها إلا من وجود فتاة صبية في قصر سانت بول .

فاصفر وجه ايزابو وتبين الحقد في عينيها فقالت :

ذلك اكيد اذن هذا السم لها ؟

— كلا يا سيدتي فان هذا عمل اطفال وسنقتل اوديت دي شامديفر متى دنت ساعتهـا ونقتل شارل السادس متى حان أجله ، أي حـين لا يكون عليك خطر بعـد ترملك من الدوق دى اورليـان او الدوق دى بيرى او الدوق دى بورجونيا .

وقد اصفر وجهه حين لفظ هذا الاسم الأخير واتقدت عيناه بشرر الحقد ووضع يده على خده ثم قال :

نعم يا سيدتي ان لكل دوره فاذهبي مطمئنة ولا تشفقي على احد فان الناس لا يحبون غير الذين يخافونهم .

اذن ما هذه الزجاجة وما فائدة شرابها ؟

— فائدته مقاومة نفوذ الملك وابقـاؤه مجنوناً تأييداً لسلطتك فاذهبي يا سيدتي فان زوجك اذا كان مجنوناً الآن خير لك من ان يكون ميتاً .. اذهبي يا سيدتي ودعيني في اعمالي .

— نعم نعم لقد أصبت فانه اذا مات شارل تولى مكانـه ملك جديد فيطردني وربما قبض عليّ أما اذا بقي مجنوناً فان السلطة تنحصر في يدي .

فابتسم ساتان واوصـل الملكة وريدون الى باب الشارع وهنـاك هب الهواء فأطفأ المصباح فوقف ينظر اليهما على نور البرق حتى توارتا .

وعند ذلك دخل ساتان واقفل الباب فذعر إذ رأى رجلاً دفعه الى داخل المنزل وقال له :

السلام عليك يا ساتان من الغلام الميت .

فتراجع ساتان خطوتين منـذعراً ، ونظر الى هاردي كأنه لا يصدق ما يراه .

وقد عرفه من صوته ومن قوله « السلام عليك من الغلام الميت » .

وعند ذلك قصف الرعد ودوت الصاعقة فاهتزت لها جوانب المنزل فقال ساتان في نفسه :

اني لا أستطيع النجاة منه إلا بالحكمة والتأني فقال له :

أأنت آت اليَّ مع الصاعقة ؟

قال : وكالصاعقة .

وكان ساتان شجاعاً شجاعة من يعتقد ان المرء لا يموت إلا في الأجـل المكتوب له .

ولكنه على شجاعته لم يملك نفسه من الخوف ، فتجلد ونظر الى هاردي فقال :

ماذا تريد مني ؟

فلم يجبه هاردي ولكنه دخل الى قاعة ثانية كان فيها مصباح مضاء فأخذه وذهب به الى قاعة ثانية ووقف امام تلك المائدة الرخامية .

وكان ساتان قد تبعه اليها فجرد هاردي حسامه وضرب به تلك المائدة وهو يقول :

هنا .. نعم هنا على هذه المائدة .

فأيقن ساتان انه لا بد له من الدفاع الشديد ضد هـذا العدو الذي يقابله والسيف مجرد بيده ، وقد عجب كيف ان دوق دي بورجونيا أبقى هـذا الشاهد في قيد الحياة .

ولكنه ابقى البحث في ذلك الى غير هذا المقام ، واسرع الى سيف علق بالجدار فامتشقه ووقف ينظر الى خصمه نظرات نارية .

أما هاردي فانه جعل يضحك ضحك الهازىء ، ثم قال له :

أين الثلاثة الأحياء ؟

فأجابه ساتان ببرود قائلا :

لا أعلم فاني لم أرهم بعد خروجهم من هنا .

قال : هو ذاك فقد خافوا ان يعودا الى هذا المنزل الجهنمي ، وحقهم ان يخافوا فاني أنا خفت أيضاً و كنت ارتعد حين افتكر اني كنت ممدوداً على هذه المائدة ، ومبضعك فوق صدري ، ولكني رجعت اليك مع ذلك أعرفتني ؟

ـ نعم ، لقد عرفتك من كلامك .

ـ نعم ، فان وجهي لم يتغير ، أتعلم ماذا اتيت اعمل هنا ؟

ـ انك اتيت لتنتقم ، دون شك ، ولكنك لا تستطيع قتلي بهذه السهولة التي تتوهم .

وعند ذلك انقض عليه فجأة وطعنه بسيفه طعنة هائلة وهول يقول :

مت إذن ما زال قد قدر لك ان تموت هنا .

على ان السيف لم يصل الى هاردي ، فقد بلغ وشاحه دون ان يمس جلده .

وذلك ان يد هاردي كانت اسرع الى السيف من السيف الى صدره فقبض عليه ونزعه من يد ساتان فكسره على ركبتيه والقاه الى الأرض .

وقد حدث ذلك باسرع من الوقت الذي كتب فيه ، فلما كسر هاردي السيف وثب ووقف عند الباب كي يحول بينه وبين ساتان .

ورأى ساتان انه مغلوب ، وانه سيقتل لا محالة فكتف ذراعيه ووقف ينظر نظرات وحشية اليه .

فقال له : أتعلم أيها الساحر انك حية يجب صعقها وما زلت قد انتصرت عليك فلا بد من قتلك ؟

قال : افعل ، فأنت تستطيع قتلي ما زلت مسلحاً دوني ، ولكنك لا تستطيع ان تخيفني .

قال : سوف ترى .

وقد نظر الى ما حواليه فوجد آنية الماء والاسفنجة لا تزالان في مكانهما ورأى على المائدة ذلك الصندوق الذي كانت فيه الآلات الجراحية ، ورأى في زاوية الغرفة حبلا فأخذ الحبل ومشى الى ساتان فقبض على عنقه بيد من حديد .

ولم يطل العراك بينهما فان هاردي تمكن من القائه على الأرض وتقييده بالحبل .

ولكن ساتان لم يخف وقال له :

ألا تستطيع قتلي دون تقييدي أيها اللص ؟

ولكنه لم يلبث ان قال هذا القول حتى سرى الخوف الى قلبه ، وقال في نفسه :

ترى ماذا يريد ان يصنع ؟

ذلك ان هاردي حمله بين يديه ، وهو مقيد اليدين والرجلين ووضعه على مائدة الرخام .

ثم جرد خنجره وهو يمزق الملابس عن صدره حتى انكشف صدره وعند ذلك وضع مصباحاً امام رأس ساتان وفتح علبة الآلات الجراحية فأخذ منها المبضع وقال له بملء البساطة :

اني سأصنع بك ما صنعته بكثيرين ، وما حاولت ان تصنعه بي وهو اني سأبحث بهذا المبضع عن قلبك واخرجه من صدرك .

فبرزت عينا ساتان من الرعب وزأر زئير الوحوش ، فقال له هاردي :

لقد اذكرتني الآن انه يجب تكميمك ، كما فعلت بالفتيان الثلاثة ، اما أنا فلم تكن محتاجاً الى تكميمي لأني كنت ميتاً .

وقد بحث حواليه عن كمامة فبذل ساتان جهداً عنيفاً كي يقطع رباط رجليه وتندى وجهه بالعرق وانتفخت عروقه .

حتى اذا عاد اليه بالكمامة صاح قائلا :

رحماك اقتلني بضربة واحدة .

ـ ارى انك خفت الآن ، يا سيدي ، الساحر .

ووضع رأس المبضع على صدره ، كما فعل به ساتان من قبل .

فاهتز ساتان اهتزازاً عنيفاً وقال :

نعم ، لقد خفت .

ـ إذن اجبني على ما اسألك عليه ولك ان تختار بين ان تجيبني فأعفو عنك وبين ان تأبى فانتزع قلبك .

ـ سل ما تشاء .

ففك هاردي وثاقه ووقف ساتان فأسرع الى زجاجة فصب منها نقط وشربا فعاد الى وجهه لونه الطبيعي وسكن اضطراب اعصابه فقال له هاردي عند ذلك :

اني ما اتيت لأقتلك ولا لأخيفك ولا لأنتقم منك ولكنك اكرهتني على فعل ما فعلته بك حين هجمت عليّ وحاولت قتلي .

ـ إذن ماذا تريد مني ؟

ـ احذر ان تخدعني في جوابك واعلم اني اعرف طريق منزلك فاذا علمت يوماً اني منخدع عدت الى هذه المائدة

ـ سل ما تشاء .

ـ اني حين جاؤا بي اليك في تلك الليلة القديمة هاجموا منزلي وكان يوجد مع المهاجمين إمرأة لم استطع ان ارى وجهها .

فقاطعه ساتان قائلا :

أتعرف من هي هذه المرأة ؟

ـ كلا ، وكان يوجد معها رجل ايضاً .

ـ انك تعرف هذا الرجل دون شك ؟

كلا .

فتنفس ساتان الصعداء اذ ايقن ان هاردي لم يعرف الملكة ، ولا جان

www.mlazna.com-RAYAHEEN

وسر بذلك لأنه اقسم على ان ينتقم وحده من جان فلا يشاركه بهذا الانتقام أحد فقال له : :

أتم حديثك :

ـ أتعرف انت هذا وهذه المرأة ؟

كلا ، ومن أين لي ان اعرف مثل هـذه الأمور فاني آلة لتنفيذ الاغراض كهذه الآلات التي تراها في الصندوق .

ـ مهما يكن من الامر فاني اعتقد انه يوجـد علاقة بين مهاجمة منزلي وبين الحادثة التي جرت لي عندك ، فاذا كنت آلة وغابت عنك اشياء فانك تعرف ايضاً اشياء .

ـ سلني اجيبك عما اعرفه .

ـ لقـد كانت تعيش في منزلي فتاة نبيلة تدعى لورانس دي ايزيم ، أتعلم ماذا جرى لها :

ـ كلا .

فارتعش هاردي ووضع يده على جبينه ، ثم قال :

وكان يوجد معنا ايضاً فتاة تبلغ الخامسة من عمرها وهي تدعى روزالي أتعلم ماذا جرى لها ؟

ـ نعم .

فوقف هاردي ، واسرع الى ساتان ، فأمسك بيـده وظهر عليه التأثر الشديد ، اذ خيل له انه يرى تلك الفتاة الصغيرة الجميلة التي لم يحب غيرها في الوجود .

أما ساتان فانه كان يراقب هاردي اشد المراقبة فقال في نفسه :

اني سأضعك على مائدة لا تعد معها هذه المائدة الرخاميـــة غير فراش من الورد .

وأما هاردي فقد قال له : قل ما تعلم .

فقال : لقد اتفقنا على ان اقول لك كل ما أعلـــه ، فانك وان تكن

عاملتني بالقسوة فاني سأهتم بك لأني أرى انك تحب هذه الفتاة ، أليس كذلك ؟

– اني ارضى ان أعود إلى حيث كنت في جهنم بشرط ان اعلم ماذا جرى لهذه الفتاة .

– اين كنت ؟

– لقد كنت في سجن أقمت فيه اثني عشر عاماً وقد دفنت فيه حياً في نفس تلك الليلة حين دفعت الجنود الى القبض عليّ فذهبوا الى قصر سانت بول ولم أخرج منه إلا امس .

– اذا كان ذلك فكيف تقول انك لا تريد قتلي والانتقام مني ؟

– وأية فائدة من قتلك والانتقام منك وأنت تقول انك لم تكن غير آلة لتنفيذ اغراضهم ؟ .. كلا ، اني لا اريد الانتقام منك بل اريد ان اسألك عن روزالي ، فقل ما تعلمه عنها واقسم لك بالله اني انسى كل ما صنعته بي .

فأطرق ساتان مفكراً وجعل يبحث عن الأسباب التي تحمل هذا الفتى على هذا الكرم .

ولما لم يجدها هز كتفيه وقال :

نعم سأقول لك كل ما اعرفه عن هذه الفتاة ، فاعلم انها قد عهدوا بها إلى امرأة كما عهدوا بك اليّ ولكل منا دور يمثله ، اما تلك المرأة فقد ماتت فلا تبحث عنها وقد لقيتها قبل موتها بثلاثة إيام إذ دعتني اليها لمعالجتها لأني من الأطباء واخبرتني بما جرى لروزالي .

وحكايتها قصيرة موجزة ، فان هذه المرأة ذهبت بها إلى مكان بعيد عن باريس ولم تذكره لي وعرضتها عند باب الكنيسة بصفة فتاة لقيطة فأخذتها امرأة صالحة وتولت امرها .

فوثب هاردي كأنما قد تحرك بلولب كهربائي وقال :

كيف ذلك ؟ . أعرضت عند باب الكنيسة ؟ . ألم يوجد من يدفع

www.mlazna.com-RAYAHEEN

هذه النكبة عن تلك الفتاة التي كانت تجرحها خطرات النسيم ؟

قال : لقد اصبت في وصفها ، فان تأثيرها كان شديداً في تلك الليلة ، لأنها عرضت على باب الكنيسة ، ولما كانت تلقاه من هزء الناس بها فقد اصيبت بحمى شديدة لم تعش بعدها غير ثلاثة ايام

فاصفر وجه هاردي حتى بات كالأموات ، وجعل يقول بصوت خنقه اليأس ..

ماتت .. روزالي ماتت ؟

وقد كبرت عليه هذه المصيبة ، وحاول ان يعزي نفسه عنها بالدموع فلم يستطع البكاء .

ثم اخذ يتغلب على حزنه تباعاً حتى مسك نفسه فقال مخاطباً ساتان :

أشكرك يا سيدتي ، فهذا كل ما اردت ان اعرفه منك ، ولا بد لي قبل انصرافي ان اخبرك بأنه لا يجب ان تخافي بعد الآن ولكني أحب ايضاً ان اعلم اسم التي ..

فقاطعه ساتان قائلاً :

ولكنني قلت لك ان هذه المرأة ماتت .

ـ انا لا اريد المرأة التي عرضتها في الكنيسة بل التي اعتنت بها ، فكيف كانت تعاملها ولماذا اخذتها ؟

ـ انها تبنتها ، فهذه المرأة كانت من أطهر الناس قلباً ، فاعتنت بها عناية الامهات وبذلت كل جهد في سبيل إنقاذها وهي تعلم انها تعرض نفسها للحقد والانتقام

ـ قل اسم هذه المرأة ، فاني اريد ان اذهب اليها وابارکها وادافع عنها اذا تهددوها وأبذل حياتي في سبيل خدمتها .

انها تستحق اكثر من ذلك ، فهي من خير أهل الصلاح .

ـ إذن قل لي اسمها .

فأظهر ساتان تردد ثم هز رأسه وقال :

نعم انها كانت تحب هذه الفتاة وتشفق عليها وقد حزنت حزناً شديداً لموتها ولكني اؤكد لك انها غير محتاجة الى خدمتك فانها غنية قادرة محترمة فلا يجب ان تذهب اليها .

وانا أعدك ان لا اذهب اليها ولكني اريد ان اعرفها لأباركها وأذكر اسمها كل يوم في صلاتي .

فابتسم ساتان وقال :

إذن تريد ؟

— نعم اريد .

— حسناً فهي ...

— ولكن تكلم .

انها ايزابو دي بافيير ملكة فرنسا .

٩١

زوجة دوقة دي اورليان

فلم يظهر هاردي شيئاً من الاندهال لاعتقاده ان ذلك امر طبيعي انساني وان كل امرأة تجول في عروقها دماء بشرية ولو كانت من الملكات تشفق على مثل تلك الفتاة الصغيرة الحسناء .

ولذلك لم يقل شيئا ولكنه دعا في نفسه للملكة واقسم انها اذا احتاجت يوما الى دماء رجل تسفك في سبيل خدمتها يكون هو ذلك الرجل لأنها كانت خير سلوى لروزالي في ايامها الأخيرة القصيرة .

وعند ذلك حيى ساتان باشارة والتف بردائه ، وخرج دون ان يرد ساتان تحيته .

www.mlazna.com-RAYAHEEN

وذهب الى الباب فأحكم إقفاله ثم عاد فلقي امرأة كبيرة الجسم شائبة الشعر واقفة تنظر اليه فقال لها :

اذن لا بد يا جيراند من ان تقفي على الابواب وتسمعي وقد سمعت ورأيت فماذا تقولين ؟

وكانت هذه المرأة عنده وهي من اعوانه فقالت له :

ارى انك اخطأت لأنك تركت هذا الفتى ينصرف .

يظهر انك لا تعرفي قوة اعصابه ولكني سأجده ولا بأس من الانتظار فانه ستجري حوادث عظيمة تحتاج فيها الملكة الى إخلاص صادق ، وقد جعلت هذا الفتى من اصدق الأمناء ، فهو يستسهل الموت دون شك في سبيل خدمتها .

ــ لا ازال اعتقد انك اخطأت بالتخلي عنه .

فارتعد ساكان لنبوتها ولكنه هز رأسه وقال :

اية فائدة لي من الاهتمام بمصير فرنسا بل بمصير جميع الممالك ، فلأهتم بعملي اذ اني على وشك الفوز يا جيراند . اتعلمين ؟ اني سأتم عملي العظيم وهو انتصار الحياة على الموت واكتشاف الخلود .

نعم هذا هو العمل وهي الحقيقة الصحيحة وما بقي من مطامع الانسان الحب والحقد والحروب والانتقام وسلطة ايزابو وجنون شارل فهو عبث ، بل هو ألعوبة ارتاح بها من عناء الأشغال ، فتعالي يا جيراند واصعدي معي لنرى لورانس دي ابزيم والدة روزالي .

فامتثلت جيراند وصعدت معه سلماً خشبياً ينتهي الى الدور الاعلى من المنزل ..

أما الشفاليه هاردي فقد ابتعد عن المنزل الذي جاءه وهو يعلل النفس بالرجاء فيه فخرج منه بالقنوط .

وكانت العاصفة قد انتهت والامطار قد انحبست فسار هاردي وهو لا يعلم أين يسير اذا لم يكن يقصد جهة معينة .

وكان مشتت الأفكار تائهاً في ظلمات يأسه فلم ينتبه لنفسه إلا وهو في شارع ضيق كثير الأنوار بين جمهور من الناس .

وكانت هذه الأنوار تنبعث من خمارات مختلفة كانت لا تزال ابوابها مفتوحة بالرغم عن تأخر الساعة .

وكانت الاقدام مزدحمة في ذلك الشارع الضيق والناس فيه مختلفون ولكن معظمهم من الضباط والنبلاء المتنكرين .

وكانوا يتمازحون ويفرطون في المزح حتى انه كان يستحيل احياناً إلى شتم فأما يقاطعون تلك الشتائم بالضحك او تبرق السيوف فتنجلي المعركة عن جريح او جريحين .

وفيما كان هردي ينظر الى اولئك الناس دنت منه صبية وقالت له :

أتريد ان تحسن إليّ يا سيدي ؟

فابتسم هردي وقال : اني لا اريد غير ذلك فقولي ماذا تريدين ؟

قالت : لقد رأيت مخائل الشهامة بين عينيك وانا لا اسألك غير عشاء فاني منذ امس لم أذق قطعة من الخبز .

فمد هردي يده الى جيبه واخرج منها ديناراً وهاجاً فدفعه الى الصبية وهو يقول :

اسألك المعذرة فاني لا استطيع ان أتعشى معك لأني غير جائع ولكني ارجوك ان .. اقدم لك .

ولم يعرف كيف يتم جملته فأخذت الصبية الدينار منه ونظرت اليه وهي لا تكاد تصدق ما تراه .

انه دينار ذهبي !

وعند ذلك سمع صوت مرتفع يقول :

يا تونفيل ان هرمين تخونك تعال وانظر .

فأجابه تونفيل قائلاً : حسناً ، يا غليوم فساوي إليّ يا كورتيز إليّ

www.mlazna.com-RAYAHEEN

يا جبان فخرج للحال ثلاثة من احدى الحارات ودنا ذلك الذي دعوه تونفيل من الصبية فقبض على ذراعها بعنف وجرها الى الحارة .

فذعرت هرمين منه وقالت له : دعني .. ابتعد عني فاني اكرهك واحتقرك .

قال : بل تأتين معي الى الحارة .

فأجابه الشفاليه هردي قائلاً :

هذا اذا كانت تريد .

فقالت هرمين لهردي بصوت منخفض وقد اشفقت عليه .

احذر من هؤلاء الاربعة فهم من اتباع الدوق دي بورجونيا وجميع الناس يخافونهم حتى الشرطة .

اما تونفيل فقد كبر عليه ان يسمع هذا الاعتراض فقال له :

اشير عليك ان تمضي في طريقك .

قال : وأنا أشير عليك ان تترك هذه الفتاة .. كلا .. ألا تريد .. اذن ستريد بالرغم عنك .

ثم ضربه على يده التي كان يمسك فيها الفتاة ضربة شديدة .

نصاح الجميع صيحة واحدة وهجم تونفيل عليه وهو يقول :

اني أريد ان اقيس المسافة بين جلدك وقلبك بهذا السيف .

وعند ذلك جرد حسامه واقتدى به رفاقه الثلاثة وهجموا بجملتهم على هردي .

فجرد هردي حسامه الطويل الذي قلدته إياه روزالي وجعل يدافع به عن نفسه دفاع الأسود فاشتد اللغط في الشارع وارتفعت صيحات النساء .

وكان هؤلاء الأربعة مدرعين وقد لبسوا الخوذ في رؤوسهم فأيقن هردي انهم سيقتلونه دون ان يجرح احداً منهم في صدره فنظر نظرة سريعة الى ما حوله وجعل يتراجع إلى الوراء وهم يتبعونه ويعجبون كيف انهم لم يستطيعوا قتله الى الآن .

وما زال هردي يتراجع حتى وصل الى المكان الذي رآه وهو خمارة لها سلم يبلغ ارتفاعه اربع درجات فصعد تلك الدرجات الاربع وهناك ابتسم ابتسام المنتصر وطعن أول من صعد تلك الدرجات في اثره فأصاب تونفيل بوجهه فقال :

هذا الأول:

ثم طعن الثاني وقال : هذا الثاني وهكذا الى ان أصاب الاربعة ، وبعد ذلك وثب الى الخمارة فتبعه الأربعة ولحق بهم خمسة عشر رجلاً من اعوانهم وهجموا عليه في الخمارة .

فانزوى هردي في احدى زواياها وقد هجم عليه الجميع بعضهم بالسيوف وبعضهم بالكراسي .

وعند ذلك صاح صوت بين تلك الجموع قائلاً :

اخفضوا السلاح .

وكان صاحب هذا الصوت رجلاً متنكراً يحيط به خمسة رجال كسائر الذين يتنكرون ويأتون الى هذه المواضع .

فلما رأى انهم لم يمتثلوا لقوله دنا منهم وقال لهم :

لقد قلت لكم اخفضوا السلاح .

وكان يقول ذلك بلهجة تدل على انه من اهل السيادة الكبرى فلم يسع المهاجمون الا الامتثال وكفوا عن القتال فجعلوا ينظرون الى هذا السيد كي يعلموا ما يريد ثم يعودوا الى الهجوم .

وأما الرجل فانه التفت إلى هردي وقال له :

لقد رأيت كل مـــا حدث وعلمت انك من الشجعان الأشداء ولذلك اسرعت الى انقاذك مما انت فيه ولا انسى تلك الضربات الاربع التي أصبت بها وجوه خصومك الاربعة .

فأن الاربعة أنيناً واحداً فقال لهم الرجل :

اسكتوا . ثم التفت إلى هردي فقال :

www.mlazna.com-RAYAHEEN

انك من خير الشجعان واذا كنت تطلب ثروة فقد فتحت لك ابوابها وما عليك الا تأتي غداً إليّ .

فوضع هردي رأس حسامه على الأرض وقال : مولاي .

فقال له الرجل : لماذا تدعونني بهذا اللقب ؟

— ان كلامك وفعلك يدلان على انك من اهل السيادة والمقام العالي فأشكرك خالص الشكر لتدانيك الى الاهتمام بي .

ولكني تقيدت كثيراً في اعوامي الأخيرة حتى بت محتاجاً إلى ان أكون لنفسي ولذلك يسوؤني يا مولاي ان ارفض ما تفضلت به عليّ وكلما استطيع قوله ، هو اني لا انسى ما حييت بأني مدين لك بالحياة .

فجعل كل من الأربعة يقول كلمة تدل على انه لا يريد ان يكون مغلوباً وقال تونفيل وقد نظر شذراً إلى السيد المتنكر .

بقي علينا أن نعلم ، بأي حق امرنا هذا السيد ان نخفض السلاح ونكف عن القتال ؟

فانتهره الرجل قائلاً : اسكت .

وفي الوقت نفسه نزع القناع مسرعاً عن وجهه فانحنى الجميع بملء الاحترام وقالوا جميعهم بصوت واحد .

اخو الملك . الدوق دي اورليان !

وعند ذلك اعاد الدوق القناع على وجهه كي لا يراه بقية الحاضرين والتفت إلى هردي فقال :

هل عرفتني ؟

— لقد سمعت هؤلاء الأسياد يذكرون اسمك ولكني اؤكد لفخامتك انه اذا أحدق بك خطر من الاخطار اعرفك سواء كنت متنكراً او من غير قناع .

— حسناً فانضم إلى رجالي واخفرني الى خارج الجزيرة .

ثم التفت إلى الذين كانوا يهاجمونه وقال :

وأما انتم فاحذروا .

وعند ذلك خرج من الخمارة يتبعه حراسه وهردي .

أما رجال الدوق دي بورجونيا الأربعة ، فانهم خرجوا من باب آخر وتواروا عن الانظار .

واما هردي فانه حين بات خارج الخمارة شعر بيد لطيفة تلمسه فالتفت فرأى تلك الفتاة التي حدثت المعركة من اجلها .

وقد شكرته وقالت له : اني أردت ان اخبرك يا سيدي باسمي فاني ادعى هرمين فالتسين .

فأجابها قائلا :

لا تفتكري بعـــد بهؤلاء الأسياد الذين لا يحق لهم ان يتشرفوا بتقلد الحسام وانت جميلة وارى من عينيـك انك طاهرة القلب فاهجري هـذا الشارع وهذا نصحي اليك .

وكان يريد ان يقول : « ارجعي عن هذه المهنة الشقية » ولكنه خشي ان يسيء اليها بهذا التصريح .

فأطرقت الفتاة برأسها وجعلت تنظر الى الوحول كأنها تريد ان تقول : « لقد كانت هذه الوحول مهدي وستكون قبري » ثم قالت له :

استودعك الله ايها الجميل الباسل وليشملك برعايته .

وقد تركته وسارت مسرعة تحمل بيدها ذلك الدينار الذي اعطاها إياه ولكنها بدلاً من ان تعود الى الخمـــارة ذهبت تواً الى غرفتهـا الكائنة في ذلك الشارع .

www.mlazna.com-RAYAHEEN

٢٠

الفتيان الثلاثة

أما هاردي فانه تولى خفارة الدوق دي أورليان الى قصره وقد أبى ما عرضه الدوق عليه من إدخاله في خـــدمته ، وهو منصب يسعى اليه الكثيرون من أمثال الشفاليه، وأية خدمة أشرف في ذلك العهـد من خدمة شقيق الملك .

وقد تركه وانصرف عائداً الى فندق يدعونه « فندق الخنزيرة المشنوقة » كائن في شارع سانت مارتين ، تجـاه منزل هاردي ، وهو لصاحبـه ليتبود الشهير .

وسنبسط للقارىء في غير هذا المقام ، تاريخ هذا الفندق وصاحبه الذي ورد ذكره في كثير من الكتب ونذكر ما جرى لهاردي .

فانه حين خلا بغرفته في ذلك الفندق جعل يحسب ثروته وهي تلك الدنانير التي وجدها في جيبه حين خرج من قصر أوديت وبعـد ان عرف مقدارها جعل يقول في نفسه :

اني في حاجة الى الرياضة وتمرين عضلاتي على الحركة ودماغي على التفكير وعيني على النور .

وعلى الجملة فاني محتاج الى العودة الى الحياة، وما زالت روزالي قد ماتت فلا شيء يضطرني الى الاقامة في باريس.

وعلى ذلك فاني سأذهب الى الخلاء واعيش في الريف عيش رجل غني ، حر ، نبيل .

وعند ذلك قسم ثروته الى ثلاثة أقسام كما يأتي :

القسم الاصغر لاصلاح ملابسه الممزقة .

والقسم الاوسط لشراء جواد قوى .

والقسم الاكبر لنفقاته .

وبعد ان حسب نفقات جواده ونفقاته رأى انه يستطيع الانفاق ستين يوماً بحيث لا يعود الى باريس إلا بعد شهرين .

وفي صباح اليوم التالي بدأ بتنفيذ هذه الخطة وامتطى جواده فبرح باريس بعد الظهر .

ولكنه اخطأ في حسابه فانه لم يمر به عشرون يوماً حتى وجد ان كيسه قد بدأ يفرغ فاسرع الى العودة وكانت مدة غيابه عن باريس شهراً .

فعاد الى باريس في اليوم الثامن عشر من شهر يناير سنة ١٤٠٧ وانما ذكرنا تاريخ عودته في ذلك اليوم لأنه كان يوماً عظيماً جرى فيه كثير من الأمور التي سجلها التاريخ .

وقد اعدت تلك الحوادث في غياب هاردي فانه في اليوم التالي لخصامه مع رجال الدوق دي بورجونيا ، ذهب أولئك الأربعة الى الدوق فاستقبلهم لفوره اذ كانوا من اخص اعوانه الامناء في خدمته .

ولكنه حين رأى تأثير سيف هاردي في وجوههم قطب حاجبيه فحرق الاربعة اسنانهم من الحقد وقصوا عليه ما جرى لهم .

فلما علم الدوق ما صنعه الدوق دي أورليان اصفر وجهه لما بينهما من الضغائن واتقدت عيناه ببارق من الحقد وقال :

ان ذلك لا يحتمل فاني لا اطيق هذه الاهانة الجديدة .

فقال تونفيل . دون شك ، يا مولاي ، فانه كان يعرف حق المعرفان اننا من رجالك .

وقال أحدهم مثل قوله ايضاً بغية إثارة حقد الدوق .

فقال جان ، وقد بلغ منه الغيظ كل مبلغ : اسكتوا وكفى فان بين أورليان وبورجونيا ستنشب حرب هائلة ، لا بد لأحدنا فيها ان يسحق الآخر سحقاً .

www.mlazna.com-RAYAHEEN

وقـد نهض ، وهو يرتجف من الغيظ ، الى باب يشرف على قاعة صغيرة ونادى :

برايسكايل .. براكايل .. برانكايل .

ولم يكد يتم نداءه حتى دخل أولئك الثلاثة الذي ناداهم الواحد تلو الآخر فكان برايسكايل رقيق الجسم ، نحيف البنيـة ، وبراكايل من المتوسطين ، وبرانكايل طويل القامة ، ضخم الجسم .

وكان الثلاثة ملتفين بوشاحهم وهم متقلدين تحتها سيوفاً طويلة .

وسبب وجـودهم في قصر الدوق ان جان رآهم يوماً في معترك فأعجبوه وادخلهم في خدمته ، فكان يستخدمهم في الشؤون الخطيرة ، وقد خدموه خدمات كثيرة .

فدخل الثلاثة ووقفوا امام الدوق وايديهم على قبضات سيوفهم ينتظرون أوامره وكل منهم يبتسم لرفيقه فرحاً بأنه سيضيف آثاراً على آثاره .

فلبث الدوق هنيهة يتأمل وجوه أولئك الفتيان وقد ظهرت عليه علائم الرضى فقال ؟

انكم ، والحق يقال ، ثلاثة من الأحياء .

وانما وصفهم هذا الوصف على سبيل الاستعارة بمعنى انهم اشداء ، اقوياء لا يخافون مواقف الاخطار .

غير ان الثلاثة لم يوشكوا ان يسمعوا ما قاله الدوق حتى اصفرت وجوههم ووثبوا من مواقفهم فنظروا الى ما حـواليهم نظرت مضطربة ، ثم جردوا سيوفهم وقال برايسكايل :

أنحن الأحياء الثلاثة ان ذلك زور .

وقال براكايل : من انبأك اننا الأحياء الثلاثة .. ذلك كذب وبهتان .

وقال برانكايل : الويل لمن يجسر ان يمد يده الى الثلاثة الأحياء

فبهت الدوق ورجاله مما رأوه ، وكان الثلاثة قد وقفوا في آخر القاعة موقف المتأهب للدفاع .

فانتهرهم الدوق قائلا :

ويحكم ماذا اصابكم ؟

فارتعش الثلاثة ، وعاد اليهم صوابهم حين سمعوا صوت الدوق فبدأ برايسكايل باغماد حسامه واقتدى به رفيقاه فقال لهم الدوق :

اكشفوا لي سر ما فعلتموه .

فقال برانكايل : معاذ الله ان افعل .

وقال براكايل : اني أؤثر الف موت .

وقال براسكايل : تفضل ، يا سيدي الدوق بمعذرتنا فقد بلغنا في خدمتك ما لم يبلغه غيرنا من حسن الجزاء فنحن آمنون ، سائدون ، اغنياء ولكننا نؤثر الخوف والبرد والجوع والذل على ان ..

ـ على ان .. ماذا ؟.. تكلم .

ـ على ان نسمعكم تقولون اننا الأحياء الثلاثة .

فقال رفيقاه : نعم ، نعم ، فذلك زور .

فقال لهم تونفيل : إذن ماذا ألعلكم من الاموات ؟

فقال الدوق : كفى ، فقد اصبتم بعارض جنون لا احب ان اعود الى البحث فيه ، ولكن اصغوا اليّ فاني منتدبكم هذه المرة الى مهمة صعبة وهي انه يجب ان تظفروا برجل لا أعرف إسمه ولا أين يقيم ، وهذا الرجل قد اهانني إهانة لا يغفرها غير الموت فاذا جئتموني به حياً أو ميتاً كافأت كلا منكم بمائة دينار ، اذ يجب ان يعلم الناس ان شعار بورجونيا يجب ان يحترم اكثر مما يحترم شعار فرنسا، فاذكر لهم يا تونفيل ما تعلمه من أوصاف هذا اللص .

فامتثل ومثل لهم صورة هاردي فانفدت عينا برايسكايل وقال : كفى فسنظفر به قبل يومين .

فقال الدوق : حسناً ، فاذهبوا لمطاردته ، ولكن اصبروا فقد فاتني ان اخبركم أين تجدوه .

www.mlazna.com-RAYAHEEN

فقال أحدهم : أين نجده ، يا مولاي ؟

ـ في الجزيرة فاذهبوا الآن .

فخرج الثلاثة حتى اذا باتوا خارج الغرفة وقفوا وجعل كل منهم ينظر الى رفيقيه نظرات ملؤها الرعب فقال براكايل بصوت يضطرب : أنذهب الى الجزيرة ؟

وقال برانكايل : وهو يرتجف من الرعب :

أنعود الى ساتان ؟

فقال لهما برايسكايل : لنخرج الآن من القصر وسنرى .

وخرج الفتيان الثلاثة حتى اذا برحوا القصر ساروا بالفطرة في طريق يخالف لطريق الجزيرة ودخلوا الى خمارة فجعلوا يشربون ويتشاورون فقال براكايل :

ارى انه خير لنا ان نبرح باريس ، بل نهرب من فرنسا .

فقال برايسكايل : اننا سنقيم هنا يومين او ثلاثة وفي خلال ذلك اكون قد توفقت إلى استنباط حيلة نوهم بها الدوق إنا قتلنا هذا الرجل الذي يبحث عنه فننال المكافأة ونبقى في مناصبنا، أما الجزيرة فاني اؤثر قطع يدي على الدخول اليها .

وقال براكايل : وأنا أؤثر قطع رجلي .

وقال برانكايل : وأنا اؤثر قطع رأسي على ان يستقطر ذلك الساحر دمي كما يستقطرون الشراب .

وقد عرف القراء ان هؤلاء الثلاثة كانوا نفس اولئك الفتيان انفسهم الذين كان ساتان قد قبض عليهم منذ اثني عشر عاماً لاستخراج دمائهم فأنقذهم هاردي وهم مكلفون الآن بقتل من أنقذهم .

وقد أثر بهم سجنهم عند ساتان تأثيراً عظيماً فكانوا من أبسل الشجعان ولكنهم كانوا اذا سمعوا كلمة الأحياء الثلاثة ترتعد فرائصهم من الرعب لأن ساتان كان يدعوهم بهذا اللقب .

٢١

انذار الصاعقـــة

بعد ان خرج الفتيان الثلاثة لمطاردة هاردي جعل الدوق دي بورجونيا يسير في تلك الغرفة بأقدام مضطربة وهو ينظر من حين الى آخر الى رجاله الأربعة الذين ترك هاردي على وجوههم أثراً يشبه أثر السياط .

وعند ذلك ضرب الأرض برجليه مغضباً وقال :

إذهب يا تونفيل لقيـادة فرقة الرماحة واحتـل بها الشوارع المؤدية الى القصر .. إذهب .. ماذا تنتظر ؟

وقد كان ذلك بمثابة اعلان الحرب بينـه وبين الدوق دي اورليان شقيق الملك الذي كان يتولى الاحكام لجنـود الملك ، فلم يكن يحق لسواه ان يقيم الجنود المسلحة في الشوارع .

اما تونفيل فانه خرج راكضاً وعند ذلك أزيح ستار يشرف على القاعة وبرز منه رأس امرأة تصغي وترى .

فقال الدوق : وأنت يا ساك كم يبلغ عدد الفرسان عندنا ؟

ـ خمسمائة يا مولاي .

ـ سر اليهم وقل لهم ان يمتطوا جيادهم ويقفوا موقف المتأهب للحرب فخرج ساك واصفر وجه المرأة .

فقال الدوق : وأنت يا كورتان كم يبلغ عدد رجالنا في ميلين ؟

قال : ثلاثة آلاف .

قال : اركب جوادك واسرع بالمجيء بهم .

فامتثل ومشى ، وخرجت المرأة من وراء الستار ومشت خطوتـين الى القاعة ..

www.mlazna.com-RAYAHEEN

فقال الدوق : وأنت يا كين كم يبلغ عدد رجالنا في فوفتنبلو ؟

ـ ثلاثة آلاف يا مولاي .

ـ إسرع وعد بهم في الحال .

فذهب كين ، وحاولت المرأة ان تتقدم الى الدوق ولكن باب القاعة فتح عند ذلك وصاح الحاجب قائلا :

رسول الملك .

فقال الدوق : ليدخل كي نرى ما يريد المجنون .

وقد ارتدت المرأة الى موقفها الأول وراء الستار ودخل رسول شارل السادس يتقدمه خادمان واربعة من حراس قصر سانت بول فانحنى امام الدوق بملء الاحترام ووقف ينظر الإذن له بالكلام .

فقال له الدوق : اني مصغ .

قال : لقد ارسلني مولاي الملك لأخبركم بانه سيعقد جلسة كبرى في قاعة جلالته يحضرها الأمراء وولي العهد .

وستعقد هذه الجلسة في الساعة التاسعة من صباح غد ، فارسلني جلالته لأخباركم فتأهبوا لحضور هذه الجلسة .

ـ ما هو موضوع هذه الجلسة ؟

ـ انهم سيتناقشون بشأن تخفيف الضرائب وإبدال بذخ سيدات البلاط فانهن اصبحن قدوة للشعب .

والآن فاني التمس من مولاي ان يأذن لي بالانصراف لأخبار الدوق دي بيري بما أخبرته .

وبعد انصراف الرسول عاد الدوق الى السير في قاعته وهو تارة يضحك متهكماً على الملك وجلسته ، وتارة يغضب ويتوعد الدوق دي أورليان .

وعند ذلك دخلت تلك المرأة التي كانت تراقبه ولمست كتفه فالتفت فرأى إمرأته مرغريت .

وكانت قد خط الشيب شعرها قبل الأوان وتبينت ملامح الحزن في

عينيها فانها لم تستطع في كل ذلك العهد ان تستميل زوجها الدوق وتكون شريكته كما تشارك الزوجة زوجها في قلبه وعقله .

ومع ذلك فانها كانت شديدة الرأفة به ، لا تستطيع ان تتخلى عنه في موقف الخطر فتسرع الى المداخلة في أمره بغية إنقاذه .

فلما رآها الدوق ارتعش وقال :

أهذا انت .. إذن لقد سمعت كل ما جرى فان الملك يريد تخفيف الضرائب والنظر في شقاء الشعب وهذا الذي تريدينه انت ايضاً فيما اظن .

فلم تكترث لتهكمه وقالت له :

أعولت على الذهاب الى هذه الجلسة ؟ وكيف تذهب ؟

ـ نعم ، اني اذهب ، ولكني اذهب في طليعة خمسمائة فارس وستة آلاف محارب ، وسيرون من الذي يخاف ، بل سيرون سيد باريس الدوق دي بورجوفيا أو الدوق دي أورليان .

نعم ، فاعلمي ان ، جان الذي لا يخاف ، سيبيت بعد غد في قصر سانت بول .

ـ اني اعلم يقيناً بان الحرب لا بد من نشوبها بينك وبين الدوق دي أورليان .

ولكني كنت ارجو ان اتمكن من إبعاد هذا الشقاء عن الملك وعن باريس والباريسيين ، أما وقد سمعت تلك الأوامر التي اصدرتها ، فلم يبق لي رجاء بغير الله ، ولم يكن لي بد من الذهاب .

ـ نعم ، فاذهبي وصلي من اجل صديقتك فالنتين ، زوجه عدوي الدوق دي أورليان .

ـ بل اني ذاهبة لأصلي من اجلك كي يصون الله حياتك ، بل اصلي الى الله ان يلهمك السداد فلا تأتي منكراً ولا تفعل ما يسود له وجهك في صفحات التاريخ .

ثم تركته وانصرفت فجعل يقول :

www.mlazna.com-RAYAHEEN

التاريخ .. وما هـذا التاريخ الذي يرويه أولئك المؤلفون كما يريدون ولست ابالي بما يقـال عني بعد الموت فاني اريد الحياة كما اشتهيها ، أي اني اريد السلطة وهي لمن يعرف ان ينالها وانما العاجز من لا يستبد .

نعم ، اني اريد ان اكون ملكاً وكدت انال هـذه الأمنية بفضل ايزابو لولا ما اظهرته من الضعف، ولو لم يخبر أحد الوشاة مرغريت بما كنت ناويا عليه وحبذا لو عرفت هذا الواشي فاني انتزع قلبه من صدره.

ولكن كيف اتفق حدوث هذا الأمر الغريب فاني برحت باريس لتنفيذ أوامر ايزابو ، ولم يسمع أحد ما دار بيني وبين الملكة في ذلك العهد ، فلما وصلت الى ديجـون وجـدت ذلك الواشي قد تقدمني ورأيت إمرأتي تؤنبني وقد عرفت اني اريد قتلها وقتل أبي .. فكيف عرفت ذلك ؟

لا بد ان يكون لي عدو قادر خفي يعلم بكل أمري ولا شك انه عدو هائل يريد القضاء عليّ في آخر ساعة .

وقـد عاد الى المسير في تلك القاعة ، وهو لا ينفك عن التفكير بتلك الحادثة فيقول :

نعم انه لو لم تعلم مرغريت بقصدي لكنت ملكاً منذ اثني عشر عاماً ، بل كنت امبراطوراً ، بل كنت اعظم رجل في الأرض .

فكانت لي الجيـوش الكثيفة احشدهـا من الملايين من رعاياي وجعلت عاصمتي في باريس أو في ديجون ، وحملت على إيطاليا وإسبانيا فكنت رب الأرض ولكن ايزابو فتحت لي باب هذا المستقبل العظيم فأقفلته يدي .

ثم وقف فوضع يده على جبينه وقال :

ويح لي من هذا العدو الذي اكتسبته فان ايزابو تكرهني الآن كرهاً هائلاً لا يذهب إلا بالموت كما ارى من ابتسامها .

فهي لو تمكنت مني لمزقت جلدي وشوتني على النـار ، وكل ذلك لاني ضعفت دقيقة واحدة وما عملت برأيها الصائب .

ولكن ماذا اقول فانها قد احبتني وهي تحبني ايضاً وتفطي-قدها بالحب

فاذا انطرحت على قدميها وعرفت ان اتظاهر بالحب الصادق تعود اليّ دون شك لأنها لا غنى لها عني ولا تنال امانيها إلا بي .

وبعد فانها لا تزال اجمل إمرأة رأيتها عيني فلماذا لا احبها واكون صادقاً في هذا الحب ؟

نعم ، لماذا لا احبها وهي تمهد لي عرشاً املك به العالم ألست اشد جنوناً من الملك ؟

ولكني لا احبها لاني احب سواها حباً يكاد يضيع رشدي .

نعم ، اني احب تلك الفتاة التي يلقبونها بملاك القصر .

وأي حب هو فاني اضحي في سبيلها تاج دوقيتي وذلك العرش العظيم الذي اطمع به .. أوديت .. اني لا اطمع بهذا التاج العظيم إلا لأضعه على رأسها الجميل .

أوديت .. لما لا تكونين هنا ؟ أفترين جان الذي لا يخاف يبكي من هواك بكاء الاطفال .

وقد جلس على كرسيه وحمل رأسه بين يديه وجعل يبكي حقيقة وقلبه يخفق خفوقاً لم يشعر بمثله من قبل .

ولا شك ان فم القدر الهائل الخفي ، كان يبتسم في تلك الساعة ابتسام تهكم لهذه العاطفة الوحشية فان جان الذي لا يخاف انما كان يبكي غرامه بأوديت شامديفر ، أي بروزالي ، أي ابنته .

وقد اقام هنيهة وهو على هذه الحالة ، ثم نهض وعيناه محمرتان فقال :

نعم ، ان هذه الفتاة ستكون لي لأني اريد ان تكون لي فاني حين اغدو ملكاً تصبح الارض ومن عليها ملكاً لي وإلا فما معنى ذلك ؟

نعم ، انها ستكون لي ، ولا ابالي عند ذلك بايزابو فاني استطيع إقناعها وان اجعلها آلة لتنفيذ إرادتي وتأييد سلطتي ، واسحقها حين تنتهي فائدتي منها .

نعم ، ولكني لا استطيع ان اقنع ايزابو بأني احبها إلا متى عرفت

قوتي حتى العرفان وهي القوة التي تزيد سلطتها ولا استطيع إظهار هذه القوة إلا متى القيت الرعب في قصر سانت بول ، وفي باريس ، وانتصرت على عدوي الألد الذي يزعم ان زمام المملكة قد باتت في يده وهو ، لويس دي أورليان .

أيها الخدم اليّ بعدتي وسلاحي .

ولم تكن غير لحظة حتى اسرع الخدم اليه بالاسلحة المختلفة فجعلوا يقلدونه السلاح والدرع ، وكل ما يوقي جسمه من سلاح الاعداء ، وهو يقول في نفسه :

انه يريد تخفيف مصائب الشعب .. نعم فلأخفف مصائبه .

وعند ذلك برقت عيناه بخاطر فجائي ارتعش له فقال في نفسه :

ترى من أين جاءني هذا الخاطر ؟ أمن السماء أمّ من جهنم ؟ ولكن اهلا به كيف ما أتى فان الغرض نيل السيادة على باريس وما زالوا يتحدثون بمصائب الشعب فلماذا لا اكون أنا أول من يخاطب الشعب بهذا الشعب .. ولماذا لا اثير ثائرهم وامتلك قلوبهم واخعلهم من اعواني فيكونون لي بدلا من ان يكونوا عليّ .

ولماذا لا اكون ملك باريس قبل ان املك فرنسا .

وبعد ان تصفح بالفولاذ امتطى جواده وخرج من قصره فلقي خمسمائة فارس من رجاله ينتظرونه ، فدنا منهم ، وقد شخصت اليه ابصارهم ، فقال لهم :

أننا سنطوف بجيادنا باريس فنظهر للباريسيين ان لهم اصدقاء يدافعون عنهم .

فذهل الجميع لما سمعوه منه اذ لم يتعودوا ان يروا منه مثل هذا العطف على الباريسيين .

ومضى الدوق في حديثه فقال :

ان شقاء الشعب قد استفحل وقد وجب علينا ان نضع حداً لهذا الشقاء .

www.mlazna.com-RAYAHEEN

فزاد الدهش ، وكثر الهمس ، وفهم بعضهم غاية الدوق فصاحوا برفاقهم قائلين :

اسكتوا واصغوا لكلام مولانا الدوق .

انكم تعلمون من اين أتى هذا الشقاء فان خزينة الحكومة نضب المال منها وعجزت عن إيفاء مطالب الدوق دي اورليان .

ففهم الجميع عند ذلك مقاصد الدوق واهتزوا كما تهز الرياح اوراق الخريف وتوقعوا نشوب الحرب الهائلة في الشوارع والأسواق .

فأسكتهم الدوق باشارة وعاد الى حديثه فقال :

ليس هذا كل الذي أريد قوله فان اورليان لم يقتصر على ان يكون السيد المطلق الوقح في باريس وعلى زيادة الضرائب في كل يوم بل انه اهان بورجونيا إهانة لا يغتفرها غير الموت .

وذلك ان رجلاً اعتدى على اربعة من رجالي ، اي من رجالكم ، فأنقذه منهم وأهان شعارنا .

ايها البورجانيون ان هذا الشعار سيبقى مدنساً إذ لم ننتقم له .

وعند ذلك ثار ثائر الفرسان وعلت صيحاتهم فكانت تشبه البراكين المنفجرة وكثرت شتائمهم فجعلوا يصيحون :

القتال القتال .. الانتقام الانتقام ..

فلما ادرك الدوق مراده من تحمسهم مشى امامهم فتبعه اولئك الفرسان وجعلوا يسيرون في شوارع باريس .

وهكذا كان بدء تلك الحرب الهائلة التي يدعونها حرب البورجونيين ، ولم يخطر لأحد من المؤرخين في ذلك العهد انه اذا لم يكن هاردي دي باسافان سببها فقد كان أحد اسبابها .

٢٢

ابنة جان الذي لا يخاف

كان شارع سانت مارتين ، وشارع سانت دانيس ، خاصين بسكنى التجار والفريق الواطي من الشعب فأمر الدوق ان يسير هذا الموكب اليهما في البدء .

فلما وصل الموكب الى شارع سانت مرتين نزع الدوق خوذته كي يتبين وجهه الناس .

ومشى بعيداً عن فرسانه نحو عشرين خطوة كي يظهر ثقته بالباريسيين فكان يناديهم ويقول :

ايها الباريسيون : لقد استفحل شقاؤكم ويجب إيجاد دواء لهذا الداء

وكان الناس حين رأوا فرسان الدوق دي بورجونيا وعلى ايديهم إشارة الصليب الأحمر ذعروا ذعراً شديداً فاقفلوا الأبواب والمنازل وهرب المارون وصاحت النساء معولة ، وأيقن البعض ان الدوق دي بورجونيا هجم على باريس وهو يريد أخذها عنوة .

ثم فتحت بعض النوافذ وسمع بعض الناس ما كان يقوله الدوق ورأوا فرسانه يشيرون إشارات ودية ، فخرج بعض الأهالي مذعرين وسألوا الدرق قائلين :

ـ إذن انتم منا يا مولاي ؟

ـ دون شك ، فكفى هذا الذهب الذي يسيل سيل الماء وهذه الحجارة الكريمة تعلق على ملابس النساء ، وكفى هذا الشعب المسكين ضرائب قد أكلت لحمه وامتصت ما في عروقه من الدماء .

www.mlazna.com-RAYAHEEN

فكان النـاس يسمعون هذه الاقوال منذهلين ، ثم جعلوا يزدحمـو من حول الدوق حتى كثر عديدهم والتحموا بالفرسان وجعـلوا يصيحون قائلين :

لقد انتهى شقاء الشعب .. ليحيى دوق بورجونيا .

فلما عاد الدوق الى قصره كان شعب باريس يحمله من انصاره بفضـل هذا الخاطر الذي خطر له .

* * *

وهنا لا بد لنا ان نقول كلمة عن زعماء الحروب في ذلك العهد ليصح بها انتساق الرواية وانما نبسطها بملء الايجاز كي لا يمل القارىء فنقول :

ان الشقاء كان عظيمـاً في عهد جنون شارل السادس لاستفحال شأن الضرائب ، وكان ثلاثة يطمعون بنيـــل تاج الملك وهم : شقيقه لويس دي اورليان ، ودوق بورجونيا ، والدوق دي بيري .

اما دوق دي بورجونيا فكان مكروهاً من الشعب لكبريائه ولشدته .

ولم يكن شقيق الملك مكروهاً ولا محتقراً ولكنهم كانوا يأخذون عليه إسرافه في اموال الامة ومبالغته في وضع الضرائب إلتماساً للمال .

واما الدوق دي بيري فانه تظاهر بالحياد حين تولى الدوق دي اورليان النيابة عن الملك بادارة الاحكام ، ولكنه كان يعمـــل على نيل مأربه وتحقيق امانيه .

وكان كل من هؤلاء الزعماء يكره خصمه ويريد له الموت في حين انهـــم كانوا ملتحمين بأشد لحمة من النسب .

فان لويس دي اورليان كان اخا الملك ، والدوق دي بورجونيا كان ابن عمه ، والدوق دي بيري كان عمه .

ولكن قدر لأسرة قالوا ان يسفك اهلها الدمـاء الى ان انتهت اسرتهم بمذبحة برتلماوس كما بسطناه جلياً في رواية برداليان .

والآن لنعد الى قصتنا فنقول ان الدوق دي بورجونيـــا قد فاز فوزا باهراً في ذلك اليوم ، فان أهل باريس ارسلوا اليـه وفد يمثلهـم ويؤكد له ان الشعب بحملته مستعد لتعضيده ..

وفي اليوم التالي طاف في باريس طوافاً آخر ولكنه لم يكن مسلحاً كما كان بالأمس بل خرج دون سلاح اظهاراً لحسن ثقتـــه بالباريسيين فكثر الهتاف من حوله ولم يبق لديه ريب في الانتصار وقد بات الشعب من انصاره

وفي الساعة الثالثة بعد ذلك اليوم ، وصـــل الستة الآف فارس الذين استقدمهم الدوق ، فأحسن الشعب استقبالهم وانزلوهم في منازلهم وتسابقوا الى اكرامهم والاحتفاء بهم .

وعلى ذلك فقد كان الباريسيون فرحـــين آمنين مستبشرين بالفرح العاجل ..

وفي مساء هذا اليوم انتشرت إشاعة بين الشعب وصلت الى الدوق وذعر لها وهي ان الملكة قد هربت ولجـأت الى قصر بوتيه على شاطيء المارن وانها تحاول ان تذهب من هناك الى حدود المانيا .

فقوض هذا الخبر خطة الدوق إذ كان جل اعتماده عليها في تحقيق آماله .

إذ كان يريد ان يظهر لها قوته لسيادتة على باريس ثم يظهر لها غرامه ثم يشترك معها على إنفاذ مشروعها القديم ..

أما وقد هربت الملكة وذهب مساعده الأكبر فلم يبق له إلا ان يكون رئيس حزب بل رئيس عصاة قد يفوزون وقد يحبطون .

اما الدوق دي اورليان فقد دهش لجرأة خصمه دوق بورجونيا وظهوره للشعب واستمالته الباريسيين بهذه السرعة .

فارتأى ان يقاومه بمثـل حيلته وأمر لفوره ان تقفـل ابواب قصر سانت بول ، وحصن ذلك القصر أشد تحصين بحيث وثق ان جـان يعجز عن افتتاحه .

ثم ارسل مندوباً الى جميع الذين ارسلت اليهم الدعوة لحضـــور الجلسة

www.mlazna.com-RAYAHEEN

الكبرى يخبرهم ان الجلسة قد تأجل انعقادها الى شهر وان ابواب القصر تبقى مقفلة هذا الشهر

وبعد ذلك ضرب جان الضربة الكبرى وهي انه أرسل المنادين في الشوارع يخبرون الناس بان الملك أمر بمنع جميع الضرائب الجديدة رحمة بالشعب ..

فكان لهذا الأمر وقع حسن بين الناس لا سيما حين مر اسبوع على البائعين لم يروا في خلاله وجوه الجباة .

وقد اصيب الدوق دي بورجونيا بضربتين احداهما انه كان ينوي الدخول الى قصر سانت بول فرأى بعد حصاره انه ممتنع عليه .

والثانية انه كان يعتمد على الشعب ولكنه رأى ان الناس قد ارتاحوا لأمر الملك حين رأوا انهم لا يدفعون تلك الضرائب الباهظة جعلوا يتململون من جنود الدوق وثقل ضيافتهم وشدة وطأتهم عليهم ويتهمونهم بالسكر والعربدة والمنكرات بحيث بات الدوق مضطراً الى إخراج جنوده من منازلهم وإقامتهم في معسكر في ضواحي باريس وكل ذلك بحيلة الدوق اورليان .

وبعد شهر ، أي في اليوم المعين للجلسة الكبرى ، أدخل دوق بورجونيا جنوده في الليل الى باريس واقامهم في الشوارع المحدقة بقصر سانت بول ، وفي ساعة انعقاد الجلسة أقبل الى القصر لا يخفره غير القليل من جنوده فدخل الناس ورأى جنود الملك واقفين في البرجين عند مدخل باب القصر فصاح بقائدهم قائلاً :

لقد احسنت بهذا الاحتياط فان نيات الباريسيين غير سليمة وفوق ذلك فاني سأعينك على حراسة الباب لتحمي الملك

وقبل ان يتمكن القائد من الاحتياط للدفاع لانخداعه بأقوال جان كان الفرسان قد دخلوا الى القصر واحتلوا قسماً من ساحته الكبرى ووقفوا ووجوههم الى باريس كأنهم يريدون مقاومة الباريسيين وقالوا للقائد :

لقد أمرنا مولانا الدوق ان نكون تحت قيادتك فمر بما تشاء .

غير ان ذلك القائد المنكود أيقن انهم خدعوه فيئس يأساً شديداً لضياع شرفه ودخل الى البرج .

وبعد هنيهة سمعوا صيحته ودخلوا اليه فوجدوه قد انتحر .

* * *

وكان عقد الجلسة قد انتظم وجلس الملك في عرشه ، وأخذ الخطبـــاء يظهرون شقاء الشعب دون ان يصغي اليهم لشدة اضطراب الحضور .

وكان أشدهم اضطراباً الدوق اورليان فانه سمع اللغـط والضجيج من الخارج فأراد ان يخرج من القاعة ليتبين الخبر ولكن احدالحراس منعه وكان من حراس جان

وبعد هنيهة دخل تونفيل الى القاعة وهمس في اذن جان قائلاً :

ان رجالنا قد احتلوا جميع المراكز وان حامية القصر قد سلمت لانخداعها دون ان تهرق نقطة دم .

فأشرق وجه جان بنور البشر ، ثم تبينت في عينيه صحة العزيمة فمشى الى الملك وعيناه تتوقدان ورفع يده .

وعند ذلك فتح باب وراء عرش الملك ودخلت منه فتاة حسناء وكانت هذه الفتاة اوديت دي شامديفر .

* * *

قبل ان تبدأ الجلسة بمدة قليلة كانت اوديت جالسة في غرفتها الخاصـــة فرأت فجـأة ان رجلاً قد دخل اليهـا فذعرت لمنظره وابتسامه وتوقد عينيـه ..

www.mlazna.com-RAYAHEEN

وكان الرجل ساتان وهـو الذي اعطى الملكة ذلك الشراب الذي يزيد جنون الملك .

أما اوديت فقد ارتعشت لرؤياه وقالت له :

من أنت ؟

ـ محب الملك بل عدو عدوه .

فدنت اوديت من مائدة كان عليها جرس وقالت له :

ماذا تريد ؟

ـ دعي الجرس يا سيدتي ولا تنادي احـداً ، فاني ما اتيت إلا لإنقـاذ الملك ، بل اتيت لاعلمك كيف تستطيعين إنقاذه .

بل أتيت ايضاً لاعلمك كيف تستطيعين منع انتصار عدو الملك الذي هو عدوي ايضاً .

فنسيت اوديت رعبها السابق من هذا الرجل ولم يعد يخطر في بالها غير الملك الذي كان يحبها حباً ابوياً .

وقد دنت من ساتان وقالت له :

ألك عدو ؟

ـ نعم يا سيدتي وهو عدو الملك .

بماذا أساء اليك هذا العدو ؟

فضحـك ساتان ضحك القانطـين ، ونظر نظرة إمعان الى اوديت ، وقال لها :

نعم اني اخبرك دون سواك بما أساء اليّ هذا العدو وهـو قول أكتمه في ضميري منذ اثني عشر عاماً فاعلمي اني أكره هذا العدو لأنه شتمني وقال اني سافل وما انا بسافل واني أكرهه لأنه عاملني معاملة الخدم .

ـ ماذا صنع

ـ انه صفعني

وقد اصطكت اسنانه من الحقد لتذكار الصفعة وقال :

ان هذا الجبان الذي صفعني وهو يعلم بأني لا استطيع ان اصفعه ، وهذا السافل الذي شتمني وهو واثق بأني لا استطيع رد الشتم ، ان هذا الرجل الذي احرمني الرقاد يعد من كبار الأسياد فلا استطيع مقابلته وجهاً لوجه .

ولكني أراقبه من عهد بعيد وأقفو أثاره خطوة فخطوة وقد أحبطت مشروعه مرة وسأحبطه ايضاً ، اتثقين بي ؟

ـ نعم ولكني أتبين في نبراتك لهجة حقد هائلة تخيفني ؟

ـ اصغي الي يا سيدتي فانك تحبين الملك أليس كذلك ؟

ـ دون شك ، فهو طيب السيرة وقد احسن اليّ ، فانه أنقذ ...

ثم تنهدت وقالت : كلا لا يجب ان اقول شيئاً من هذا ، اما الملك فانه من خيار الناس لا يريد إلا الخير للناس وأنا الذي أشرت عليه ان يخفف مصائب الشعب

ـ لا ريب عندي في ذلك.

ـ اذن انت تعرفني ؟

ـ من عهد بعيد فاني قفوت أثرك ايضاً في جميع أدوار حياتك ، وذلك لأني قد احتاج اليك يوماً ولكن سنبحث في ذلك في وقت آخر .

فارتعدت أوديت وبدت علائم الخوف على وجهها فقال لها:

لا عجي تنزايتها الصبية ولا تستائي ولنتمم حديثنا فانك اذا كنت تحبين الملك حقيقة فلا بد ان تكرهي الذين يريدون قتله .

فاصفر وجهها وعلمت ان هذا الرجل يقول الحقيقة ، وان خطراً شديداً ينذر الملك فقالت :

اني لم اكره احداً، ولكني اشعر الآن انياكره هذا الرجل الذي يريد الاساءة الى ملك لم يقتصر على معاملتي معاملة بنته بل انه انقذ ..

وهنا توقفت عن اتمام جملتها وقد احمر خداها فقال لها :

من هذا الذي انقذه فقد ذكرت ذلك مرتين ؟

www.mlazna.com-RAYAHEEN

ـ لا احب ان اذكر ذلك فقل لي إسم عدو الملك ؟

ـ عـدوه الذي يريد ان يقتله والذي يحـــاول قتله ؟ إذن فاعلمي انه الدوق دي بووجونيا الملقب بجان الذي لا يخاف .

والآن فاعلمي ان الملك والمدعوين مجتمعين في القاعة الكبرى وهم الأمراء والنبلاء وربما بعد ساعة لا يعود شارل السادس يلقب بهذا الإسم .

وقد تحسبين ان القصر محصن وان الملك يحيط به امناء مخلصون له ولإمرأته فان كان هذا اعتقادك تعالي وانظري .

وعند ذلك اخذ بيدها فصاحت صيحة ألم اذ شعرت بوخز بيدها يشبه وخز الدبابيس .

وسار بهـا ساتان الى نافذة تشرف على مدخل القصر وهناك فريق من الفرسان قد حفظوا الباب فقال لها :

ماذا تنظرين ؟

ـ فرسان الدوق دي بورجونيا إذن ذلك اكيد.

ـ تعالي .. تعالي .. وسار بهـا الى نافذة اخرى تشرف على الرواق المسمى برواق الشرف وقال لها :

ماذا تنظرين ؟

ـ ارى ألوفاً من الرجال وكلهم يلبسون شارة بورجونيا .

ـ وهناك ماذا تنظرين ؟

ـ جنود الملك، وقـد نزعوا اسلحتهم .. نعم ، نعم ، لقد فهمت وانك رجل شديد الذكاء ، يا سيدي ، فاستحلفك بالله ان تخدم الملك بهذا الذكاء.

فضحك ساتان وقال :

ـ انك وحدك تستطيعين انقاذه .

ـ كيف ذلك ؟ قل ؟

ـ أتريدين ؟

ـ دون شك .

ـ إذن ادخلي الى قاعة الاجتماع ولا تنظري الى احد فيها .. أتسمعين بل اذهبي تواً الى الدوق دي بورجونيا وابتسمي له .

ـ ابتسم له .. أأنا ابتسم لهذا الخائن ؟

فابتسم ساتان وقال :

ذلك لا بد منه لانقاذ الملك ولا يكفي ان تقتصري على الابتسام له ، بل يجب ان تقتربي منه وتهمسي في اذنه قائلة :

« كل من يسيء الى الملك لا يطمع ان احبه » .

وكانت أوديت على أتم الطهارة والبساطة ، ولكنها ادركت ان هذه الجملة على بساطتها تعتبر بمثابة تعهد وانه اذا امتثل لها ولم يمس الملك بسوء فقد وجب عليها ان تفي بوعدها وتحبه .

فتوردت وجنتاها من الخجل ووضعت يدها علي قلبها كأنها تريد تسكين خفوقه .

وكان ساتان يراقبها فقال لها :

ان الدوق سيدخل رجاله بعد هنيهة الى قاعة الاجتماع فيثبتون ان الدوق أورليان قد نهب الخزينة ويحكمون عليه بالاعدام وان المملكة لا يمكن ان تبقى بادارة مجنون فيحكمون على الملك بالاقامة في أحد الأديرة حيث يقصون شعره اذ لم يحكموا عليه بالموت أيضاً كأخيه .

ـ رباه .. رباه .. ماذا اسمع ان كل ذلك يمكن حدوثه .

ـ دون شك يا ابنتي ألم يقتلوا بنيامين دي ارستال بحجة انه كسلان ، وكذلك يقتلون شارل بحجة الجنون ، فان جان دي بورجونيا يطمع بانشاء مملكة .

ـ إذن سر بي الى تلك القاعة .

فسار بها ساتان واجتاز الأروقة المختلفة التي كان يعرفها حق المعرفان حتى انتهى بها الى القاعة فدخلت بلا تردد .

أما ساتان فانه بقي واقفاً في الخارج وهو يقول في نفسه :

www.mlazna.com-RAYAHEEN

اذهبي يا أوديت دي شامديفر .. اذهبي يا روزالي وابتسمي لجـــان دي بورجونيا أبيك فانك أنت ستسلمينني إياه .

وقد رأى جان في تلك الساعة أوديت دخلت الى القاعة ، ثم رآها تمشي اليه وهي تبتسم له ، فجمد في مكانه كأنه قد كهربه هذا الابتسام .

وقد تركناه رافعاً يده الى الملك وربما كان يريد القبض عليه ، فلما رأى ابتسام أوديت الذي سحره سقطت تلك اليد ببطء .

وقد وصلت أوديت اليه وقالت له :

ماذا تفعل أيها الدوق ؟.. ان كل من يسيء الى الملك لا يطمع ان احبه.

فطاش عقل الدوق وقال :

ـ ماذا تقولين ؟.. ماذا اصنع ؟

ولكن أوديت كانت قـد اسرعت الى الملك وقالت له بصوت مرتفـع مشيرة الى الدوق دي بورجونيا :

مولاي ، هذا الرجل المخلص لك الذي يدافع عنك حين الاقتضاء .

فقال جان:

هو ذاك ، يا مولاي ، وهي لم تقل غير الحق ، فاني اعظم النـاس وفاء لجلالتكم .

وقد نسي بهذا القول كل ما كان يهيج بصدره من الحقد والانتقام والمطامع وجعل يتمعن بوجه أوديت .

وكانت قـد صعدت الى درجات العرش واسندت يدها بلطف الى كتف الملك دون كلفة ودون مراعاة العـادات المألوفة في البلاط التي كانت الملكة نفسها مقيدة بها .

فكان الحاضرون يعجبون ببساطتها ، وكانت تبـدو لهم شبه ملاك يحرس الملك .

ولما صعدت الى العرش التفتت الى الدوق وقالت له :

اشكرك ، يا مولاي ، فانك نهجت مناهج النبلاء .

فانحنى الدوق وهو يرتعش وقال في نفسه ؟

انها لي .

وقد حضر الدوق دي أورليان هذا المشهد المريع دون انيفهم شيئاً وكل ما عرفه ان قلبه حدثه بأنه قد نجا من الموت ولكنه لم يعلم لماذا وكيف ان كلمة من هذه الفتاة قد فعلت هذا الفعل العجيب .

أما انصار الدوق دي بورجونيا فقد بهتوا لما رأوه وجعل كل منهم ينظر الى رفيقه وهم يحسبون ان الدوق فعل ذلك على سبيل الايهام فاقتربوا من العرش .

ولكن جان صعقهم بنظره فتراجعوا منذهلين .

وعند ذلك همس الدوق بعض كلمات في اذن تونفيل فخرج مغضباً هائجاً وعيناه تتوقدان .

وذلك ان الدوق كان قد اصدر امره اليه بالجلاء العاجل من قصر سانت بول .

أما الملك فانه حين وضعت أوديت يدها على كتفه كان يرتجف وقد اخذ العرق يتساقط من وجهه وبدأت نوبته فانه كان قد شرب من ذلك السم الذي يعيد اليه الجنون وهو ذلك السم الذي اخذته الملكة من ساقان ليلة العاصفة .

٢٣

مصالحة دوق بورجونيا ودوق أورليان

لم يكن الناس يستغربون في ذلك الوقت اكثر من استغرابهم احتجاب الملكة خمسة عشر يوماً .

وقد بقي الملك خمسة عشر يوماً تفاجئه النوبات ، ولا يستطيع الاطباء

شفاؤه وقد كتموا عنه نبأ احتجاب الملكة فلم يكن يعلمه في حين انه كان سمر النوادي في حلقات المتحدثين .

وقد اقامت اوديت خمسة عشر يوماً ايضاً لا تقابل فيها الملك إذ اصيبت بحمى شديدة في ذلك اليوم الذي قابلها ساتان وأخذ بيدها فتألمت وشعرت بما يشبه وخز الدبوس .

وفي هذه المدة ايضاً حصن الدوق دي اورليـان قصر سانت بول أمنع تحصين وعاقب الفرقة التي سلمت لجنود جان وأمر بشنق جثة القائد الذي انتحر لانخداعه والتخلي عن باب القصر وبعد شنقه أمر بان يحتفل احتفالاً شائقاً بدفنه وعين راتباً لامرأته لأنه بانتحاره أعرب عن يأسه وأمانته .

وكان الدوق يبحث عن الملكـة لتواتر الاشاعات المختلفـة عن تلك الحادثة ..

فحاول ان يزور قصر الملكة ولكنه وجد جميع ابوابه مخفورة ومنعه ريدون رئيس الحراس قائلاً :

لقد صدر لي امر جلالة الملكة ان لا أدع احداً يدخل إلى قصرها فاشنقني يا مولاي اذا أردت الدخول إذ لا يدخل أحد وأنا في قيد الحياة .

— حتى شقيق الملك ؟

— حتى الملك نفسه .

فتركه وذهب الى قصر بوتيه اذ أشيع انها هناك فلقي فيه نفس ما لقيه في قصر سانت بول .

أما ايزابو فانهـا لم تبرح قصرها بل بقيت فيه ولكنها اطلقت سراح نساءها ولم يبق لديها غير الحراس .

فبينما كان شقيق الملك يبحث عنهـا في كل مكان ولا يجدهـا كانت هي جالسة في احدى غرف قصرها تائهة في مهامه التفكير .

لا شك انها كانت تفتكر بأمور هائلة فان عيناها كانتا تتوقدان من حين إلى حين فتقول :

www.mlazna.com-RAYAHEEN

اورليان.. بيري .. بورجونيا .. ترى بأيهم يجب ان ابدأ .

وقد اسندت رأسها الجميل الى يدها وجعلت تنظر إلى النمرة امباريا التي كانت مضطجعة عند قدميها وعادت الى مناجاة نفسها فجعلت تقول :

اورليان.. بيري .. بورجونيا .. نعم نعم اني اريد موت الثلاثة فلا رجاء لي بواحد منهم .

ولقد توهمت مرة ان جان دي بورجونيا رجل ولكني كنت منخدعة وهكذا جميع الرجال فلا يوجد بينهم من يجسر على اقتحام ما اريد .

على انه لو علمت انه يوجد رجل لا يخاف حقيقة وكان في اقصى الارض لذهبت بنفسي اليه وقلت له :

ولكن كلا فاني أريد أن أكون وحدي وما زال هؤلاء الزعماء الثلاثة يثقلون عليّ فلا بد من موتهم .

ولكن بأية طريقة .. ان خير وسيلة على أن احرض كلاً منهم على الآخر وادفعه الى قتله وقد وعد جان دي بورجونيا ان يحضر ترى أيأتي ؟

نعم اني سأحرض بورجونيا على اورليان فيقتل احدهما الآخر ثم افعل ذلك بالاثنين الباقيين ولكن بأيهم ابدأ .

وعند ذلك قامت الى خزانة فأخرجت منهـــا ثلاث قطع من الحلوى فبسطتها امام النمرة وقالت وهي تشير الى كل قطعة .

هذا بورجونيا وهذا اورليان وهذا بيري فبأكل أيهما تبدأين .

وكانت النمرة تحب هذه الحلوى فأسرعت الى التهام القطعة التي دعتهـا ايزابو باورليان .

فصفقت الملكة بيدها وقالت :

حسناً فسأبدأ بأكل اورليان شقيق الملك .

وعند ذلك قرع الباب بشكل خاص ففتحه وظهر لها ريدون فأسرعت إلى سؤاله قائلة :

أيحضر ؟

– بل انه حضر .

ففتحت باب الغرفة التي لبيت النمرة وادخلتها اليها .

وعادت فلقيت جان قد دخل الى القاعة فأشارت اليه بالجلوس بجانبها .

وقد انحنى جان بملء الاحترام وحياها تحية الملكات فقاطعته قائلة :

ليست الملكة التي دعتك اليهـــا بل هي ايزابو وهي تلـك المرأة التي استقبلتك يا جان دي بورجونيا منذ اثني عشر عاماً وظهرت في ذلك الحين بمظهر الآلهة ، بل هي تلك المرأة التي كنت تضطرب امامهـــا حباً وقد وعدتك بتاج شارلمان العظيم وهي ايضاً تلك المرأة التي سافرت من اجلها إلى ديجون لقتل امرأتك وأبيـك ، فاجلس يا جان دي بورجونيا دون كلفة فلست بحضرة الملكة بل انك مقيماً مع ايزابو دي بافيير .

فارتعد جان لا سيما حين رأى ريدون واقفاً يصغي فأشار اليه وقال : أتقولين يا سيدتي هذه الاقوال الهائلة امامه ؟

ولكنه يعرف هذا الحادث القديم كما يعرف كثيراً سواه فلا تهتم به فانه يكتم اموري كما تكتمها النمرة امباريا أليس كذلك يا ريدون ؟

– نعم يا مولاتي .

فضحكت ايزابو وقالت : نعم انه نمر فهو لا يسمع ولا يرى ولا يفهم إلا ما أريد أن يسمعه ويفهمه ويراه فأجلس ولا تهتم بهذا الرجل فمـا هو هنا إلا لتنفيذ رغائبي أليس كذلك يا ريدون ؟

– نعم يا صاحبة الجلالة .

– واذا أمرتك ايها النمر البـاسل ان تنشب براثينك في صدر هـــذا الجبان الذي كذب وخاف أتفعل ؟

فجرد ريدون خنجره دون أن يفوه بكلمة ومشى الى جان .

فأظهر جان ما دل على كبريائه وذلك انه وقف مكتوف اليدين كأنه لا يريد ان يتدانى الى مقاتلة رجل دونه في المقام والتفت الى الملكة وقال :

www.mlazna.com-RAYAHEEN

إني حين دعتني ايزابو اليها كان يجب عليّ ان أظن بأنها دعتني الى كمين . .

فالتفتت الملكة الى ريدون وقالت له كما قالت من قبل للنمرة .

ماذا تفعل ؟ ومن اذن لك بتجريد خنجرك ؟ اخرج من هنا ولا تعد إلا حين ادعوك.

فامتثل ريدون طائعاً وعادت الى جان فقالت له :

اجلس بجانبي .

فلما امتثل لها قالت له بلهجة المؤنب :

يجب ان تعلم بأني كنت استطيع قتلك حين اريد بالسيف أو بالسم وقد سنحت لي هذه الفرص مائة مرة فلو اردت موتك لكان الناس قد نسوا اسمك من عهد بعيد فان ايزابو لا تحتاج الى نصب الشرك لقتل اعدائها وما عليها حين تريد قتل عدو لها الا ان ترفع يدها فيموت .

فقال جان في نفسه وهو يرتعد ، هذا لا ريب فيه ثم قال لها :

اني امتثلت لك وأتيت مع قائد حراسك دون ان يصحبني احد ودون ان اخبر احداً أليس في ذلك ما يدل على ثقتي بك ؟

انه لا يوجد في باريس من يعرف اين انت وبينما هم يبحثون عنك في قصورك تقيمين هنا بالسر .

ثم انه ليس من يعلم بأني أتيت اليك فاذا قتلت عندك فلا يعلم احد أين هي جثتي .

ومع ذلك فقد أتيت لأحادثك بما تجهلينه واقول لك :

فقاطعته قائلة :

— ماذا تريد ان تخبرني أليس انك حين ذهبت الى ديجون لقيت امرأتك عارفة بما اتفقنا عليه .. اني عارفة بذلك وقد عرفته ساعة حدوثه .

فلبث جان حائراً منذهلاً ومضت في حديثها فقالت :

نعم اني من اجل ذلك صفحت عنك و ... وابقيتك في قيد الحياة .

ولكن الذي لم اغفره لك هو انك لم تعد إليّ فانك حين حسبت ان كل أمل قد حبط كان يجب عليك بدلاً من أن تذهب لمحاربة بيازيد وينتصر عليك ان تنصر سانت بول فنعمل يداً واحدة ونجد مشروعاً جديداً يوحد عظمتنا ومجدنا وقد دعوتك إليّ لأقول لك هذا القول وغيره ايضاً .

وقد وقفت عند ذلك واسندت يدها الى الكرسي الذي كانت جالسة عليه وعادت تلك المرأة الفاتنة التي تخلب بجمالها العقول فجعل جان يتمعن بها ويقول في نفسه :

لقد كنت احسب اني نسيتها واني أحب أوديت ولكني كنت واهماً فاني احب ايزابو .

كلا فقد كان واهماً بهذا الوهم فانه كان يحب اوديت بملء جوارحه ولكن جمال ايزابو ووقفتها اثرا عليه تأثيراً موقتاً فقال لها :

الحق يا سيدتي ان هذا الخطأ كان الخطأ الوحيد الذي ارتكبته في حياتي وقد ندمت أشد الندم قبلما رأيتك والآن تحول هذا الندم الى يأس .

ـ بقي عليّ ان اقول قولاً آخر وهو انك منذ عودتك إلى باريس كنت تحاول الفرار مني فلماذا ؟

ألعلي من الذين يخيفون النساء ؟ استعرض في ضميرك كل الجميلات في البلاط وكل حسناء في باريس أترى بينهن اجمل مني ؟

اني متكبرة ايضاً وكبريائي يجعلني اذ اعلم يقيناً انه لا يوجد من تماثلني فيه فأتساءل قائلة :

لماذا جان دي بورجونيا يبتعد عني ؟

فنهض عند ذلك جان وقال :

أتسألينني لماذا ابتعد عنك اني يا ايزابو قد شقيت ... اني قد بكيت .

ثم أتعلمين لماذا ابتعد واهرب منك .. ذلك لانهم يقولون .

وهنا توقف عن الكلام وقد كانت الغيرة ظاهرة حقيقة عليه .

www.mlazna.com-RAYAHEEN

فابتسمت الملكة وقالت له :

ماذا يقولون ؟

– لدوق اورليان .

فقهقهت الملكة ضاحكة وقالت :

يقولون بأني احب الدوق اورليان ، بل يقولون ايضاً بأني أحب هذا النمر الهمجي ريدون .

– سيدتي !

– دعني أتم حديثي ويقولون ايضـاً اني احب دي لينياك وسافوازي وكومبي وبيري وشاتيليون ولكن الذي لا يقولونه هو الحقيقـــة وهي ان الملكة لم تحب غير رجل واحد ولم تهب قلبها إلا لرجل واحد وهذا الرجل هـــو انت .

فركع جان عند قدميها وسجد حتى لمست جبهته الأرض وقال :

اسحقيني واقتليني فاني استحق الموت .

– قف واعلم انه اذا رأوك على ما أنت أضافوا اسمك الى قائمة الأسماء التي ذكرتها .

فلما امتثل جان ووقف طرحت نفسها بين ذراعيه وجعلت تشهق بالبكاء فكانت بما فعلته اعظم ممثلة في الأرض .

ومن يعلم فقد تكون صادقة في تلك اللحظة ، وفي الحالتين فان كليهما قد ادرك قصده .

وذلك انها دعت اليها جان لتقيده في خدمتها فاستسلم كما ارادت .

وأما هو فقد جاء على رجاء ان يستخدم ايزابو آلة لبلوغ أمانيه وقد سمعها تقول له :

اني اكره الدوق دي اورليان الذين يقولون اني احبه وأتمنى موته وأرى من عينيك انك لم تصدق كلمة ممـــا يقولون عني بشأن الآخرين واما بشأن الدوق ..

فقاطعها قائلا :

ـ ان اورليان عدوي الألد وإني اكرهه أشد كره دون أن اعلم السبب ولكني اكرهه لأنه مزاحمي في السيادة ولانه ..

فقاطعته ايضاً قائلة :

ولأنه عشيقي فاذا كان ذلك فدليل حبي اني اسلمك اياه .

ـ اذا كنت تكرهينه كما تقولين فاني أقسم بالله ..

فابتسمت وقالت :

لا تتسرع بالأقسام فانيلا اكره لويس دياورليان ولكنك انت تكرهه وهذا يكفي ، وانه عدوك فهو اذن عدوي ونحن اتفقنا على ان لا يحول بيننا احد من الاحياء .

انك تظن بأورليان الظنون اذن ليمت اورليان ولكن احذر فأنت الذي تدعوني للقضاء على هذا الرجل وانت الذي يجب عليك تنفيذ هذا القضاء فيه .

وانما قلت لك احذر لانك اذا عجزت وخفت هذه المرة ايضاً احسب ان...

ـ ان لويس اورليان سيموت .

ـ اذن ليمت ما زال قد تصدى لك في سبيلك وما زلت تكرهه ولكن لا يجب ان يشتبه بك احد ولا برجالك ولا يتهمونك بقتله أفهمت ؟

ـ نعم فاني موافق على هذا الرأي فاطمأني فلا يتهمنا احد .

ـ لانك تستطيع ان تعهد بقتله الى احد قطاع الطرق كي لا يخطر لأحد ان بورجونيا قتل اورليان .

ـ ان ذلك صعب .

ثم جعلا يتباحثان بصوت منخفض ويتناقشان في طريقة قتل ذلك الدوق وابعاد المظنة الى ان قالت ايزابو .

نعم هذا خير رأي فان المسالة بينكما واجبة ويجب ان يكون عقد

www.mlazna.com-RAYAHEEN

الصلح بين الدوقين ظاهراً يتحدث به جميع الباريسيين وان يكون قتل الدوق على اثر هذا الصلح كي لا يخطر لأحد ان اورليان قتل بيد صديقه الجديد .

ليس هذا كل ما اريد ان تفعله فاني اريد ايضاً ان يتعوّد جميع الباريسيين ان يحسبوك منقذهم .

وقد مثلت آخر مرة هذا الدور خير تمثيل فايق على ما عهدوه فيك .

وهذا الشعب قلق الآن لغيابي وهو يعتقد اني عاملة على خيانته وضربه الضربة القاضية فمكن منهم هذا الاعتقاد ثم أوهمهم انك سترديني الى قصر سانت بول .

وذلك اني أسافر الى قصر بوتيه ونحن الآن في يوم الثلاثاء فاذهب يوم الجمعة الى فنسان تجدني هناك بانتظارك وتعود بي إلى باريس .

ثم حدقت به تحديق الفاحص وقالت له :

أرأيت كيف اني استسلم اليك وكيف اني حكمت بالقتل على الذي يحول بيني وبينك .

ولكن انت يجب ان تحذر من ان تحول امرأة جديدة بيننا مثل لورانس.

ولم تتم الملكة حديثها فان النار توقدت في عيني جان إذ خطر له خيال اوديت فقال في نفسه :

ولكني احب هذه الفتاة واذا قضي عليها بالموت فقد يقتلني اليأس .. غير اني اصبح ملكاً .

* * *

على اثر هذه المعاهدة التي عقدت بين جان وبين ايزابو حدثت حادثتان خطيرتان في باريس .

احداهما عقد الصلح بين الدوق دي بورجونيا وشقيق الملك وهو صلح ادهش جميع الناس إذ عقد في الكنيسة على مرأى من الجميع بواسطة

رئيس الأساقفة فكان يشبه ذلك الصلح التاريخي الذي حدث بعد مائة وثمانين عاماً بين الدوق دي كيز والملك هنري الثالث كما بسطناه في رواية الأميرة فوستا .

والثانية عودة الملكة ايزابو إلى قصر سانت بول فقد عاد بها جان دي بورجونيا من قصر بوتيه .

فبات جميع الناس يتوهمون ان جان دي بورجونيا قد توصل بغيرته وذكائه الى منع نشوب حرب اهلية فباتوا يعتقدون انه خير نصير للشعب .

٢٤

عودة الشفاليه هردي

في ذلك اليوم الذي ذهب فيه جان دي بورجونيا الى فانسان لاحضار الملكة كما أمرته الى قصر بوتيه كما كان الشفاليه هردي يقترب من العاصمة .

ولم يعد ذلك الفق الهزيل الأصفر فان هواء فالوا وبيكارديا ونورمانديا قد رد اليه العافية فاحمرت وجنتاه وبرقت عيناه وأفادته هذه الرحلة فائدة عظيمة بحيث بات من رآه حين خروجه لا يكاد يعرفه الآن .

أما حالته الأدبية فقد كانت كما يأتي :

ليس في كيسه دينار .

غير مختص بأحد .

لا قريب له ولا صديق .

لا هم له يشغل قلبه .

ولذلك لم يكن يخشى اللصوص ولا السويداء إذ لا شيء يثقل على قلبه ولا على كيسه فهو حر وسيد لا يكترث للمستقبل ثابت العزم سليم الفكر

www.mlazna.com-RAYAHEEN

قوي الجسم متشرد التصور يجد الشمس بديعة ويتغزل بالأمطار ويرى الحياة نعمة وبين ساقيه جواد وعلى جنبه سيف وريشة قبعته تتطاير بالهواء وهكذا كان دخوله إلى باريس .

وقد كان نبأ موت روزالي ضربة شديدة أثرت عليه تأثيراً عظيماً ولكن تقادم الأيام والبعد يمحوان الرسوم فان روزالي كانت تتراءى له كما تتراءى الصور في الأحلام فيبسم لها وينقضي ذلك الحلم وكذلك اوديت بحيث كانتا تشبهان عنده ذلك الشفق حين تصرمه فهو لا يظهر ولكنه يبقى اثراً من توهمه .

ولكنه على خلو باله وارتياح نفسه كان يفتكر بالملكة ايزابو ويحسبها من الملائكة لانها اعتنت بروزالي حسب رواية ساتان .

ويفتكر بشارل السادس لانه فتح له ابواب سجنه .

وكان يقول في نفسه انه اذا سنحت لي الفرص كافأت هؤلاء الثلاثة بكل ما املكه أي بحياتي اذ لم يكن يملك سواها .

ونعم ان أباه كان غنياً وان قصره كان لا يزال موجوداً ولكنه اذا جاهر بطلب إرث أبيه جاهر باسمه ومتى عرفوه عادوا به الى السجن الذي كان فيه وهو يكره العودة الى ذلك السجن ، وان كان يحب سجانه الذي علمه فنون القتال .

وقد خطر له عند ذلك ان يستخدم عند أحد الامراء فينال بسيفه وإقدامه ما يوافق نفسه الكبيرة .

وقد وصل الى نوجنت في الساعة الثامنة من الصباح ، وتغدى في أحد فنادقها اذ كانوا يتغدون في الساعة التاسعة صباحاً في ذلك العهد .

وبعد ان تغدى ودفع آخر ريال في جيبه ، خرج منه بغية الذهاب الى باريس.

فخرجت صاحبة الفندق في اثره وقالت له :

اتأذن لي ان اسديك نصيحة أيها الفارس الجميل ؟

قال : اني أقبلها بالامتنان.

قالت : نصيحتي اليك ان لا تدخل باريس من طريق الغابات فقد كثر اللصوص فيها في هذه الأيام ، وندر ان يسلم مسافر من شرهم ، فاذا اردت السلامة فاذهب من الطريق الآخر وادخل الى باريس من باب مونمارتر .

فشكرها هاردي وانصرف، ولكنه لم يعمل بنصحها ، ولم يسلك الطريق الذي ارشدته اليه ، بل سار في طريق الغابات .

ولم يكن هاردي من أهل العناد غير انه وجد ان طريق الغابات اقرب من سواها وهو في حاجة الى الاسراع لفراغ كيسه ، ثم لأنه كان اشد فقراً من اللصوص وهم لا يريدون نهب روحه ، بل نهب ماله وأخيراً انه لم يكن يخاف اللصوص .

وبعد هنيهة كان يسير في تلك الغابات على جواده حتى اذا توغل فيها رأى عن بعد مركبة يخفرها أربعة فرسان ، ثم رأى نحو اثني عشر رجلاً هاجمين عليها ، ثم سمع صيحاتهم .

فلكز بطن جواده واندفع به يسابق الرياح ، وهو يصيح وينتسب فوق ظهره كما كان ينتسب العرب حين القتال .

حتى اذا وصل اليهم رأى أولئك اللصوص قد احدقوا بالمركبة يريدون نهبها وشغل بعضهم بمقاومة الفرسان .

فانقض على المحدقين بالمركبة انقضاض الصاعقة فقتل اثنين بطعنتين وجرح آخر .

فتفرق الباقون عن المركبة وانضموا الى رفاقهم فتبعهم هاردي وانضم الى الفرسان فنشب بين الفريقين قتال هائل .

وكان في هذه المركبة إمرأة لم تر العيون ابدع منها ، وقد وقفت في مركبتها تنظر باسمة الى هاردي وهو يجول بين اللصوص جولة الأسد وقد صبغ حسامه بلون الأرجوان من دمائهم ، فلم يظهر على تلك المرأة شيء من علائم الخوف ، بل كانت مسرورة كأنما كان يروقها منظر الدماء .

www.mlazna.com-RAYAHEEN

وقد أصيب جواد هاردي بضربة عمود من الحديد على رأسه ، فسقط على الأرض .

ووثب هاردي من ظهره الى الأرض ، وقد زاده ذلك تحمساً ، فما زال يعمل بهم السيف والفرسان الأربعة يحمون ظهره حتى قتل وجرح ستة منهم ورأى الآخرون انهم لا أمل لهم بالانتصار فأركنوا الى الفرار .

وعند ذلك عاد إلى جواده فأنهضه ومسح وجهه ، وبعد ذلك نظر الى المركبة ورأى تلك المرأة الحسناء فارتعش لنظراتها السحرية .

وكانت هذه المرأة الملكة ايزابو والذين معها جان دي بورجونيا وثلاثة من رجاله .

فنظر عند ذلك جان الى هاردي وقال له:

انك انقذت أيها الشجاع أميرة عظيمة فسل ما تشاء ولا يخشى ان تكثر في طلب الجزاء .

فقالت الملكة بصوت يضطرب : هو ذاك فسل أيها الفتى ما تشاء .

فأجابها هاردي قائلاً :

وماذا صنعت فاستحق المكافأة اني رأيت اللصوص يهاجمون مركبة فشعرت بقوة تدفعني اليهم .

فقال الدوق للملكة : اني لم أر مثل هذا الباسل ولا اشد من طعناته ولا جرم فان نظراتك تخلق الشجاعة في قلب كل من يراها .

وقال هاردي : اني لم أتشرف برؤية الأميرة ولم اعلم انها من الأميرات فلو رأيت اللصوص يهاجمون إمرأة متسولة لما احجمت عن الانتصار لها وأنت يا سيدي ألا تفعل فعلي ؟

وكان الدوق ينظر الى هاردي نظرات إعجاب فشغل عن سؤاله بفحصه اذ رأى عليه من دلائل البساطة ما اطمعه باستخدامه فقال له :

اني أيها الباسل ادعى دوق بورجونيا وأنت ماذا تدعى ؟

فانحنى هاردي وقال : اني ادعى الشفاليه دي باسافان .

فارتعش جان وارتعشت الملكة ، ونظر كل منهما الى الآخر وقد اصفر وجهه وقال الدوق بصوت مختنق :

باساقان .. أذكر اني عرفت رجلاً بهذا الاسم كان يلقب باساقان الشجاع ، فهل أنت من اسرته ؟

فقال هاردي في نفسه : لا بد لي الآن من الكذب أو اعود الى السجن الذي كنت فيه ولو عرف ابي اني انكرته لحظة لانقاذ حياتي لما لامني على هذا الكذب .

ثم اجاب الدوق قائلاً :

نعم ، انه ابن عم ابي ، ولكني لم اعرفه لأنه كان مقيماً مع أسرته في باريس .

فتنفس الدوق الصعداء وقالت الملكة لهاردي :

انك من الاشراف كما يدل عليه اسمك ولو اني لم اعرف اسرة باساقان مع اني اعرف جميع اسرات فرنسا .

قال : هذه أول مرة ، يا سيدتي ، اتيت فيها الى باريس عاصمتنا الكبرى فاني من سكان الريف .

فابتسمت الملكة وقالت :

انك اذا كنت اتيت لنيل ثروة فقد نلتها منذ الآن .

وقال الدوق : أنا اتعهد به .

ثم التفت الى هاردي وقال له :

أين تقيم في باريس وأين هو قصرك ؟

فضحك هاردي وقال :

ان قصري عظيم شاهق يتصل بالنجوم فان فراشه الأرض وسقفه السماء وبالاختصار ، يا مولاي ، اني لا قصر لي في باريس ، ولكن ارشدوني الى فندق أقيم فيه الى ان تأتي تلك الثروة التي وعدتني بها حضرة السيدة فتأخذ بيدي الى منزل يجدر ان يقيم فيه ابن باساقان .

www.mlazna.com-RAYAHEEN

– ماذا يدعى هذا الفندق ؟

– انه يدعى باسم غريب لا اعرف كيف تسمى به فهو فندق الخنزيرة المشنوقة في شارع سانت مارتين .

فنظر ايضاً كل من الدوق والملكة إلى الآخر فان هذا الفندق كان تجاه منزل باسافان ومضى هردي في حديثه فقال :

أومما دعاني الى اختيار هذا الفندق ما قيل لي من انه مجاور لذلك المنزل الذي كان يسكنه ذلك الشفاليه الشهير الذي ذكرتموه لي فاذا أقمت بجوار منزل كانت الشجاعة والاخلاص ممثلين فيه يخال لي ان خيال باسافان يحرسني ويرشد اعمالي .

– ولكن حمايتي ايها الفتى خير لك من حماية الخيال فان الخيال لا يكفي للحماية في هذه الاحوال الحاضرة .

فقال هاردي في نفسه : من يعلم ؟

وعند ذلك اشارت الملكة الى الفرسان إشارة فتأهبوا للرحيل .

وقبل ان تسير المركبة قالت الملكة لهاردي .

اني اريد ان اشكرك كما تستحق فتعال إلى قصري في الساعة العاشرة من صباح غد .

– عمن اتشرف بالسؤال ؟

– قل أسمك للحراس الذين تجدهم عند الباب فيدخلونك إليّ .

– وأين هو قصرك يا سيدتي ؟

–في قصر سانت بول .

وعند ذلك سارت المركبة فلبث هاردي واقفاً في مكانه وقد ملأ الرعب قلبه حين سمع اسم قصر سانت بول ، فلما توارت المركبة عن انظاره جعل يقول في نفسه :

أأنا اذهب إلى قصر سانت بول ؟ معاذ الله ان افعل ، فاني لم أنس بعد ذلك السجن الذي أقمت فيه نصف عمري .

ان الدوق الذي طالما سمعت باسمه رجل عظيم قادر وهذه الأميرة الحسناء لا بد ان تكون من النساء العظيمات في قصر سانت بول .

وكلاهما قد وعدني خيراً ولكن قلبي نفر منهما لأول وهلة على شهرة الرجل وجمال المرأة ، فما هذا النفور ؟

كلا ، اني لا اذهب الى قصر سانت بول .

ولم يكد يقر على هذا الرأي حتى اطرق برأسه وتنهد .

ذلك ان اوديت المقيمة في قصر سانت بول قد تمثلت له .

فرفع رأسه كأنه وجد خير نصير على أعدائه وقال :

نعم اني سأذهب غداً في الساعة العاشرة الى قصر سانت بول ويفعل الله ما اراد ..

٢٥

فندق الخنزيرة المشنوقة

كان هذا الفندق مشهوراً في باريس ولا سيما في شارع سانت مارتين لتقادم عهده ، فقد تأسس منذ عهد بعيد وجعل الأبناء يتوارثونه عن الأجداد حتى انتهى الى صاحبه الحالي وهو يدعى ليتبود .

وكان الناس يختلفون اليه ، ولا سيما رجال الدوق دي بورجونيا لقربه من مراكزهم .

ففي تلك الساعة التي غادر فيها هاردي الغابات الى ذلك الفندق كان رجال الدوق الأربعة الذين قاتلوا مرة هاردي مقيمين في ذلك الفندق يشربون وهم : تونفيل وكورتيز وكين وغليوم .

ويذكر القراء ان سيف هاردي كان قد ترك اثراً في وجوههم يوم تلك المعركة وان الدوق اورليان انقذه منهم حين تكاثروا عليه .

www.mlazna.com-RAYAHEEN

وقد جلسوا في غرفة خاصة وتركوا بابها مفتوحاً على رجاء ان يروا ذلك الذي ملأ قلوبهم حقداً إذ اتفق دخوله إلى ذلك الفندق .

وكان يوجد في غرفة ثانية اولئك الفتيان الثلاثة الذين انقذهم هاردي من ساتان وعهد اليهم الدوق دي بورجيـــا ان يقبضوا على هاردي ويأتوا به ميتاً او حياً ، وقد ذكر لهم تونفيل اوصافه إذ لم يعرف اسمه ولا اين يقيم.

وهؤلاء الفتيان الثلاثة هـم بريسكايل وبرنكايل ، فكانوا مقيمين في هذا الفندق يشربون ايضاً على رجاء ان يظفروا اتفاقاً بهـذا الرجل الذي لا يعرفونه .

وفي تلك الساعة كان ليتبود صاحب الفندق يستقبل الشفاليـه هاردي خير استقبال ويأمر خدمه ان يأخذوا جواده الى الاصطبل .

وقد نزع قبعته وأحناها احتراماً حتى كادت تبلغ الأرض ،وجعل ينادي الخدم فيقول :

إسرعوا باعداد احسن الغرف لهذا الفارس النبيل الغريب الذي ارسلته الينا السماء .

فابتسم هاردي وقال له :

على رسلك فاني لست غريباً عنك كما تقول .

ـ كيف ذلك يا مولاي ، ألعلي تشرفت بمعرفتك ؟

ـ اني بت عندك ليلة منذ شهر ، وقد اكون تغيرت عليك فلم تعرفني ولكن ليست السماء التي ارسلتني اليك هذه المرة بل الشيطان الذي تعلقت بدنبـه ...

فضحك ليتبود وقال .

ان من كان مثلك وتمكن من القبض على دنب الشيطان فلا يفلته حتى يقطعه ، وفي كل حال فان هيئتـــك اعجبتني ، فادخل يا سيد فان الدير ممنوع في فندقي ولكنني أعده من اجلك .

فأسرع هاردي بالدخول الى القاعة ووقف فيها يبحث عن مكان صالح يجلس فيه .

وفيما هو ينظر حانت منه التفاتة الى باب مفتوح ، فارتعش ووضع يده على حسامه .

ذلك انه رأى اعداءه الأربعة ورأى أثار سيفه لا تزال على وجوههم

وقد جعل الأربعة ينظرون اليه ايضاً نظر الفاحص دون ان يعرفونه ، فانهم لم يروه غير مرة في الليل وفوق ذلك فان هيئته قد تغيرت بعد ذلك السفر عما كان عليه بعد خروجه من السجن .

غير انهم كانوا مشتبهين به .

اما هاردي فكان ينظر اليه وهو يقول في نفسه :

نعم انهم انفسهم وقد عرفتهم من هذه الآثار ويظهر انهم عرفوني ايضاً فانهم قادمون إليّ .

وقد نهض الاربعة من مجالسهم وجاؤوا اليه فانحنى تونفيل امامه وقال له :

ألعلك يا سيدي الشفاليه دي باسافان ؟

قال : نعم انا هو فمن انتم ؟

قال : ان الذين يتشرفون بتحيتك ايها الشفاليه هم الفيكونت دي كورتيز والبارون غليوم دي ساك والكونت دي كين وخادمك المطيع دي تونفيل .

فقال هردي بعد رد التحية :

أما وقد زدنا الآن تعارفاً ايها الأسياد فماذا تريدون مني على انه مهما يكن مرادكم فاني طوع لكم .

فقال كين : ان سيدي الشفاليه يفتننا بحسن أدبه .

وقال كورتيز ، لو شاركنا في الشرب لكنا له من الشاكرين .

وقال تونفيل :

ان مولاي الدوق دي بورجوفيا هو الذي لقيك في صباح اليوم في الغابات .

فقاطعه هردي قائلاً :

www.mlazna.com-RAYAHEEN

إذن لم يكن الغرض ان ...

قال: ماذا ؟

قال : لا شيء فتفضل أيها البارون بتتمة حديثك .

ـ ان مولانا الدوق اخبرنا بأننا سنتشرف بلقائك في هذا الفندق وقد أمرنا ان نتعرّف ونلتمس صداقتك ولذلك أعد نفسي سعيداً مع اصحابي اذا تفضلت بمشاركتنا في شرابنا .

ـ اني ايها السادة اقبل دعوتكم شاكراً ولكني اقترح شرطاً :

ـ ما هو ؟

ـ هو ان تأذنوا لي ان ادفع النفقات .

فتشاوروا بالنظر وقبلوا بهذا الشرط فنادى هردي صاحب الفندق وقال له :

ان هؤلاء السادة اضيافي فأعد لنا مائدة تشبه موائد الامراء .

فظهرت على صاحب الفندق علائم التردد لان هردي لبساطته اظهر له انه لا يملك درهماً .

وقد رأى هردي منه هذا التردد فدنا منه وهمس في اذنه قائلاً :

اني امهلك عشر دقائق فاذا لم تعد المائدة على ما وصفته لك في الدقيقة العاشرة احدقت الفندق وصلبتك على بابه .

فحدق ليتبود بهردي كي يرى اذا كان صادقاً في وعيده .

فلما تبين منه الجد أسرع الى المطبخ وجعل يعين الخدم على اعداد ما طلب .

وفي تلك اللحظة دخل رجل جديد الى القاعة ودنا من رجال الدوق دي بورجيا وقد عرفهم والتفت الى هردي فقال له :

أليس سيدي الشفاليه دي باسافان ؟

فقال تونفيل بلهجة المغضب ... ريدون .

وقال كورتيز :

كلب الملكة .

أما ريدون فانه تبادل مع اولئك الأربعة نظرات هائلة ثم تظاهر كأنه لم يرهم وحيى هردي .

اما هردي فانه قال له :

اني أنا هو يا سيدي الشفاليه دي باسافان فهل أتيت لتدعوني الى الغداء ؟

قال : كلا بل اني قادم من قبل سيدة نبيلة لقيتها في هذا الصباح قرب فانسانت .

فارتعد هردي وشعر ان جمال تلك المرأة لا يزال مؤثراً عليه تهزه كما تهتز الرياح بعد العاصفة .

وقال غليوم : ترى من هي هذه المرأة التي لم يخبرنا عنها الدوق ؟

فقال ريدون مخاطباً هردي كأنه لم يسمع كلام غليوم .

ان هذه السيدة قد عهدت إليّ بتذكيرك بأنه يجب ان تذهب في الساعة العاشرة من مساء غد الى .. حيث تعلم وأنا الذي سأتشرف بانتظارك والذهاب بك اليها فماذا تريد ان اجيبها ؟

فأجابه هردي بلهجة ثابتة دون تردد .

قل لها سأحضر .

وقد شعر حين اجابه هذا الجواب انه ندم على مـــا قال وانه لم يعد يستطيع استرجاع قوله :

أما ريدون فانه انحنى مسلماً وانصرف .

وقد لقي حين مروره جاكين وهو ذلك الرجل الذي كانت مهنتـه في قصر الملك ان يرسم ورق اللعب .

وكان جالساً وحده يشرب فلمـــا لقيه ريدون أشار اليه إشارة سرية فأجابه جاكين باشارة مثلها وانصرف ريدون .

www.mlazna.com-RAYAHEEN

www.mlazna.com
^RAYAHEEN^

٢٦

جاكمين

لا نصف تلك المائدة التي أعدها ليتبود لهردي وضيوفه بل نقول انهـا كانت ، كما طلب هردي ، مائدة امراء .

وقد جعلوا وهم يشربون يطنبون في اوصاف الدوق فبعضهم يصف كرمه وآخر يذكر مروءته وآخر يبـــالغ في وصف سيـادته حتى انتهى هردي بأن يقـول :

اني ايها الأسياد ابحث عن سيد عظيم اخدمه بسيفي فقد ضجر في غمده وكاد يأكله الصدأ ولا ادري لماذا لا يكون الدوق بورجونيـا هذا السيد .

على اني سأذهب اليه وأحادثه في قصره فلنشغل عنه الآن بالشراب .

فقال تونفيل ، حسناً فلنشرب واما اليوم والساعة اللذين نستطيـع فيها الاتفاق مع مولانا الدوق فسيعينهما بنفسه .

ـ متى ؟

ـ غداً مساء .

ـ أين ؟

ـ في قصر سانت بول .

www.mlazna.com-RAYAHEEN

فاضطرب هردي لذكر هذا القصر لأنه كان كلما حاول الابتعاد عنه أدنته الاقدار منه فذكر ذلك السجن وما لقي فيه من الأهوال .

ولكنه نفى عن مخيلته تلك الذكرى وأخذ كأساً وشرب نخبهم وقال :

اذن سنجتمع ايها الأسياد في قصر سانت بول .

فقال الاربعة بصوت واحد : نعم في قصر سانت بول .

وقد نال الأربعة كل ما كانوا يطمعون بنيله وهو انه وعدهم وعداً اكيداً بموافاتهم هناك .

وبعد هنيهة افترقوا بعد ان تعاهدوا على الولاء فلما اجتازوا القاعة الكبرى أشار تونفيل نفس الإشارة السرية التي اشارها ريدون حين انصرافه.

ولكن هذه الإشارة لم تكن لجاكمين بل لبريسكايل وبراكايل وبرنكايل.

فأجابه برانكايل بغمز عينه اشارة مفادها كن مطمئناً وانزوى اولئك الجواسيس الثلاثة في زاوية مظلمة .

ولما اصبح هردي وحده نادى ليتبود صاحب الفندق وقال :

لا انكر عليك ان طعامك قد اعجبني ولكن ليس هذا كل الذي اريد قوله فاني لا اخفي عليك اني احب ان اقيم في هذا الفندق الى حين امر جديد .

فأجابه ليتبود قائلاً :

انك تشرف فندقي يا مولاي فهل تأذن لي أن اسألك عن معنى هذا الاصطلاح التجاري إذ لم افهم قصدك بالأمر الجديد .

قال : معناه اني سأضطر لترك فندقك عما قريب .

وكان ليتبود من اهل الحيلة والدهاء فلما سمع منه هذا القول تظاهر بالحزن الشديد فقال له هردي : ماذا اصابك ؟

قال : اني ابكي يا مولاي لأني سأفقد قريباً زبوناً مثلك فان من كان له جرأتك لا بد أن يحقق أمانيه في اقرب حين فأنا أأسف لقرب فراقك .

فضحك هردي وقال :

www.mlazna.com-RAYAHEEN

لا تحزن فاني أعدك بأن أبقى عندك بعد الاثراء إذ اعجبني فنـدقك .

اذن ان سيادتك تريد غرفة فاذا كان ذلك فان لديّ غرفـة حسنة في الدور الأعلى .

بل ان سيادتي تريد غرفة في الدور الأول تشرف على الطريق وتكون من اجل ما يكون عندك من الغرف او شرفت حسامي هذا بمعرفة صدرك .

فحدق ليتبـود به كي يستوثق من صدق وعيده حتى اذا رأى عينيـه يتوقدان استعاذ بالله من هذه المصيبة وقال له : تفضّل واتبعني يا سيدي .

فتبعه هردي وادخله الى غرفة ارتضى منهـا ثم تركه وانصرف وهو ينتف شعره من اليأس .

ولم يكد يجلس هردي في غرفته حتى فتح الباب ودخل اليه رجل طويل القامة هزيل الجسم كبير الانف عريض الجبهة فانحنى امامه وقال له :

هل أنا بحضرة الشفاليه دي باسافان .

فتأفف هردي وقال في نفسه : يظهر ان جميع الناس يعرفونني في هذا الفندق ثم قال له :

انذرك اني تغديت اليوم مرتين فاذا كنت آتياً لتدعوني فلا تفعل .

قال : إذن أنا بحضرة الشفاليه دي باسافان ؟

— نعم انك بحضرتي فماذا تريد ؟

— اني أريد ان أتشرف بدعوتك كما تشرفت بلقائك .

— قلت لك اني تغديت مرتين :

— ولكني ادعوك الى الشراب .

— قلت لك كلا .

— انـه شراب ممتق يا سيدي لا يشرب منه غير الملك وانـا .. واي شراب هـو .

وهنا أشار إشارة بعينيه ويديه في وصف هذا الشراب بحيث لم يتمالك هردي عن الضحك .

www.mlazna.com-RAYAHEEN

فاغتنم الرجل فرصة ضحكه واسرع الى مناداة ليتبود فأمره باحضار زجاجة من ذلك الشراب الذي يرسل منه إلى الملك ثم التفت إلى هردي وقال له :

لا تخف ايها النبيل فما أنا ملك فرنسا اي لست بمجنون وأنا ادعي جاكمين جرينجونير ومهنتي التصوير فاذا رأيتني متقلداً حساماً على عادة النبلاء فليس ذلك لأني منهم بل لأن الملك قد اذن لي بأن أتقلده دون ان أذن لنفسي بتجريده لأني لا اعرف ان اقاتل به .

وأنا اشكرك لتفضلك بقبولي عندك دون ان تعرفني واخبرك اني قادم من قصر سانت بول .

وكان ليتبود قد احضر الشراب ووضعه على المائدة فقال له هردي : قيد ثمن هذا الشراب في قائمة حسابي .

فخرج ليتبود وهو يكاد يتقطر غيظاً ويقول في نفسه :

ويلاه لقد خربني هذا الرجل وأخاف ان يحاسب عن جميع الداخلين الى فندقي .

أما جاكمين وهردي فانهما جلسا وبينهما ذلك الشراب فبدأ جاكمين الحديث فقال :

أتعلم يا سيدي الشفاليه اني صديق الملك ؟

قال : وأنا ايضاً صديقه فهل ادهشك ذلك .

— دون شك فقد كنت احسب ان لا صديق للمجنون ، ولذلك أخذ بعض الناس يقولون اني أنا ايضاً من المجانين . الصداقة ايها النبيل كنز لا يفنى فتصور انك صديق رجل عظيم قادر يمطر عليك الذهب ويعينك على دهرك في كل امورك تكون من اسعد الناس وأما اذا كنت صديق ملك مسكين يخونه الجميع ويجفوه الناس حتى خدمه وهو من المجانين فما تكون اذا تعلقت بصداقته ؟

ـ أكون مجنوناً وسأكون ذلك المجنون اذا راق لي غير اني صديق الملك ولا أزال ممتعاً بقواي العقلية فماذا تريد بعد ذلك ؟

ـ اقسم بالله يا سيدي ان لكلامك خير تأثير على قلبي فان لك حكمة عولص وقوة أجاكس .

ـ من هما هذان السيدان ؟

ـ هما سيدان روى لنا هوميروس حكايتهما في اشعاره. إذن انت صديق الملك وخائلك تدل على الاخلاص وقد اخضعت ليتبود وتعاليت على اولئك الذئاب رجال بورجونيا فدفعت حسابهم وليس في كيسك درهم .

نعم لقد رأيت منك كل ذلك وندمت لاني ما أتيت اليك إلا بنيات سيئة فأرجوك المعذرة عما تسمعه مني فاني ليسرلي لقب شرف وانا اخاطبك مخاطبة الأكفاء .

ـ لا شرف إلا بالعقل والشجاعة وسلامة الضمير فلو اجتمعت هذه الصفات لتسول لعددته من اكفائي .

أما نياتك السيئة التي اتيتني بها فاني انتظر ان اسمعها منك فاما اغفرها لك أو القيك من هذه النافذة .

ـ لا تفعل ، يا سيدي ، فستعلم اني لا اريد لك إلا الخير ، وبعد فقد قلت لك اني قادم من قصر سانت بول فاني ادخل اليه ، واخرج منه ، كما اشاء .

وان اميرة اتفق لك انك لقيتها في هذا الصباح تعودت ان تستشيرني في بعض امورها ولا تثق إلا بي وقد جاءك ايضاً ريدون من قبل تلك الأميرة فانها لا تعتمد على ذكائه ، بل على خنجره فكان مثلها مثل اتليتيس الذي بحث عنه بتداريس ف. . .

فقبض هاردي على يد المصور وضغط عليها حتى جعله يصيح من الألم وقال له :

عـولس بتداريس اجاكس اتليتيس .. انك تعرف كثيراً من هؤلاء

www.mlazna.com-RAYAHEEN

الناس الذين تنتهي اسماؤهم بايس ، أما أنا فانذرك اني لا اعرف من اللغات غير اللغة التي اتكلم بها فاذا اردت لنفسك السلامة فاحذر ان تكلمني بغير لغة الفرنسيس.

ـ أقسم بالله انك المتني المآ شديداً ولكن هذا الألم زادني تعلقاً بك ، إذن فاعلم ان هـذه الأميرة لا تثق بسياسة ريدون ولذلك ارسلتني اليك كي اقنعك على الدخول في خدمتها وقد ارسلت برهانا علي ميلها اليك هذا .. عفواً فلا بد لي من العودة الى ايس .

ـ قل ماذا ارسلت ؟

ـ هذا الكيس .

ثم اخرج جاكمين كيساً من الجلد محشو بالدنانير فوضعه على المائدة وقال بلهجة الاحترام .

انه محشو بالذهب .

فقال له هاردي بلهجة تشف عن عدم الاكتراث :

حسناً فضعه على هذه المائدة القديمة الكائنة وراءك .

والآن لنعـد الى نياتك السيئة التي اتيتني بها ، فهل كنت عازماً على قتلي بالخنجر ؟

ـ كلا ، واني اشهد الله على صدقي .

ـ بل اردت ان تسحق رأسي بهذا الكيس .

ـ كلا يا سيدي وانما حاولت بأمرها ان اغريك بهذا المال إذ كانت تعتقد انك فقير يسهل اغراؤك .

ـ إذن لقد اردت تسميمي بهذا الشراب .

ـ أسألك العفو ، يا سيدي ، فاني رأيتك في مقبل الشباب وعلمت ان لا مال لك فخيل لي في البـدء اني انتصر عليك أما الآن فأني اعترف لك بالحقيقة ، فأن نياتي السيئة كانت محاولتي اقناعك على التقيد بخدمة هذه الأخيرة .

ـ وأي ضرر من هذا التقيد ومن هذه الاميرة ؟

ـ انها تريد ان تجبرك هي باسمها .

ـ وأين هي نيتك السيئة ؟

ـ باقناعك وبحملك على خدمتها .

ـ إذن لا يجب ان اتقيد بها ؟

ـ بل يجب ان تهرب منها.

ـ ولماذا ، ألعلها من أشرار الناس ؟

ـ كلا ، ولكنك اذا تقيدت بخدمتها اضطررت الى الاقامة في قصر سانت بول .

ـ وهناك ؟

ـ وهنـاك اخشى عليك ان تلتقي بإمرأة اذا احبت قتلت بالسم ، واذا حقدت قتلت بالصاعقة ، واذا نظرت قتلت بالنار فليس فيها غير القتل .

ـ ومن هي هذه المرأة الهائلة ؟

ـ ايزابو دي بافيير ملكة فرنسا .

ولم يكن هاردي يعلم شيئاً بعد عن الملكة ، ولكن رأى جاكين يرتجف من ذكر إسم الملكة ، كأنما إسمها وحده يلقي الرعب في القلوب .

غير انه لم يكترث لما سمعه فهز رأسه وقال له :

لقد قلت لك منذ هنيهة اني صديق الملك ، والآن اقول لك اني صديق الملكة ايضاً .

ـ ذلك مستحيل !

ـ لماذا ؟

ـ لأنك اذا اشفقت على الحمل الوديع ، وهو الملك فلا تشفق على الذئبة الضارية وهي الملكة التي ستفترس هذا الحمل غداً أو بعد شهر .

اصغ اليّ ، يا سيدي ، فاني أرى انك لا تعرفها حق المعرفان ، أسمعت بمسالين زوجة الامبراطور كلود التي ملأت فظائعها الأرض .

www.mlazna.com-RAYAHEEN

أقرات عن مرغريت بورجونيا وآثامها الهائلة اعلمت باولئك النسوة الثلاث زوجات ملوك البرابرة اللواتي كن يشربن الدم في الغابات ؟

ان ايزابو دي بافيير قد جمعتهن جميعاً فالويل لك اذا احبتك والويل لك اذا كرهتك فانك لا تستطيع السلامة منها إلا اذا كنت بعيداً عنها .

وكيف تستطيع الابتعاد عنها اذا كنت في قصرها ؟ سل ، يا سيدي ، أي رجل شئت من النبلاء أو من العوام ينبئك باسماء عشاقها وعند ذلك سل ما كان مصير مؤلاء العشاق ؟ .

انك تسمع بسجن هيدلون وعذابه ، ولكنها لا تعتمد على هذا السجن فان لديها تلك النمرة الهائلة التي تحميها ولديها خنجر رئيس حراسها وسيوف رجالها وسموم ساحرها ذلك الساحر العظيم الذي يمدها بقواته الجهنمية ، بل ذلك الشيطان المريد الذي لا يطرده رسم الصليب فانه يطرد جميع الشياطين ما خلا ساتان .

فوقف هاردي وقد اصفر وجهه وارتعش.

فاضطرب جاكين وقال له : ماذا سمعت؟

قال : لا شيء فأتم حديثك .

قال : لقد تم وقالت لك ما اردت قوله فشعرت بعزاء عظيم وآخر ما انصحك به ان لا تذهب الى قصر سانت بول كي لا تراك ايزابو والويل لك اذا رأتك ومالت اليك ومن يعلم فقد تكون تلك الاميرة التي لقيتها في الصباح حدثتها عنك وقد تكون في انتظارك فاهرب ، يا سيدي ، من باريس أو لا تذهب الى قصر سانت بول .

فقال له هاردي : اعلم ، يا جاكين ، اني غداً مساء ساذهب الى قصر سانت بول .

واني راض كل الرضى ولذلك أروي لك حكاية تنقض جميع ما ذكرته لي فاسمع :

كان يوجد فتاة صغيرة تشبه الملائكة وهي صديقتي بل اختي اذا اردت..

وقد عرضت هذه الفتاة يوماً على باب الكنيسة اذ لم يكن لها أم ولا عائلة فأصيبت بحمى هائلة وقتلها الخجل والإهانة .

ولكن إمرأة مرت بهـــا حين عرضها فأخذتها واعتنت بها كأنها بنتها وتبنتها كي تنقذها من العار ، ولكنها لم تستطع انقاذها من الموت ، فماتت وهي تبتسم لتلك المرأة .

أتعلم من هي هذه المرأة .. انها الملكة ايزابو ؟

ـ الملكة !

ـ نعم ، انها الملكة ايزابو ، فاحـذر بعد الآن ان تقول عنها كلمة سوء امامي .

فنهض جاكين والتف بردائه وقال :

اعاهـدك ، يا مولاي ، على ان لا اذكرها بسوء ، لكني قد ملت اليك كل الميل فاسمح لي ان اسديك نصيحة :

ـ قل فاني اقبل نصيحتك شاكراً .

ـ يوجد في قاعة الفندق ثلاثة رجال يشربون .

ـ لقد رأيتهم .

ـ إذن ، فاعلم انهم مقيمون في هذا الفندق لأجل مراقبتك وتجسس أحوالك .

ولا اعلم سبب هذه المراقبة ولكني اعلم انهم لا يريدون لك الخير .

ـ اشكرك لنصحك وأنا قد ملت اليك نفس ميلك اليّ فقل لي أين اجدك اذا احتجت اليك .

ـ في قصر سانت بول .

ثم تركه وانصرف .

فقال هاردي في نفسه : ترى ما هذا القصر العجيب ، ولماذا الناس كلهم يواعدونني على اللقاء فيه :

وما عساي ان القى بين جدرانه أأجد الحياة أم القى الموت مكشراً عن

www.mlazna.com-RAYAHEEN

أنيابه .. اني لا اعلم واذا كنت لا اعلم فما اخاف .. أأخاف الموت خفياً وأنا لا ارهبه ظاهراً .

وبعد ان اعتمد على ان يكل كل أمره الى الاقدار افتقد حسامه وخنجره وأخذ ذلك الكيس الذي جاء به جاكمين فخبأه في صندوق بعد ان ملأ كيسه من دنانيره .

ثم خرج من غرفته ، وذهب تواً الى الجـواسيس الثلاثة ، فنادى ليتبود وقال له :

ماذا يشرب هؤلاء الشجعان ؟

ـ انهم يشربون خمراً كما ترى .

ـ كم شربوا الى الآن ؟

وقد ظهرت على ليتبود علائم التردد وقال :

ست زجاجات .

ـ حسناً فهات زجاجة سابعة وقيد ثمن الجميع على حسابي .

فخرج صاحب الفندق يتعثر باذياله وهو يقول :

لا شك ان الله قد ارسل لي هذا الشيطان ليعاقبني على خطأي .

أما الجواسيس الثلاثة فجعل كل منهم ينظر الى رفيقه وقد تبين في وجهه الرعب .

حتى اذا جاء ليتبود بالزجاجة السابعة قال هاردي للثلاثة : اشربوا هذه الزجاجة أيها البواسل .

ثم مشى مسرعاً الى الباب فوقف الثلاثة كأنهم يريدون ان يتبعوه ولكنهم عادوا الى الجلوس حين رأوا هاردي قد وقف في الباب .

وانمـا ذهب مسرعاً الى ذلك الباب لأنه رأى إمرأة فقيرة ممزقة الملابس سقيمة الجسم تحمل طفلاً بين يديها وتلتمس به صدقة الناس .

فدعاها باسافان بإشارة فدخلت وجلست على كرسي .

وكان ليتبود قد فتح باب المطبخ ، والعرق البارد ينصب من جبينه اذ سمع هاردي يقول له :

اطعم هذه المرأة وأضف ما تأكله على حسابي .

فقال ليتبود في نفسه : لقد قضي عليّ القضاء المبرم ، وهذا هو الخراب الأكيد الذي لا شك فيه .

ثم جاء الى هاردي وقال له :

اني لست ، يا سيدي ، من الكفرة ولا من عباد الأوثان فاني في كل يوم جمعة أوزع كل ما يبقى في المطبخ على الفقراء ، وكل سبت يأتيني الكاهن وسله يخبرك انه لا يخرج من عندي فارغ الجيب وكل أحد أنير الشموع في كنيسة سانت مارتين وكل اثنين ارسل ما تيسر الى دير الفتيات التائبات وكل ثلاثاء أوزع الطعام على باب الفندق ، وأخيراً اني في كل أربعاء اخص الكنيسة بعشر ما اكسبه في ذلك اليوم ، فهل يستطيع مسيحي ان يفعل اكثر ما افعل ؟

فقال له هاردي بملء البساطة : كل ، ولكنك نسيت يوم الخميس .

ـ لقد فاتك يا ليتبود ان الله قد استراح يوم السبت او يوم الأحد فلا اعلم ايهما بالتأكيد ولكني واثق انه لم يسترح يوم الخميس ونحن اليوم في يوم الخميس فاذا خالفت باري الوجود واسترحت في غير اليوم الذي استراح فيه تكون من الكافرين .

ـ أتحسب ذلك ؟

ـ بل اؤكد فأسرع الى اطعام هذه المرأة خير طعام وقيد نفقاتها ..

ـ على حسابك .. ان ذلك ظلم لا يحتمل يا مولاي .

ـ اسرع او أدعو جميع اهل الشارع الى الأكل في فندقك فرفع المنكود يديه إلى السماء ولا ندري أكان يلتمس من الله غفران خطاياه ام يستعيذ به من ذلك الشيطان .

وبعد ذلك مشى مشية القانط إلى المطبخ وجاءت تلك المرأة فجعلت

www.mlazna.com-RAYAHEEN

تأكل وتحكي حكايتها لهردي فكانت خلاصتها انها كانت غسالة فأصيبت بمرض لم تستطع بعده ان تدفع اجرة غرفتها فطردها صاحب الفندق واضطرت الى التسول بعد ان باعت ما كان لديها من معدات الغسل فجعل الجنود يطاردونها إذ ليس لها اجازة تؤذن لها بالتسول وليس لديها مال لتشتري تلك المعدات وتعود الى مهنتها .

فسألها هردي : كم يبلغ ثمن هذه المعدات ؟

فوجف قلب ليتبود رعباً وقالت المرأة نصف دينار .

فأخرج هردي عند ذلك كيسه فكادت عينا ليتبود تخرجان من وجه حين رأى ذلك الكيس محشواً بالذهب .

أما هردي فانه أخذ ثلاثة دنانير واعطاها الى المرأة .

فأخذتها بيد تضطرب وانصرفت وهي تبكي وتدعو الى الله لهذا المحسن الكريم .

وعند ذلك التفت هردي الى ليتبود وقال له :

هات بيان الحساب .

فأجابه بلسان يتلعثم :

مولاي عفوك فاني لا نظير لي في البلاهة .

ـ هات البيان ، فاني اريد أن انقل الى هذا الفندق المجاور لفندقك .

ـ كلا يا مولاي ، انك لا تهين فندقي هذه الاهانة وتفضل عليه سواه .

وكان الجواسيس الثلاثة قد وقفوا وتأهبوا لاقتفاء اثر هاردي فقال ليتبود :

مولاي عفوك فمن اين لي ان اعلم .. اني ..

ـ انك ابله كما قلت لك ، فعد الآن الى مطبخك فقد عفوت عنك .

فأسرع ليتبود الى مطبخه وهو يعتقد ان ضيفه امير متنكر .

اما هاردي فانه عاد الى الجواسيس الثلاثة فقال لهم :

لقد فرغت الزجاجة السابعة كما أرى فاخرجوا من هنا .

فقال له براكايل : كيف نخرج من هنا ونحن مرتاحون ؟

وقال برانكايل : كيف نتصرف ونحن لم نشرب غير سبع زجاجات ؟
وقال بريسكايل : حسناً فنذهب .
فقال له هاردي : لقد فهمت انت كما يظهر ، فاعلموا جميعكم انكم اذا اردتم السلامة فاحذروا ان تراقبوني بعد الآن .
وقد عفوت عنكم هذه المرة فاذهبوا واخبروا الدوق دي بورجونيا ، اني منعتكم عن مراقبتي .
فضم برانكايل قبضته وجرد براكايل خنجره خلسة ، وتقدم برايسكايل منه وقال له :
نعم ، لقد صدر الينا الأمر ان نتبعك ، ولكن صدر الينا الأمر ان لا نمسك بسوء ، ولولا ذلك لعرفت مقدار عداء امثالنا ، فنحن ذاهبون الآن ، ولكننا سنلتقي
فهز هاردي كتفه وانصرف الثلاثة وهم يصخبون ويشتمون ، وبعد هنيهة رآهم هاردي واقفين في إحدى زوايا الشارع يراقبون وهم ينتفضون من البرد ، فقال في نفسه :
لقد أخطأت بطرد هؤلاء المساكين وما عليّ لو أبقيتهم هنا امام النار يصطلون .
ثم عاد الى غرفته وعاد الى التفكير بقصر سانت بول وبما سمعه من اقوال حاكمين ، فقال في نفسه :
لا بد لي من الذهاب ، فقد تقيدت بوعدي ، وهذا القصر يكون فيه الملك والأمراء ورجال البلاط ، فلا يجدر بي ان اكون معهم بهذه الملابس.
وعند ذلك نادى ليتبود فهرول اليه مسرعاً وقبعته تنكس الارض فقال له هاردي :
اسرع وجئني بأشهر خياط في العاصمة .
فأسرع ليتبود ممتثلاً وقد رسخ في باله ان ضيفه امير متنكر .
اما هاردي فقد لبث يفتكر بقصر سانت بول .

www.mlazna.com-RAYAHEEN

٢٧

حفلة الرقص

وفي مساء اليوم التـــالى لبس هـاردي ملابسه الجديدة وسار الى قصر سانت بول أي في الساعة العاشرة من المساء .

وقد لقيه ريدون عند الباب حسب الاتفاق فتأبط ذراعه .

ودخل به من قاعة الى قاعـــة ومن رواق الى رواق حتى انتهى به الى قاعة فسيحة كانت تتلألأ فيها أشعة المصابيح كالشموس وقد غصت بالرجال والنساء ..

وصدحت الأجواق الموسيقية بأشجى الألحان وانثرت الأزهار والرياحين فكانت شبه بسط تغطي الأرض والتفت الأيدي على الخصور ودار الرقص على تلك النغمات فمبقت الوجوه بالارجوان وتغازلت العيون وابتسمت الشفاه وسال العرق على تلك الخدود الموردة فكان يشبه قطرات الندى فوق الورود

وهناك تخلى ريدون عن هردي فوقف حائراً مبهوتاً مما يراه ، غير انه بذل جهده لكبريائه كي لا يظهر عليه شيء من علائم الانذهال ووقف ينظر الى الراقصات ويحسد الراقصين إذ كان يتمنى لو كان له حبيبة يراقصها في تلك الحفلة الكبرى .

وكأنما هذا الحسد ذاكره بتلك الاميرة الحسناء التي دعته الى هذا القصر فجعل يبحث عنها في القاعة فلم يجدها .

وفيما هو على ذلك فتح مصراعا الباب الأكبر وصاح حاجب بملء صوته يقول :

الملكة ايها الأسياد .

فالتفت هاردي كي يرى تلك الملكة التي وصفها له جاكمين وصفاً تقشعر منه الابدان فذهل انذهالاً عجيباً حين رأى ان الملكة كانت تلك الأميرة التي لقيها في الغابات .

وكان الخدم وبنات الشرف قد اصطفوا حول عرش الملكة ، وظهرت الملكة بجمالها الفتان فتوقف الرقص وسكتت الموسيقى وأحدقت العيون بها كالنطاق .

فنظرت الملكة اليهم مبتسمة وقالت :

لا اريد ان يكون حضوري سبباً في منع افراحكم بل اريد ان اكون واحدة منكم وأنال حظي من السرور .

فنظر اليها هاردي نظرة إعجاب وهو يقول في نفسه :

سأعاقب جاكمين شر عقاب لتجاسره على إهانة ذلك الملاك .

وأما هذا الملاك اي الملكة فقد رأت هاردي فقالت للحضور وهي تبتسم:

لقد قلت لكم اني اريد حظي من سروركم أفلا أجد احداً بينكم يمد يده الى اميرة مسكينة ؟

فمدت للحال مائة يد اليها ولكن الملكة اسرعت فقالت لهاردي : هات يدك ايها الشفاليه

فتراجع جميع اولئك الفتيان آسفين ونظروا الى هاردي نظرات هائلة تشف عن الحقد والحسد وجعل يسأل بعضهم بعضاً عن هذا الغريب وكلهم يعجبون بما لقيه من إكرام الملكة .

أما هاردي فقد ارتعش في البدء ارتعاشاً ظاهراً ثم تمكن من ضبط نفسه ودنا من عرش الملكة .

وعند ذلك نظرت الملكة الى من حولها نظرة فهمها الجميع فتباعدوا عن العرش ، فقالت لهاردي :

انك عرفت الآن تلك الأميرة التي انقذتها ولم استطع ان اشكرك كما

www.mlazna.com-RAYAHEEN

كا ينبغي بعد ما خاطرت من اجلي بحياتك .

ـ ان حياتي لجلالتك يا مولاتي .

ـ اراك تقول كا يقول الجميع .

ـ ولكن اقول ما اعتقد به يا سيدتي ، فانك أنقذت مرة ، وذلك منذ عهد بعيد ، فتاة صغيرة كانت ممروضة عند باب الكنيسة وغمرتها برحمتك وإحسانك وحنوت عليها حنو الامهات فماتت وهي تبتسم لك وقد انقذتها من العار دون ان تستطيعي إنقاذها من الموت .

ومتى علمت يا سيدتي ان هذه الفتاة كانت اختي تعلمي ان ما قلته كان حقاً وان حياتي لك .

وقد أصغت ايزابو اليه بملء الانتباه . فلما أتم حديثـــه قالت له : من اخبرك بهذا ؟

ـ رجل يقيم في الجزيرة بشارع فيف .

فارتعشت الملكة ومدت يدهـا مشيرة الى رجل كان بالقرب منهـــا فقـالت له :

أهذا الذي اخبرك ؟

فالتفت هردي الى حيث أشارت فرأى رجلاً واقفـاً على قيـد عشر خطوات ينظر اليه وهو ملتف برداء احمر .

ـ نعم هذا هو ؟

وكان هذا الرجل ساڤان فدنا عند ذلك من الملكة وقال :

ان للشفاليه دي باساڤان ذاكرة جيدة يا سيدتي فهو قد رآك تحـاولين انقاذ الفتاة ولا يزال يذكر ذلك وقد صفح عني ايضاً .

وقد قال هذا القول وانصرف عائداً إلى موقفه .

فاصفر وجـه الملكة إذ عرفت الآن انه نفس ذلك الغـلام الذي حضر تلك الفاجعة منذ اثني عشر عاماً وقالت له بلهجة المتوعد .

لماذا قلت امس انك لست ابن باسافان الملقب بالشجاع وانك لا تعرف باريس من قبل .

وكيف تقول الآن ان هذه الفتاة اختك وهي ابنة لورانس دي ابزيم التي كانت عائشة في منزلك .

فارتعد هردي لما رآه من عينيها وفي نبراتها من دلائل الوعيد وقال لها:

ذلك ياسيدتي لانهم قبضوا عليّ وأنا غلام دون ان اعرف السبب والقوني في أعماق سجن هيدلون فأقمت فيه اثني عشر عاماً فخفت اذا قلت الحقيقة ان يعودوا بي إلى ذلك السجن بل الى ذلك القبر الذي خرجت منه بأعجوبة لا يدرك سرها غير الله .

– صف لي اولئك الذين قبضوا عليك .

– كيف أصفهم يا سيدتي وأنا لا اعرفهم .

فنظرت اليه محدقة كأنها تريد أن تبحث في اعماق قلبه وقالت :

ألا تعرفهم ؟

– كلا يا سيدتي ولو عرفتهم لتبعتهم إلى اقصى المعمورة وانتقمت منهم افظع انتقام .

فتنفست الملكة الصعداء واطرقت مفكرة وهي لا تعلم أترجعه الى ذلك السجن ام تعهد الى خنجر ريدون بقتله .

ولكنها شعرت بعاطفة تغلبت على ذلك الفكر فابتسمت له وقالت :

يسؤني انك لا تعرف اولئك الاشرار فاني كنت أعاقبهم شر عقاب إذ لا بد لي من حماية من اراد افتدائي بحياته .

فاضطرب هردي وقال :

– ان حياتي لك يا سيدتي ولا اقول ذلك بفمي كما يقوله الآخرون بل اقوله من كل قلبي فقد احسنت الى روزالي وليس ذلك بعجيب ان اقدم لك حياتي .

فارتعدت الملكة ارتعاداً ظاهراً ولكنها ضبطت نفسها وقالت :

www.mlazna.com-RAYAHEEN

انك قدمت لي حياتك وأنا قبلتهـا فقل لي الآن أتدافع عني اذا كنت معرضة للخطر وتحول بيني وبين هذا الخطر ؟

ـ مري أطع .

ـ أتعزم عزماً اكيداً على قتل اعدائي .. قل .. بل اصغِ إليّ .. انـه يوجد في باريس بل في هـــذا القصر عدو شديد لي أحرمني الرقاد ونعيم العيش واني واثقة من ان هذا العدو قد قضى عليّ بالقتل بالسم او بالخنجر فهل تريد انقاذي ؟

ـ سيدتي لقد بعتك حياتي فمن هو هذا العدو ؟

ـ انه امرأة .

فاضطرب هردي وقال : امرأة !

ـ أراك متردداً فكيف ذلك ألأنها امرأة لا اقدر على رد كيدها ... ألانها فتـاة غادرة ماكرة من يدنو منهـا يدنو من الموت .. أمن أجل ذلك خفت وأرتعدت وانت تقول انك وهبتني حياتك .

ـ سيدتي انها امرأة .

ـ لا تخف إذ يوجد حواليها رجال تضطر إلى مقاتلتهم بالسيف ولا سيما ذلك الشيخ شامديفر الذي احذرك منه فقد قتل الى الآن ثلاثة من رجالي الأوفياء فاقتل هذا الرجل وسننظر بعد ذلك بشأن المرأة .

ـ اذا كان ذلك فاني مستعد يا سيدتي وسأتحرش بهذا الرجـل وهو سيموت من يدي ما زلت تقولين انه يريد موتك ولكن أتأذنين لي ياسيدتي ان اسألك عن هذه الفتاة ؟

ـ سأريك إياها .

ثم مدت يدها فقبلها وقد ارتعش حين شعر بأن تلك اليد الناعمة كانت تضغط على شفتيه .

وعند ذلك قالت له :

اذهب وكن متأهباً في الليل والنهار إلى ان يأتيك رسولي فمتى جاءك فاعلم ان الساعة قد دنت ، ساعة انقاذي او ساعة موتك .

أما الفتاة فسأريك اياها غداً لأني سأنتظرك غداً ليس هنا في قصر الملك وبين هذه الجماهير التي ليس لي صديق بينها بل في قصري .

وهناك اختلي بك فتعلم من هي ايزابو دي بافيير .

فتراجع هردي وابتعد عن الملكة فاختلط بين الناس وقد كاد يضيع رشاده فجعل يقول :

أأنا اقتل امرأة .. حق هذا الرجل فماذا اساء إليّ فاقتله .

ولكن نظراتها احرقت دمي واذا كانت معرضة للأخطار كما تقول فقد وجب عليّ انقاذها ألم تنقذ هي روزالي ألم أبعها حياتي ؟

وقد وقف بعيداً ينظر إلى الملكة فرأى رجلاً واقفاً بالقرب منها وجعل يكلمها بصوت منخفض .

فعرف هردي ان هذا الرجل كان الدوق دي بورجونيا وكان يود لو أضاع سنتين من عمره فيعلم بما يتحدثان به .

اما الملكة فانها كانت تبسم له وتحدثه وهذا الذي دار بينهما من الحديث فقد قالت الملكة :

غداً في الليل يكون الدوق دي اورليان عندي وسأصرفه في الساعة الحادية عشرة ليعود الى قصره ولا بد له ان يمر في شارع باريت .

فقال لها جان :

غداً في الساعة الحادية عشرة يكن له في هذا الشارع رجل لا يهاب الموت ولا رحمة في سيفه .

– احذر ان يكون من رجالك المعروفين .

– كلا ليس من رجالي فاذا قبضوا عليه لا يعلمون اني أنا الذي دفعته وانك انت التي دفعتني .

www.mlazna.com-RAYAHEEN

هذا ما كان يتحدث به الاثنان فإنهما كانا يأتمران على قتل شقيق الملك وهما يضحكان ويتبسمان كأنهما يتباحثان بشأن غرام .

وفي تلك الساعة فتح مصراعا الباب الأكبر وصاح الحاجب قائلاً :

جلالة الملك .

٢٨

المجنون

ولكن الحضور لم يحتفلوا بالملك فانهم ما لبثوا ان احنوا رؤوسهم حتى عادوا إلى مشاغلهم ولهوهم .

أما شارل السادس فانه ذهب مسرعاً إلى عرشه وجلس على كرسيه ونظر نظرة طويلة إلى الحضور ثم القى رأسه الى الوراء وجعل يضحك ضحكاً عالياً .

وكان لابساً ثوبه العادي الذي لم يكن يلبس سواه وهو ثوب من المخمل الأسود على أتم البساطة وفوقه وشاح عريض .

ولكنه مع ذلك الثوب البسيط كان واضعاً على رأسه تاج فرنسا الذهبي المرصع الذي لم يكن يلبسه الملوك إلا في الحفلات الرسمية الكبرى ويلبسون معه الملابس الرسمية ايضاً .

غير ان شارل السادس لبسه في حفلة راقصة وظهر فيه بذلك الثوب البسيط الذي كان يلبسه العامة في ذلك العهد فدل بما فعله على استفحال جنونه .

وقد لمس تاجه باصبعه وقال :

انه يبرد حرارة صدغي فهو تاجي الملكي وانا الملك .

وعند ذلك ابتعد الدوق دي بورجونيا عن الملكة وسار على مرأى من جميع الحاضرين الى حيث كان الدوق دي اورليان شقيق الملك فجلس بجانبه وجعلا يتحدثان ويضحكان بحيث رسخ في اذهان جميع الناس ان الصلح بينهما قد تم على ما يرام .

وكان الدوق دي بيري عم الملك ، وهو احد الزعماء الثلاثة ، ينظر اليهما ويقول في نفسه :

انهما يأتمران دون شك على قتلي .

وقد راعه ما رآه من تألب النبلاء حولهما ورأى الملك وحده جالساً على عرشه لا يحيط به أحد كأنه غير موجود في تلك الحفلة فقال في نفسه :

اذا كان بورجونيا واورليان قد اتفقا فلما لا يتفق بيري وقالوا فيكون حليفي الملك .

وعند ذلك مشى الى الملك .

وكانت ايزابو تراقبه وقد ابتسمت ابتساماً هائلاً حين رأت انه لا يدنو منه احد المقربين فنزلت عن عرشها وبعد هنيهة كانت بجانب هردي حيث كانت تحادثه دون ان يسمع حديثهما احد فقالت :

— اذن ان حياتك لي ؟

قال : هو ذاك يا سيدتي .

— وانك تكون لي بجملتك دون تردد او جدال .

— دون شك يا سيدتي فمري اطع ولو كان في ذلك ما اكره .

فنظرت اليه نظرة ارتعش لها وقالت :

انك ستقتل حارس عدوتي وهو شامديفر أما هي فقد قلت لك انك ستراها غداً ولكن اصبر فقد تراها الآن .

أما الدوق فانه اقترب من ذلك الملك المنكود الذي ابتعد عنه الجميع حتى انه لم يتعطف احد عليه بنظرة اشفاق وقال له :

مولاي اخلع هذا التاج ..

www.mlazna.com-RAYAHEEN

قال : لماذا ؟

ـ ألا ترى يا مولاي انه لا يجب لبسه في مثل هذه الحفلة .. انظر إليّ يا مولاي تجد إني أنا ذلك المخلص الوحيد الذي تجاسر على ان يقول لك مثل هذا القول فاني عاهدت نفسي على ان اكون حارس تاجك العظيم .

ولذلك اقول لجلالتك . مولاي احترم تاج فرنسا اذا اردت ان يبقى في عيون الناس كما هو اي مثال تلك القوة التي وهبها الله لرحل .

ـ ماذا ؟

فندم الدوق على ما قاله وقال في نفسه :

لا شك اني مجنون مثله لاعتقادي بأني استعين به على هذين الرجلين القويين ثم قال له :

مولاي اني التمس منك خلوة لاخبركم بما يجري .

فنظر الملك نظرة تائهة إلى الناس ثم قال له :

اطمئن يا عمـــاه انك تريد ان تكلمني عن تاجي فاني أشعر بثقله على رأسي .

ـ اخلعه يا مولاي .

ولم ينتبه الملك لهذه التورية ومضى في حديثه فقال :

اني اشعر بأنه ثقيل على افكاري المظلمـــة التي تجول في رأسي شبه الأشباح ألم ترَ اشباحاً ايها الدوق ؟

أمـــا انا فقد رأيت نعم قد رأيت اشباحاً وان افكاري تشبه هـذه الأشباح التي لا ازال اراها .

ـ سكن روعك يا مولاي ولنخرج من هذه القاعة فأحادثك ملياً .

فوضع شارل احدى رجليه على الاخرى واسند ذقنـه إلى يده وجعل ينظر الى الأمام وهو لا يرى غير تلك الأشباح التي كان يمثلها له الجنون .

فقال له الدوق : مولاي اصغ إليّ .

ـ اسكت واذهب عني فاني أريد ان اكون وحدي لأرى افكاري اي تلك الاشباح .

ومهما يكون من جنون الملك فانه كان ملكاً وقد قال : « اريد » فلم يبق سبيل لنقض ارادته .

ولذلك لم يجد الدوق بداً من الامتثال فانحنى وانصرف صاخباً ساخطاً .

ولبث الملك وحده يفتكر وهو ينظر إلى الناس الذين كانوا منشغلين عنه بأفراحهم ثم جعل يقول كأنه يحدث نفسه .

نعم ان هذا التاج ثقيل فهل هو من الذهب ام هو من الحديد .

على انه كيف كان فهو من المعدن فهو يسكن حرارة الجبهة في البدء ولكنه لا يلبث ان يشد على الرأس حتى يكاد يقطع العروق .

وبعد فلماذا يكون هذا التاج لي لا لغيري .. وأي ذنب ارتكبته فأعاقب بهذا التاج .

وعند ذلك جعل يرتجف فان نوبة الجنون قد فاجأته فوقف وقال بصوت جهوري سمعه جميع الناس .

لماذا يكون هذا التاج لي ولا يكون لغيري ؟

فدهش الحاضرون وساد السكوت بينهم واحدقت الأبصار بالملك ووقفوا يصغون إلى ما يقول :

أما الملك فان عينيه قد توقدتا واشتدت به النوبة فقال :

نعم ولماذا التيجان ومن هو السيد .. أهو أنا او انتم .. لا انا ولا انتم واني اعلم يقيناً انه لا سيد بيننا فقد قالت لي الأشباح هذا القول .

ثم قهقه ضاحكاً وقال :

أأكون السيد .. وعلى من هذه السيادة .. ومن الذي قضى بأن يكون في العالم اسياد .

تكلموا .. قولوا .. اني اريد ان اعلم .. انت يا بورجونيا وانت

www.mlazna.com-RAYAHEEN

يا اورولیان وانت يا بيري انتم جميعكم تريدون ان تكونوا اسياداً أفلا تقولون لي لماذا ستصيرون اصحاب الشأن .

أيها الكلاب الكلبة تدعون انكم تستطيعون الحصول على اعجاب الناس فلا تنالون منهم غير الحقد ولو علمتم الى اية هوة من الاحتقـــار قد نزلتم لاشفقتم على نفوسكم .

وقد اشتد تهور الملك حتى لم يعد يدري ما يقول .

وكذلك جمهور النبلاء فانهم لم يكونوا يفهمون شيئاً من كلامه إلى ان اتضحت اقواله بعد التمتمة فسمعوه يقول :

انكم تطلبون السلطة ولا شيء يضحـك في الوجود مثـل هيأتكم حين تتلبسون بملابس الجد وتقولون انه لا بد لنا من القوة لقيادة الرجال بل لقيادة اطماعكم ايها اللصوص .

انكم كاذبون ايهـــا الكلاب في ما تضمرون ولو كان هـذا هو الذي تضمرونه حقيقة في بطونكم فلماذا تكونون انتم هؤلاء الأسياد لا سواكم .

اذن انتم تريدون تنازع السيادة بالسيف بالخنجر بالسم بالشنق بالدسائس.

كلا أيها اللصوص ليس الحرص على مصلحة النـاس الذي يدفعكم الى نيل القوة بل ما فطرتم عليه من النهم والجشع والتمادي في الشهوات .

وهنا جعل الملك يضحك بصوت مرتفع حتى ان النساء وضعن اصابعهن في آذانهن وبهت الرجال لهذه الاقوال التي لم يسمعوها منه في أشد حـالات جنونه ومضى الملك في حديثه فقال :

ايها اللصوص القتلة السفاكون إني أرى الشعوب تشبه قطعـان الخراف تلتمس المرعى .

ويا ايتها الشعوب الجاهلة البليدة انكم ترون اولئك الاسيـاد يسرقون شيئاً من قوتكم فتتباهون وتفتخرون بما اعطيتم .

اما انا فاني اعظم منكم كرماً لأني اعطي تاجي .

ثم انتزع التاج عن رأسه بعنف شديد وصاح بأعلى صوته قائلاً :

اني لا اريد هذا التاج فمن يريده .. خذه يا عمي ... التقطه يا أخي انشب براثينك فيه يا ابن عمي .

ايها اللصوص أنا هو شعب فرنسا فانهشوا من لحمي واشربوا من دمي ونالوا من السلطة ما تشتهون وهذا هو التاج فخذوه لاني لا اريده .

ثم القى ذلك التاج إلى الارض ورفسه برجله فوثب الى آخر القاعة وتدحرج على الارض والتطم بعمود فتكسر ما كان عليه من اللآلىء واليواقيت.

وعند ذلك سقط الملك على كرسيه وهو يقول :

انا هو شعب فرنسا فانظروا الى الشعب كيف يموت .

وقد جحظت عيناه واصطكت اسنانه وارتجفت ركبتاه وجعل يصيح قائلا :

انهم يقتلوني .. انهم يمتصون دمي .. انهم ينهشون لحمي .. انظروا إليّ كيف اموت .

ثم صاح صيحة منكرة وسقط على السجادة من كرسيه فلم يعد يسمع غير صوت انينه .

وكانت امرأته ايزابو تراقبه عن بعد وهي تبسم كأنما كان يسرها عذاب هذا المنكود وتقول في نفسها :

ربما كانت هذه النوبة آخر نوباته وعند ذلك ..

وكان هردي بجانبها ينظر ايضاً الى عذاب الملك وهو يرتعد اشفاقاً على هذا الرجل الكريم الذي انقذه من السجن فلما سقط الملك على السجادة وجف قلب هردي وحاول ان يثب .

ذلك انه رأى تلك الفتاة التي يلقبونها بملاك القصر تلك الفتاة التي فتحت له باب السجن وقالت له :

« لا تبك فقد انتهت ايام شقاؤك » .

انه رأى تلك الفتاة قد دخلت واسرعت الى الملك فجعل الناس يقولون من حولها ، هوذا الملكة الصغيرة هوذا ملاك القصر .

والتفت هردي إلى الملكة فرأى عيناها قد احمرتا وانها تنظر الى الفتاة نظرات هائلة فخاف من هذه النظرات وتراجع منذعراً .

www.mlazna.com-RAYAHEEN

ولكن الملكة قبضت على يده وقالت له :

أنظر .. هذه هي عدوتي الهائلة .. هذه هي التي تحفر بيدها قبري . هذه هي التي أريد ان تقتلها فاحذر فانك وهبتني حياتك .

أما هذه الأقوال فانها بلغت الى مسمع هاردي ولكنه لم يفهم منها شيئاً في تلك اللحظة ، بل فهمها بعد ذلك ، اذ كان كله عيوناً تنظر الى أوديت .

أما أوديت فانها ركعت أمام الملك فأخذت يده بإحدى يديها ووضعت يدها الأخرى على جبهته وجعلت تقول :

مولاي العزيز ألا تراني .. تشجع ، مولاي ، وانهض فاني أذهب بك الى غرفتك .

وقالت ايزابو لهاردي :

عد الآن الى فندقك وسيكون ما اريده غداً أو بعد أسبوع فكن متأهباً وسأرسل اليك من يدعوك .

وأما أوديت فانها لم تكد تضع يدها على جبهة الملك وتكلمه بصوتها الحنون حتى حدثت تلك الاعجوبة أيضاً ، فانقطع أنينه كأنما قد سحرته بالفاظها فأخذ يتمتم كلمات لا تفهم بصوت خافت كما يتكلم الحالم ، ثم فتح عينيه فدهش لما هو فيه ونهض متعباً ببطء .

وكان الناس ساكتين واجمين فنظر الى أوديت وقال لها :

اخرجي بي من هذا المكان فان انفاس الناس فيه تقتلني .

قالت : توكأ علي ذراعي ، يا مولاي العزيز وهلم بنا .

فامتثل الملك لها طائعاً كالطفل حتى اذا توارى الاثنان عن الانظار اطفئت الشموع كلها فالتفت هاردي الى ما حواليه فلم ير ايزابو دي بافيير .

فعاد الى الفندق الذي كان فيه ، وهو لا يعلم كيف خرج من ذلك القصر وقام كل ليلته ، وهو يفتكر بأوديت ، فلم ينتبه لنفسه إلا حين أتى الصباح .

قصر دي بورجونيا

كان هاردي يفتكر كل ليلته بطريقة تمكنه من انقاذ أوديت، ولو بتعويض نفسه للخطر [illegible] حين انقطعت في مياه النهر .

[illegible] طريقة [illegible] الملكة أو منعها عن ارتكاب هذه الجناية فلم يخطر له غير خاطرين :

أحدهما ان يسرع الى تحذير الشيخ شامديفر [illegible] الى [illegible] عظيم [illegible] الفضل من الدوق دي بورجونيا .

[illegible] حيلة [illegible] الحياة .

وقد مضى [illegible] أيضا [illegible] يفتكر [illegible] اقبل الليل فطلب زجاجة خمر وجعل يشرب [illegible] طريقة صالحة ..

[illegible] فأحسن هاردي استقباله [illegible] كأسه وقال له [illegible] انهم لا يتحدثون [illegible] فقد كان للملك تأثير عظيم في حفلة أمس فان الملكة ترمقك بنظرها فيما يقال .

فبدت علائم الشر على وجه تونفيل وقال :

ـ اسألك بمعذرتي فاني لم اتعود هذا النهج في الحديث

ـ ولكنك ستتعود أيها البارون

ـ المهم في ذلك ان مولاي الدوق

أيضاً .

ـ الحق كنت

ـ إذن فاعلم ان مولاي الدوق

باتيته لأقول لك

كلا ، لا تقل

ـ وهل انت مصمم على ان تتبعني؟

ـ بل عليّ ان اتقدمك ايها البارون

ـ اذا كان ذلك فهلم بنا الآن

ـ لأن مولاي الدوق

ان اعرض عليه سيفي فهلم بنا .

فذهل هاردي وقال :

ـ قل مائة كلمة ايها الصديق

ـ لا حاجة الى ذلك والذي اريده ان آراءك

بالك ايها الشيفاليه انه اذا رضيت

ـ قل ما شئت

فذهل هاردي وقال :

اني لا ارضى ان يتخلى لي أحد عن نفوذه ولست في حاجة الى نفوذ أحد من الناس .

ـ ارى انك تهزأ بي ، فاعلم انك حين تنتهي من مقابلة مولاي الدوق يكون لي معك وقفة وراء دي سانت جرمين .

ـ ولماذا تريد ان تذهب الى هناك ؟

ـ ألا تعلم ما اريد ؟

ـ انك تريد قتلي كما يظهر دون ان اعرف السبب على اني لا أخالفك فيما تريد ، ولكن لماذا لا تفعل ذلك الآن ؟

فجعل تونفيل يشتم ويضم قبضتيه غيظاً وعاد هاردي الى الحديث فقال :

ـ ولماذا نذهب ايضاً الى ما وراء الدير فاننا اثنان هنا وسيخرج واحد منا فيذهب الى الدوق ويخبره بملء الاسف عن السبب في تخلف الآخر .

ـ انك وقح وسأرجع وقاحتك الى فمك واما الآن فاني مضطر الى الابقاء عليك فاغتنم هذه الفرصة .

فابتسم هاردي ابتساماً هائلاً وقال :

انك تحاول مهاجمتي وأنا اقسم بانني لم اكن مضمراً لك شيئاً من السوء ، بل اني احسنت استقبالك وجالستك على الشراب ، فجعلت تهينني وانت في منزلي .

ثم اتيت تقول لي انك مضطر الى الابقاء عليّ لصدور الأمر اليك بذلك أما أنا فاني لم اتلق أمراً من احد بهذا الصدد ولو تلقيت مثل هذا الامر لما عملت به فجرد حسامك ولنقتتل هنا .

وعند ذلك جرد حسامه ووقف في موقف الدفاع فجرد تونفيل نصف حسامه ، ثم اغمده وقال :

الى الغد فقد تلقيت امراً لا يسعني مخالفته .

فهز هاردي كتفيه وقال :

إذن ، الى الغد في الساعة التاسعة وراء الدير .

www.mlazna.com-RAYAHEEN

وخرج الاثنان فسارا تواً الى قصر الدوق.

أما الدوق دي بورجونيا فقدكان يتأهب لاستقبال الشيفاليه هاردي دي باسافان .

وذلك انه كان يريد ان يعهد اليه بقتل الدوق دي أورليان ، شقيق الملك، وهو يتوهم انه يرضيه بمنصب أو بمال فيطعنه طعنة خنجر بين كتفيه فتكون القاضية .

ولكنه كان يقول في نفسه : ان هـذا الشيفاليه قد يرفض الاقدام على قتل أورليان فاذا كان ذلك فلا بد من قتله كي لا يبوح بهذا السر، ويجب ان نتأهب لأعدامه .

ولذلك فقد اعد الكمين وتأهب لقتله في قصره اذا أبى الامتثال .

وقد اتى بكيس ملآن من الذهب فوضعه بيده على مائدة في القاعة كي يغره في البدء بالمال .

وكان رفاق تونفيل الثلاثة يرونه يفعل وهم لا يعلمون مراده .

وبعد ان وضع الكيس على ما تقـدم ادخل اولئك الثلاثة الى غرفة لا يستطيعون ان يسمعوا منها ما يدور من الحديث في القاعة وقال لهم : انكم تبقون في القاعة الى ان اصفق بيدي فتخرجون ، واذا لم افعـل فابقوا فيها وسيضم اليكم تونفيل .

فقـال غليوم : ومتى خرجنا ، يا مولاي ، اتقسم هذا الكيس ؟

قال : نعم.

ثم اخرجهم من القاعة فالقى اليهم بقية التعليمات .

وكان في آخر هـذه القاعة باب يشرف على سلم ينتهي الى القاعة فدلهم على السلم وقال لهم :

انكم اذا لم تستطيعوا قتل الرجل فادفعوه الى هذا السلم .

وذلك انه خاطر بحياته في تنفيذ إنقاذ الملكة فطلبت اليه الملكة
ان يقتل امرأتيه بالسم ، فأجابها بانه لا يستطيع ذلك لانه
يوجد في القاعة العليا كيس كبير محشو بالدنانير ، فعندما تصعدون اليها
يجيء لكل منكم ان يأخذ من هذا الكيس قدر ما يستطيع حمله . فاذا
هذا اذا يقود الكيس ... فاصعدوا الى هناك ... فقالوا
سيأتي رجل وهذا الكيس مختص به فاذا اخذ الرجل الكيس فلا يدعه
النزول الى هنا وعند ذلك
... فقال برانكايل : وعند ذلك لا يتصعد ابدا .
قال : هو ذاك ، فقد فهمتم مرادي ، فاعلموا اني اريد ان يكون هذا
القتل دون اضطراب ، وحتى فكلتموه تعلموا ما يجب ان تفعلوا
فقال برانكايل : كيف لا نعرف يا مولاي ، فانا نعلق بكيس
فيه هذا الأبله الذي تجاسر على إغضابكم ثم نربط حجراً بالكيس ونلقيه
الى مياه السين فلا يعلم احد بما جرى فيغيب الأبله ...
فوافق البرنس على ذلك بإحناء الرأس وصعد الى القاعة
...

هاردلي والدوق

... : فقال انه ...
... : قال

كان تونفيل قد خرج من الفندق مع هاردي ، كما تقدم ، فسار به قوا
الى قصر الدوق دي بورجونيا ، فلما وصلا اليه كان الظلام قد خيم على
... باريس .

وهناك عهد بهاردي الى احد الخدم وافترق عنه فادخل الخادم الى قاعة
السلاح الرهيبة وتركه وانصرف ...

فوقف هاردي في تلك القاعة ينتظر أن يرى نوراً أو يسمع حساً أو يرى قادماً ولكن الظلام كان مخيماً والسكون شاملاً كأنما قد خيم على هذا القصر سكون الموت .

ولم يكن في تلك القاعة المتسعة غير شمعة واحدة موضوعة على مائدة ترسل نوراً ضعيفاً مضطرباً منحصراً في زاوية من زوايا تلك القاعة .

فدنا هاردي من تلك المائدة فوجد عليها كيساً ضخماً قد ثقب وسطه وهو مفعم بالذهب .

فأدار للحال ظهره الى هذا الكيس ومشى ببطء فرأى امامه امرأة صفراء الوجه سوداء الملابس وقد برزت من ستار فكانت تشبه الصورة في الإطار وتمثلت لهاردي صورة سحيرة لم يستطع ان يراها في الظلام

ولكنه رأى لفوره ان عيناها تتحركان فتراجع خطوة إلى الوراء ثم رأى إن تلك الصورة قد خرجت من إطارها ومدت يدها اليه فانحنى احتراماً عنيفاً وقال بصوت مختنق :

سيدتي .

فأسرعت المرأة الى وضع اصبعها على فمها إشارة الى وجوب السكوت ، ثم نظرت الى ما حولها نظرة مضطربة وانحنت نحو هاردي فهمست في اذنه قائلة :

اهرب .

وعند ذلك تراجعت مسرعة وتوارت وراء الستار

فلما ثاب هاردي من دهشته وجد ان المرأة قد اختفت وكانت هذه المرأة مرغريت دي هينوت زوجة الدوق دي بوربون

فعاد الى تلك المائدة التي كانت عليها الشمعة وهو واجف القلب مضطرب الحواس وجعل يسائل نفسه فيقول :

لماذا الهرب ؟ .. وما عسى يصيبني ؟.. وما هذا الكيس المملوء بالذهب

ولماذا هذا السكوت وكيف تنصح لي هذه المرأة ان اهرب .

وقبل ان يجيب نفسه على هذه الأسئلة فيعلم اذا كان يجب ان يهرب ام يبقى فتح باب وتدفق النور في القاعة إذ دخل خادمان يحمل كل منهما مصباحاً بأربعة انوار ووراءهما رجل قال بلهجة تدل على السرور .

اشكرك ايها الشفاليه لتلبيتك دعوتي .

فالتفت هاردي ورأى الدوق دي بورجونيا فزال كل ما داخله من الرعب ووضع الخادمان المصابيح على المائدة وانصرفا فجلس الدوق على كرسي وعاد الى الترحيب بهاردي .

ولكن كليهما كان يكلم صاحبه ويكلم نفسه فيقول الدوق :

هذا الرجل الذي احتاج اليه ، فانه حين يغضب يشبه الذئب حين يكشر عن انيابه ، وقد ملكت قياده بفضل هذا الكيس .

وكان هاردي يناجي نفسه فيقول :

هذا هو السيد الوحيد الذي يستطيع إنقاذ اوديت ، فانه قادر على ان يخيف الملكة فلأعلم الآن ما يريده مني .

وبعد ذلك افتتح الدوق الحديث فقال :

ان تونفيل أكد لي بأنك تريد الدخول في خدمتي

ـ هو ذاك يا مولاي ولكن بشرط .

فنظر الدوق الى الكيس ثم ضحك وقال :

اني اعرف شرطك ايها الشيفاليه .

فاصفر وجه هاردي وقال :

ـ أتعرفه يا مولاي ؟

فوضع الدوق يده على الكيس وقال :

نعم نعم اعرفه ، فلنبحث الآن فيما أرجو قضاؤه منك .

فمسح هاردي العرق عن صدغيه وقال وهو لا يعلم كيف عرف شرطه ..

www.mlazna.com-RAYAHEEN

تفضل يا مولاي وقل ما تريد .

فأطرق الدوق مفكراً وقد أخذ وجهه يتجهم تباعاً حتى تبين فيه الحقد ثم قال بصوت أجش

يوجد في باريس عدو لي لا بد له ان يقتلني اذا لم اقتله .

وفي هذه الليلة سيمر هذا الرجـــل بشارع بربيت وهو شارع مقفر لا يطرقه احد في الليل ، والله يعلم انه يوجد أسباب تقضي بقتل هـذا الرجل قتلاً خفياً لا يعلمـون من أين أتى كما تنقض الصاعقـة وهم لا يعلمون من اين انقضت ..

اما هذه الصاعقة فستكون انت ولا يعلم من الذي دفعـــك الى قتل هذا الرجل .

ولو سقطت هذه الصاعقة في هذه الساعة على قيد خطوات من هاردي لما تنبه لها لفرط اضطرابه وما تولاه من الخجل والغضب والذهول .

ورأى الدوق قتاله وبسالته فجاء يقترح عليه ان يقدم على قتل رائـع بشكل لا يقدم عليه إلا اللصوص

ما دعا هذا الدوق وهذه الملكة الى حسباني من الأثمة السفاكين ؟ ألعل في هيئتي ما يدل على ذلك ؟

اما الدوق فقد قال له وهو لا يعلم حقيقة ما يجول في نفسه :

لا تجهد نفسك بالتفكير لتعلم الأسباب التي تدعوني الى قتل هذا الرجل فقد دعوتك الى قتله وسأكافئك خير مكافأة وتكون بعد ذلك من رجـالي الأخصاء فأضمن مستقبلك .

فقال له هاردي : ماذا يدعى هذا الرجل ؟

فابتسم الدوق وقال في نفسه : لم يبق شك بأني ملكته ، ثم قال له :

هل سمعت باسم لويس دى اورليان ؟

فبذل هردي جهداً عنيفاً كي يضبط نفسه ويمنع ظهور اضطرابه وقال .
نعم لقد سمعت الناس يتحدثون بغض الاحيان عن شقيق الملك .
— أتعرفه بالنظر ؟
— نعم اعرفه .
— ما دلالتك تعرفه فلا يمكن حدوث خطأ واعلم ان المراد قتله هو الدوق اورليان وسيمر وحده بذلك الشارع فلا يصحبه غير خادمين بنيران طريقه فلا تهتم .
ثم أخذ الكيس وقال : لننظر الآن في شرطك الذي تريد ان تقترحه ..
— لي سؤال قبل ذلك أريد ان اسأله .
فقطب الدوق حاجبيه وقال : سل .
— لقد اتفق لي امران دهشت لهما دهشاً عظيماً ولا اعلم سببهما .
وذلك ان الملكة دعتني اليها وامرتني ان اقتل اثنين رجل وامرأة .
وانت دعوتني اليك وطلبت إلي ان اقتل شقيق الملك فماذا ؟
— ولا تحسبني اعلم السبب الذي يدفعك إلى قتل الدوق اورليان فليس ذلك من شأني ولكني اريد ان اعلم لماذا اختارتني الملكة لمثل هذه المهمات المنكرة وما تبين لي في وجهي مما يدل على النهم لحز اعناق السفاكين فقل أتريد ان تخبرني كيف خطر لكما ذلك .
وقد كان هردي يتكلم والشك يخامر قلب الدوق تباعاً حتى اذا أتم حديثه وضع يده على كتفه وأجابه قائلاً :
ذلك لانباء أتتنا قائلة عشرة رجال ظفروا بك .
— بل اثني عشر رجلاً .
— هو ذاك فمن كان مثلك يستطيع ان يدخل في الظلام الى غرفة رجل شيخ ويقتله اغتيالاً .
— نعم .
— وان يكمن في الطريق لرجل نبيل آمن ويقتله غدراً .

ـ نعم نعم هو ذاك

ـ وكل هذا لأنك رأيتني أقاتل قتال الأبطال أليس كذلك ؟

ـ دون شك فلا يسعني إلا الاعتراف بأنك من أمهر رجال السيف ولذلك وثقت بك هذه الثقة .

ـ اذن فاعلم انك مخطىء .

ـ ماذا تقول ؟

ـ اقول انك مخطىء منخدع

وقد تغير لونه عند ذلك وبرقت عيناه وضرب الكيس الذي كان على المائدة بيده فانقلب الى الأرض وتناثر ما كان فيه من الذهب .

ثم مشى إلى الدوق فوضع يده على صدره وقال له :

لقد قلت لك انك مخطىء فحدق بي أتحد في وجهي ما يدل على إني من أهل السفك والغدر . انك أهنتني اهانة اغتفرها لك ولكني امنعك ..

فاصفر وجه الدوق وقال :

ـ تعم اني امنعك من ان تمس شعرة من رأس الدوق أورليان فارجع عن هذا الحقد الشائن اكتم سرك واقسم على ذلك بالشرف .

واما اذا نلت هذا الدوق بأقل سوء فاعلم اني أكون خصمك اللدود واقاتلك بالحيلة وبالقوة حتى اقتلك والآن انشودعك الله .

فضحك الدوق ضحكاً هائلا وصفق بيديه وهو يقول :

ـ كلاهما لا يخرجون من قصر دي بورجونيا بمثل هذا السر .

ولم يكد يتم هذا القول حتى توارى عن الانظار فدخل الحجاب اعداء هردي الاربعة وهم : تونفيل ، وغليوم ، وكين ، وكورتليز ، وتقدموا اليه وعلائم الشر بادية في وجوههم .

فأدرك هردي مقاصدهم ورفس كيس الذهب برجله وهو يقول :

اقتسموا ثمن دمي قبل ان تسفكوه .

فقال تونفيل : انك طويل اللسان ايها الفتى .

ـ واني طويل السيف ايضاً ألم تواعدني إلى اللقاء غداً يا تونفيل فابطش بي الآن فان معك من يحميك .

فقال غليوم : ويحك أيهـــا الغر أتحسب ان سيفك سيتشرف بمقارعة سيوفنا الأربعة .

ـ لقد تشرف بهذه المقارعة من قبل وهذه اثاره لا تزال بادية في وجوهكم .

فزأروا الأربعة زئير الأسود إذ عرفوا في تلك اللحظـة انه هذا الرجل قاتلهم في تلك الخارة وجرح وجوههم وانقذهم الدوق اورليان منـه فهجموا عليه هجوماً واحداً .

فوقف هردي موقف الدفاع وجعل يقاتلهم ويصيح قائـلا : احذروا وجوهـكم .

فيهيجون لهذه الإهانة هياج الضواري وينقضون عليه .

وقد ضاعف اليأس قوته فجرح تونفيل في عنقه وكورتيز في كتفه .

وكان يثب بينهم بخفة عجيبة فلا يحدون منه مغمزاً للطعن حتى أصاب الأربعة بجروح مختلفة ولكنها خفيفة فهاج هياجهم وحملوا عليه حملة منكرة فأصابوه بمثل ما أصابهم .

وسالت دماؤه وصاحوا كلهم بصوت واحد قائلين :

لقد قضى عليك واصبحت من اهل الموت .

ـ كلا انكم لم تظفروا بي بعد .

وقد حمل عليهم حملة القـانطين فأصاب بعضهم ولكنهم كانوا يردونـه بسيوفهم الطويلة ويدفعونه إلى جهة السلم حتى بلغ اليه واستند إلى الباب فرآه قد فتح ثم خرج منه .

وعند ذلك حاول الأربعة ان يطـاردونه ففتح باب القـــاعة من الجهة الاخرى ودخل منه الدوق فقال لهم :

قفوا ولا تفعلوا فتراجعوا ممتثلين وهم يزبدون من الغيظ .

www.mlazna.com-RAYAHEEN

أما الدوق فانه سار إلى باب السلم فأقفله وهو يقول : أسفي عليه فقد كان من الشجعان .

وبعد ذلك عاد الى الأربعة فقـــال لهم : ليس لي لحظـة فنضيعها ألا تزالون أشداء ؟

ـ نعم فاننا لم نصب إلا بجراح مختلفة خفيفة ولكن دعنا بالله يا مولاي ان ننزل في اثره ونجهز عليـه فهو ذلـك الرجل الذي أهاننـــا من قبل وشكوناه اليك .

ـ لقد سمعت كل ما قيل ورأيت كل ما جرى فابقوا هنا إذ يوجـد من يجهز عليه فانه الآن بين يدي برايسكايل ورفيقيه .

والآن فاعلموا اني محتاج إلى سيوفكم في هذه الساعة والى دمائكم ألا ترون ان حياتي معرضة للخطر ؟

فصاحوا كلهم بصوت واحد قائلين :

ان نفوسنا فداء لك .

ـ اذن اسرعوا الى تغيير ملابسكم ولا تلبسوا شارة بورجونيا او غيرها مما يدل على انتسابكم إليّ ثم سيروا الى شارع بربيت واعلموا ان .. لويس دي اورليان سيمر بذلك الشارع .

فارتعدوا واضطربت اعضاؤهم فقال لهم :

تعالوا معي فأخبركم بما يجب ان تصنعوه ولكن اعلموا ان اورليان يجب ان يموت في هذه الساعة فاذا سلم منكم كنت أنا المقتول لا محالة .

* * *

٣١

هروب الميت

وما عتم ان ولج هردي ذلك الباب وجد نفسه على سلم فنزل اربع درجات ووقف يتأهب للدفاع الاخير.

ولكنه سمع فجأة ان ذلك الباب الذي خرج منه قد قفل في اثره وساد الحكوت بوخيم الظلام فقال في نفسه لا شيء له لا تسعد بقا ـ

ترى لماذا اقفلوا هذا الباب؟ انهم لم يقفلوه لخير ولا بد ان يكون هناك مكروه كبير من ورائه للظالم الذي في نفسه لا شيء له لا تسعد بقا

وأخذ يفحص نفسه فيمن يديه ورجليه كي يعلم اذا كان قد اصيب باي جراح بالغة فوجد انه يستطيع الدفاع اذ: ايظن انهم يدعوه الى هذا الباب عبثا.

ومن غريب امره الدال على وفائه انه لم يخطر له في تلك اللحظة غير الدوق هي ورجليه وشارع برينيت فتمثل له كل ذلك الدوق مطعونا ملقى على الارض غائصا بدمه فشعر بان دماءه تغلي في عروقه وجعل يقول في نفسه:

ان هذا الدوق قد انقذني مرة من الموت أفمن المروءة ان ادعه يموت ولكن كيف السبيل الى وصولي اليه فقد يكون هذا السلم الذي نزل عليه الطريق التي يتوصل بها الى ضحاياه الذين يريد الفتك بهم فيقع بخطفه في المرأة التي قالت لي: تاهوب لانها تعرف سفلة هؤلاء القوم ان لا تعد ما

وما زال ينزل حتى انتهى الى باب ففتح الباب للفور وظهرت له تلك القاعة التي كان الفتيان الثلاثة كامنين فيها بأمر الدوق.

فقال هردي في نفسه: هذا هو السجن ولكني ارى ثلاثة سجانين بدلا من واحد:

وكان الثلاثة مجردين خناجرهم فلما رأوا هردي واقفاً في الباب ابتسموا له ابتسامة هائلة وقالوا له

تفضل بالدخول الى القاعة

فنظر هردي نظرة سريعة الى تلك القاعة فرأى في آخرها بابا مقفلا فقال في نفسه

هذا لو تمكنت من إن أثب إلى الباب وافتحه ولا ادري الى اين يؤدي ولكنه يطيل زمن القتال ويفسح مجاله

وعند ذلك قال برانكايل لرفيقه :

ان هذا النبيل لا يريد ان يأتي الينا فلنذهب اليه

فوافق الاثنان على رأيه وهجموا عليه

غير ان هردي وثب من بينهم وثوب النمر واسرع الى ذلك الباب فوجده مقفلا ولم يستطع فتحه فأسند ظهره اليه وعول على ان يدافع عن نفسه حتى الموت .

فأحدق به الثلاثة وقال له احدهم متهكما :

ان الوقت متسع لديك فقل ما تريده من الصلاة قبل الموت لتموت مسيحيا .

فأجابه قائلا :

ـ اشكرك فاني اكتفي بأن أموت كما يجب ان يموت هردي باسافان .

وكان الثلاثة قد انقضوا عليه ورفعوا خناجرهم ليطعنوه بها .

فلم يكد يذكر اسمه حتى حدث ما يشبه السحر ذلك ان ايدي اولئك الثلاثة قد هبطت وتراجعوا منذعرين مضطربين وقد اصطكت أسنانهم واصفرت وجوههم وسال العرق من جباههم

فوقف هردي ينظر اليهم وهو لا يفهم شيئاً من اسباب اضطرابهم فكان شبه الحالم أصيب بكابوس

وقد قال برايسكايل لرفيقيه بصوت يتهدج :

أسمعتهما ما قال ؟

فقال برانكايل : نعم فقد ذكر إسم باسافان .

وقال براكايل : نعم انه ذكر إسم الغلام الميت

وقـــد اصيبوا جميعهم بذلك الرعب الذي اصيبوا به حين كانوا في عهد حداثتهم مربوطين الى الكراسي في منزل الساحرساتان يوم رأوا هاردي ميتاً ممدوداً على مائدة الرخام وذلك الساحر يحاول تشريح جثته ويقوم انقذهم هاردي من خطر الموت الذي كان محدقاً بهم .

وبعد هنيهة سكن اضطرابهم فدنا برايسكايل منه وقال له :

أحق انك هاردي دي باسافان ؟

قال : ويحك ايها الشقي ما الذي جرأك على الشك ؟

وقال برانكايل :

إذن ، أنت لم تكن ميتاً في ذلك العهـــد .. انك كنت ميتاً على تلك المائدة وها أنت الآن حي ، فهل أنت هو ولكني لا ..

قال : تريد ان تقول انك لا تفهم ؟

ـ هو ذاك .

ـ وأنا لا افهم ايضاً لماذا لا تقتلوني ؟

ـ انهم لا يقتلون الأموات .

وقال برايسكايل : ان ذلك لا يحتمـل التصديق ، ويجب ان نعلم من أنت ؟

ـ ولكني قلت لكم اني هاردي دي باسافان .

ـ ولكن هـــل أنت هو ذلك الميت وهذ كل ما نريد ان نعرفه فان تلك الحادثة التي اتفقت لنـا في منزل الساحر لم نروها لأحد من الناس منذ حدوثها ، أي منـذ اثني عشر عاماً ، ولكنها لم تبرح من اذهاننا وكل ما تمثلت لنا ، يكاد يقتلنا الرعب ، ولذلك تعـودنا السكر في كل ليلة التماساً لنسيانها .

www.mlazna.com-RAYAHEEN

وهذه الحادثة هي اننا كنا مقيدي اليدين والرجلين، مكمومي الافواه في منزل أحد الأبالسة الكائن في الجزيرة .

وكان ذلك الشيطان صاحب المنزل يقول لنا في كل يوم انه سيستخرج دمائنا ويقول في كل حين انتظروا فان الميت لا بد ان يحضر .

فقال له هاردي :

وقد كان هـذا الميت محمولاً على الأخشاب ، ولا فرق بينه وبين الخشب وكنتم انتم تنظرون والرعب ملء قلوبكم الى هذه الجثة ، وقد بسطت على مائدة الرخام ودنا منها الساحر وهو يحاول فتح صدرها بالمبضع وإخراج القلب من ذلك الصدر .

فتراجع الثلاثة منذعرين وهم يقولون :

نعم ، نعم.

فقال هاردي : وقد نهض الميت عند ذلك فقطع رباطكم واطلق سراحكم واخرجكم من ذلك المنزل الجهنمي الى الشارع فجعلتم تركضون ، ولا تلوون على شيء .

نعم ، نعم لقد عرفتكم الآن فانتم الثلاثة الأحياء.

فنظر كل منهم الى رفيقه وقالوا جميعهم :

لم يبق شك فهو منقذنا من ذلك الموت الرهيب .

وعند ذلك ركع الثلاثة امام هاردي وجعلوا يبكون وينظرون اليه نظرات لا توصف

فتأثر هاردي لهذا الامتنان الصامت الذي كان افصح من الكلام ، وقال لهم : قفوا فوقف الثلاثة ومسحوا دموعهم فقال برايسكايل :

اننا في كل يوم نذكرك ، وكنت اقـول انك انتصرت على الساحر فلم يصدقوني .

وقـد جعلوا يضحكون ويبكون في وقت واحد ، ثم احدقوا بهاردي وجعلوا يقبلونه فقال لهم :

إذن ، لا تريدون قتلي ؟

فقال برانكايل: ان هذا الباب يؤدي الى رواق والرواق ينتهي الى الشارع ولك ان تخرج منه متى شئت .

قال : إذن ، افتحوه لي فلا اكتمكم انه يجب ان اسرع بالذهاب لشأن خطير .

وعنـد ذلك سمعوا صوت فتح الباب واقفاله فاصفرت وجوههم وقال برانكايل : انه الدوق .

ودنا بريسكايل من هاردي فقال له :

يوجـد في القصر مائتا رجل مسلحين يفتكون بنا شر فتك اذا علموا بقصدنا ، فهل تثق بنا ؟

فقال له هاردي ببرود : افتح الباب .

فقال برايسكايل بلهجة قنوط :

يجب ان تحضر المفتـاح ، ولا سبيل الى ذلك إلا بعد قدوم الدوق فقل أتثق بنا ؟

ـ نعم .

ـ نشكرك لهذه الثقة ، فاعلم ان حياتك لك فاسرع بالدخول الى هذا الكيس .

وهو الكيس الذي كان معداً لنقل الجثة الى النهر .

فامتثل هاردي وكان الدوق في تلك الساعة على السلم وهو لا يسمع حساً فيقول في نفسه :

لقد قضي الأمر .

وقد دخل الى تلك القاعة ونظر الى ما فيها فرأى ذلك الكيس وارتعش بالرغم من قسوته .

واقام نحو دقيقة واقفاً على العتبة يفكر بهذا الرجل الذي قتله دون ان يسيء اليه ولكنه كان يعزي نفسه بقوله :

www.mlazna.com-RAYAHEEN

ان الاقدار قضت عليه بان يعلم ذلك السر فلم يبق بد من موته .

ثم التفت الى الثلاثة وهو يوهمهم انه لم ير الكيس فقال لهم .

أقضي الأمر ؟

فأشار برانكايل الى الكيس وقال : انظر ، يا مولاي .

فهز الدوق رأسه ، ثم نظر الى ارض القاعة نظرة الفاحص فقبض عثى ذراع برانكايل وقال :

كيف ذلك اني لم ار نقطه دم على الارض فماذا حدث ؟

فتلعثم برانكايل ، وقد التصق لسانه بسقف حلقه ، ولم يجد كلمة يقولها .

فاسرع براكايل ، وهو مدبر امور العصابة ، وامسك يد برانكايل ، فقال له :

انظر يا مولاي الى هذه القبضة الهائلة فانها اسرع فتكاً من الخناجر .

فنظر الدوق الى براكايل نظرة إعجاب ، ورأى برانكايل ما كان من إعجابه فتشجع وحلت عقدة لسانه فقال له :

اني ، يا مولاي ، قتلت ثوراً مرة بلكمة .

فقال له برايسكايل : اسكت ايها الأبله فليس هذا الذي يريد ان يعرفه مولانا الدوق ، بل يريد ان يعرف تفصيل القتل .

وهو انه حين دخل الرجل وقف برانكايل وراء الباب المفتوح ووقفنا نحن على الجانبين وخناجرنا بيدينا .

فلما رآنا الرجل هجم علينا وعند ذلك ضربه برانكايل من ورائه على رأسه ضربة هائلة ، فسقط لفوره قتيلاً ، وهذا هو ، فقد وضعناه في الكيس .

فظهرت على الدوق علائم الرضى وعاد من حيث اتى ببطء ، وقال لهم دون ان يلتفت الى الكيس .

خذوه الى حيث تعلمون وليتم امره بسرعة .

فاسرع برانكايل الى الدوق وقال :
أيحق لنا الآن ، يا مولاي ، ان نمد ايدينا الى كيس الدنانير ؟
قال : نعم ، فقد وعدتكم بذلك .
ثم تركهم وصعد ذلك السلم .
وبعد هنيهة صعد برايسكايل ايضاً وعاد بمفتاح وهو مفتاح الباب ففتحه وحمل برانكايل وبراكايل الكيس وخرجا الى الرواق .
وكان هناك حارس يحمل مصباحاً فأنار طريقهم وهو يقول :
لتصحبكم السلامة .

٣٢

شارع بيريت

كان الدوق دي بورجونيا قال لهاردي : ان لويس دي أورليان سيخفره حملة المشاعل وانه لا يجب الاهتمام بهم .

وهو لم يقل غير الحقيقة كما سترى فان جان لم يكن يبحث إلا عن ذلك الرجل الذي يستطيع ان يطعن الدوق دي أورليان الطعنة القاضية دون ان يعلم أحد انه هو الذي ارسله .

وقد رأى ان هاردي ابى قبول هذه المهمة الشائنة والملكة قد دبرت له اسباب القتل وهي فرصة لا يجدها في كل حين فلبث هنيهة هائجاً مزبداً يكاد يجن من يأسه الى ان رأى بانه لم يبق بد من استخدام رجاله لهذه المهمة حذراً من فوات الفرصة .

وانما بسطنا هذه المقدمة الوجيزة كي يعلم القراء ان جان دي بورجونيا اضطر على شدة حكمته ، وتحسبه للعواقب الى استخدام رجاله الأخصاء وارسالهم الى شارع بيريت .

www.mlazna.com-RAYAHEEN

ولنعد الآن الى سياق الحديث فقد كان يوجد في وسط الشارع خمارة.

فلما كان الدوق يعرض على هاردي ذلك المشروع ، كانت ابواب هذه الخمارة اقفلت قبل أوان إقفالها العادي ، بحيث خلت الطريق من الزبائن .

ولكن هذه الخمارة على إقفالها كان يوجد فيها عشرون رجلاً وزعيمهم.

وكانت مهمتهم بسيطة وهي انهم ينتظرون في الخمارة الى ان يقرع بابها بشكل خاص فاذا سمعوا قرع الباب خرجوا جميعهم ومثلوا أدوار سكارى يعربدون فحالوا بين الدوق أورليان وبين خفرائه بحيث يقتله من يعين لقتله دون ان يحميه أحد .

واذا لم يقرع الباب بالشكل الخاص يبقى الرجال كامنون في الخمارة فلا يخرجون منها إلا عند الصباح .

وكان يوجد قرب هذه الخمارة منزل جميل كان لرجل يدعى جان مونتاكو ثم باعه فلم يعلم الناس إسم هذا المشتري الجديد .

اما هذا المشتري فقد كان ايزابو دي باڤيير ملكة فرنسا .

وانما اشترته لأن العيون كانت تراقب في قصر سان بول فكانت تستخدمه لقضاء اغراضها الفاسدة الخفية وقد دعت الدوق دي أورليان في هذه الليلة الى هذا المنزل لتسهل المهمة على الدوق دي بورجونيا .

فجاء أخو الملك الى هذا المنزل في الساعة التاسعة من المساء وكان يخفره ستة من النبلاء مدججون بالسلاح ويتقدمه حملة المشاعل .

فلما وصل الى المنزل ابقى حملة المشاعل واطلق سراح النبلاء وقال له أحدهم :

في اية ساعة يأمر مولاي الدوق ان نعود اليه لنخفره ؟

قال : لا حاجة الى ذلك ، ايها الأسياد ، فلم يبق لما نخافه بعد صلحنا مع ابن عمنا الدوق دي بورجونيا فاذهبوا الى منازلكم لأني لا أعلم والحق يقال متى اخرج من هنا .

فقال له : ولكن الشوارع غير آمنة يا مولاي في الليل .

فقال نبيل آخر :

ألا ترى ان مولاي قد يبقى هنا الى الصباح ؟

فضحك الدوق وحيى رجاله باشارة ، ثم دخل وأدخل معه حملة المشاعل وعاد النبلاء إلى منازلهم وهم يعلمون ان هذا المنزل منزل حظية جميلة ولكنهم لا يعلمون من هي .

ودخل الدوق ليرتكب تلك الجريمة الشنعاء التي لا يقدم عليها أسافل الناس وهي خداع اخيه وهتك عرض ذلك الأخ المنكود الذي لا يستطيع الدفاع بينما واجبات المروءة والدم الطاهر كانت تقضي عليه ان يكون حليف ذلك الأخ وصيانة عرضه لا ان يكون في مقدمة من يهتكونه شأن اولئك الذين يتذرعون بالقرابة وما هناك من سهولة اللقاء وبعد المظان على تلويث أعراض اقربائهم وهم إنما يلطخون أعراضهم لو يعلمون .

غير ان فساد التربية يهيج الشهوات فلا يجد ذلك المنغمس فيها وازعاً من أدبه وضميره .

وهكذا دخل الدوق دي اورليان إلى امرأة اخيه في ذلك المنزل الذي كانت تستقبل فيه سواه من عشاقها الكثيرين .

ولما دخل الدوق استقبله خادم فأقام حملة المشاعل في غرفة خاصة صفت اواني الشراب على مائدة فيها ودخل بالدوق إلى حيث كانت تنتظره تلك الملكة الفاجرة وهي تبسم غير مكترثة لخيانتها ذلك الزوج المنكود ولخيانة نفسها ..

فأشارت اليه ان يجلس بجانبها فجلس بعد ان قبل يدها بلهف ، ثم أخذت يده بيدها وقالت له :

اني واعدتك على اللقاء هنا لأخبرك باني باحثت الملك ملياً بشأنك ، ولا بد ان تعلم بما قلناه .

فاضطرب الدوق إذ كان يعتقد بانه سيسمع حديث غرام فاذا بها تحدثه عن السياسة .

ومضت الملكة في حديثها فقالت :

إن الملك يخابر نفسه الآن بشأنك فاذا لم يعمـــل بما أسديت اليه من النصائح بقيت الحالة على ما كانت عليه ولا يتغير شيء في بلاط فرنسا .

وإذا عمل بنصحي وهذا الذي اتوقعه فسيدعوك اليه في الحال ..

قال : ولكن اين يبحث عني وأنا لست في منزلي ؟

ـ هو لا يعلم انك هنا ولكن ريدون يعرف فمتى سأل الملك عنك أسرع ريدون اليّ .

فشعر الدوق ببرود ، وحدثه قلبـه بمصاب دون ان يعرف ذلـك المصاب في حين ان ما قالتـه له كان طبيعياً معقولاً ليس فيه مـا يدعو إلى الخوف ..

ولكنه مع ذلك أوجس خيفة فسأل ايزابو قائلاً :

هل يمكن ان اعرف ما دار من الحديث بينك وبين أخي ؟

قالت : ايها الدوق اني ما دعوتك إلا لأخبرك بما كان .

وذلك ان الملك قد تعب وأضعفـه المرض وشعر بعجزه عن إدارة الملك فعول على التفرغ من تلك المهام .

ـ كيف ذلك ، أيريد اعتزال الملك ؟

ـ نعم ولكنه يتخلى عنه عاماً او عامين الى ان يتم شفاؤه أي انه سيعتزل إلى الأبد .

ـ ولكن الى اين يذهب ؟

ـ الى حيث يذهب عـادة الملوك المتقاعـــدون الى الدير ودير سلسلين لا يبعد كثيراً عن قصر سانت بول .

فأطرق الدوق مفكراً وقد كاد هذا النبأ الخطير يصعقه ومضت الملكة بحديثها فقالت :

يجب ان يكون للمملكة ملك يلتقط ذلك التاج الذي رفسه برجـــله

www.mlazna.com-RAYAHEEN

فتحطم ، وأنت ايها الدوق ستكون هـــذا الملك . انك اقرب النـاس الى عرش اخيك .

لا تعجب لمـــا اقول ، فقد كنت تحسبني من اعدائك ، ولكنك كنت واهماً ، على اني لو كنت من اعدائـــك لما فضلت سواك ، فاني اعرف اولئك المحدقين بالعرش وأعلم يقيناً انك ستكون أرأفهم بامرأة شارل السادس ..

وفوق ذلك ألست انت الآن ولي عهد فرنسا ، فمن يستطيع انينازعك الملك إلا باثارة حرب اهلية ؟

فتلعثم لسان الدوق وقال :

أهو انت الذي قلت للملك ؟

ـ نعم انا هي التي ارشدته اليك ، فانه متى رحـل الملك لا أبقى شيئاً مذكوراً ، فنظرت الى المحدقين بالعرش فلم اجد أقـدر منك على المروءة والغفران .

قال : أية مروءة وأي غفران يا سيدتي ، فقـــد كنت ملكة وستبقين ملكة ما زال في عروقي دم يجول .

فاذا اراد اخي ان يلتمس في الدير راحة لم يجدها على عرش الملك وإذا أراد ان اتولى عنه مهـام ذلك الملك اقسم لك بأن اول مـا اعمله سيكون تعيينك نائبة الملك فيكون الملك لك وليس لي .

ـ لله ما اشد كرمك وما اعظم مروءتك فانك لم تخلف الظن فيك .

وعند ذلك سمع وراء الباب المقفول وقع اقدام واصوات مختلفـــة ، فاتقدت عينا ايزابو ، وعاد الانقباض الى قلب الدوق وخامرته الظنون .

ولكن هذه الاصوات ما لبثت ان انقطعت فنظر الى ما حواليـه نظرة المرتاب وقال :

سيدتي اني لا اجد فائدة الآن من إظهـار امتناني فان اعمالي ستنوب عن اقوالي باظهار هذا الامتنان .

فقالت ايزابو في نفسها بلهجة تقنوط :

لقد خامره الريب دون شك وهو يحاول الفرار ولكن ريدون لم يأت والكامنين لم يصلوا بعد ، فهل أبى ذلك الرجل الذي كان يعتمد عليه جان قبول هذه المهمة

اما الدوق فانه عقب على حديثه فقال :

والآن فاسمحي لي يا سيدتي بالانصراف إذ يحسن ان يجدني رئيس حراسك في قصري إذا اراد ان يدعوني اليه ، وسأبيت ساهراً كل الليل بانتظاره .

ثم نهض فانحنى امامها وقال:

استودعك الله يا سيدتي وأقسم لك اني سأفي بكل ما تعهدت به .

ولكنه ما لبث ان قال هذا القول حتى ارتعش كالريشة الخافقة في الهواء وزالت هواجسه ولم يعد يجد في ذلك المنزل الجهنمي غير الأمن والسلام وهناء الحب ولذة الغرام .

كل ذلك باشارة من ايزابو ، فانها لم تعد ملكة بل اصبحت امرأة وكانت تلك الإشارة التي ابدتها افصح من الكلام .

ذلك انها فتحت وشاحها الملكي الذي كانت متشحة به فبان من تحته كل ما وهبته الطبيعة هذه الحية الرقطاء من جمال النساء وقالت له :

لقد فاتك ان تسألني لماذا لم انتخب سواك ليحكم على فرنسا وعليّ .

فسقط الدوق على ركبتيه وقال بصوت يتهدج :

بالله مما أرى ، أحقاً انك تحبينني ؟

فقالت ايزابو في نفسها :

ويح لكم ايها الرجال الذين تتلبسون بلباس الشرف وأنتم ادنى الأدنياء.

انت تعلم ان هذه المرأة والتي تعينها على المنكر هي امرأة اخيك .

ثم طوقت عنقه بذراعيها وهي تنظر اليه نظرات تفتن لبه ، واقام

www.mlazna.com-RAYAHEEN

ساعة وهو لا يعلم أفي يقظة كان ام كان من الحالمين .

حتى اذا اقبل ريدون كان ذلك الدوق الأبله يقسم لهذه الحية بملكوت الله وأنبيائه انه سيكون لها عبداً ما بقي في قيد الحياة .

وقد دخل ريدون فقال :

ان مولانا الملك يريد ان يرى في الحال مولاي الدوق اورليان .

فشعر الدوق بامتنان لا يوصف لخليلته التي وهبته نفسها ووهبته العرش والتفت إلى ريدون .

فأمسكت ايزابو يده وقالت له : إبقَ ؛

فاصفر وجه الدوق وقد حدثه قلبه ايضاً بتلك النكبة التي كان يتوقعها وهو لا يعلم ما هي .

فابتسمت له ايزابو ابتسامة ساحرة وقالت له :

إبقَ ايضاً قليلاً .

فاطمأن الدوق وقال لريدون :

إسرع وقل لجلالته اني ممتثل لأوامره في الحال .

فخرج ريدون وعاد الدوق الى معانقة الملكة وهو يقول :

اني قد أكون ملك فرنسا ولكنك ستكونين ملكة الملك .

ثم تركها وانصرف .

وكان حملة المشاعل قد تقدموه فأمرهم ان يسيروا امامه الى قصر سانت بول .

فساروا وقد تاه الدوق في مهام التفكير حتى دنوا من تلك الحارة التي كان فيها الكين فسمع الدوق صياح رجاله ورأى رجال سكارى قد حالوا بينه وبين أصحاب المشاعل ، ثم رأى ان الناس قد اختلط بعضهم ببعض وشعر فجأة بطعنة في أحشائه فسقط على الأرض يتخبط بدمه ويقول :

ويح لك ايها الخائن لقد قتلتني .

وعند ذلك شعر بضربة اخرى أصابت كتفه فرفع رأسه وقال :

ويحكم كفوا فاني الدوق دي اورليان .

فأجابه ضاربه قائلاً : اننا نعلم .

فسقط الدوق على ظهره وعيناه إلى السماء ، وكان آخر ما تمثل له في تلك اللحظة مثال امرأته فالنتين تلك الزوجة الصالحة تنظر اليه وتودعه وتغفر له ، فقال بصوت خافت :

الوداع يا فالنتين .. أغفري لي .

ثم انقطع صوته فأدنى قاتلوه مشعلاً من وجهه وقالوا :

لقد قضي الأمر وهو بعينه ، فهلموا بنا .

ثم حملوا الجثة وأسندوها الى الجدار وانصرفوا وهم يقولون :

لا يمكن لأحد ان يعلم بنا .

وكان هؤلاء القتلة رجال الدوق دي بورجونيا وهم أعداء هاردي ، فقال غليوم :

هلموا بنا إلى فندق ليتبود فانه يفتح لنا دون شك .

وقال كورتيز : إنه إذا لم يفتح كسرنا الباب .

فقال تونفيل : هلموا بنا فاني أكاد ان اموت ظمأ .

وساروا وهم لا يقولون كلمة عن تلك الجناية التي اقتعلوها ولكن كلا منهم كان يقول في نفسه :

ان الأمر سيخفى دون شك فلا يعلم بنا أحد .

* * *

في تلك الساعة كان رجل يسير مسرعاً الى شارع بيريت وقد وصل الى تلك الساحة التي جرت فيها المعركة .

وكان احد حملة المشاعل قد اصيب بطعنة لم تجهز عليه ، فلما رأى ذلك الرجل قادماً صاح قائلاً :

www.mlazna.com-RAYAHEEN

إلينا .. إلينا لأخبركم بالقتلة قبل ان أموت .. ألا يأتي إليّ أحد ؟
فقال له الرجل : لبيك ، فقد أتيت اليك ، فقل ما جرى للدوق دي اورليان .
قال : لقد مات .
قال : يا للشقاء فمن هو القاتل ؟
قال : هل أستطيع ان اثق بك ؟
قال : كل الثقة ، فاني مدين بالحياة للدوق دي اورليان فقل .
ـ من انت ؟
فركع الرجل امام هذا المحتضر وقال :
اني رجل حاول الدوق بورجونيا ان يقتله هذه الليلة ، فقل ولا تقف .

٣٣

ميت يتكلم

عندما كان بريسكايل وبرانكايل وبركايل يحملون الكيس الذي وضعوا فيه هاردي ويسيرون به سمعوا صوتاً يقول لهم من ورائهم :
قفوا ..
فالتفتوا فرأوا رئيس حراس الدوق دي بورجونيا .
وكان الدوق قد لقيه عند صعوده وهمس في اذنه بضع كلمات فسار في أثر هؤلاء الثلاثة حتى ادركهم وقال لهم :
ضعوا هذا الكيس على الأرض فاني اريد ان استوثق .
فقال له برايسكايل من أي شيء يجب ان تستوثق ؟
قال : من موت هذا الرجل الكائن في الكيس فهذا أمر يا مولاي .
فقال برنكايل : ألعل مولانا الدوق لا يثق بنا ؟

وقال براكايل : ألم تقل له انه مات ؟

قال : هذا الذي اريد ان استوثق منه فافتحوا الكيس

فنظر كل من الثلاثة الى رفيقه نظرة سريعة وقال في نفسه :

لقد قضي عليه هذه المرة ، دون شك ، فان رئيس الحراس كان يصحبه عشرة جنود .

غير ان برايسكايل اراد ان يمثل آخر دور فقال :

ان من شقاء الانسان ان يكون مخلصاً وفياً .

فقال له الرئيس : ماذا تعني بذلك ؟

قال : اعني به ان مولانا الدوق يتعمد إهانتنا فانا لا افتح الكيس.

وقال برانكايل وقد رسم علامة الصليب على وجهه :

وأنا ايضاً فاني اعتبر فتح هـذا الكيس بمثابة نبش القبور وهو كفر لا نقدم عليه .

وقال براكايل : وأنا ايضاً لا اجسر على فتحه فاني اقتـل كل ساعة ولكني لا اطيق النظر الى الأموات .

فهز الرئيس كتفيه وقطع بخنجره عقدة الكيس واغمض الثلاثة عيونهم وهم يتوقعون ان يسمعوا صيحتين : صيحة غضب من الرئيس ، وصيحة ألم من هاردي .

ولكنهم سمعوا هذا الرئيس يقول لهم :

حسناً فانه مات حقيقة فاربطوا الكيس وسيروا به .

فذعر الثـلاثة وحسبوا انهم خنقوا منقذهم بهذا الكيس اذ وجدوه لا يتحرك وقد حبست أنفاسه .

فقال لهم الرئيس :

ويحكم انكم ابيتم ان تفتحـوا الكيس ، فهل تأبون ايضاً أن تربطوه فاربطوه وسيروا به فقد مات حقيقة .

www.mlazna.com-RAYAHEEN

فربطوا ذلك الكيس وساروا به وهم يبكون لاعتقادهم ان هاردي قد مات حقيقة ميتة اختناق حتى تواروا عن انظار الحراس فالقوه على الأرض عند ضفة السين ووقفوا حائرين مبهوتين لا يعلمون ما يصنعون به .

الى ان قال برايسكايل : انه قد مات حقيقة وما زال قد مات ..

فقال برانكايل ؟ إذن لنلقه في النهر فانه قبر كسواه من القبور .

وقال براكايل :

اركعوا وصلوا عليه كي نكون قد فعلنا كل ما يجب علينا فعله لهذا الرجل الكريم.

وعند ذلك ركعوا وجعلوا يصلون حتى اذا اتموا صلاتهم جاؤوا بحجر كبير كي يربطوه الى الكيس ويلقوه الى النهر .

وعند ذلك سمعوا عطاساً من الكيس فذعروا ذعراً عظيماً وكان أول ما فعلوه انهم هربوا فابتعدوا عنه بضع خطوات ووقفوا ينظرون ويقولون :

كيف يعطس الميت ؟

ثم سمعوا صوت تمزيق الكيس ، ثم رأوا هاردي وقد خرج من ذلك الكيس الذي مزقه بخنجره ووقف .

فكان ذعرهم عند ذلك عجيباً ، وهربوا دون انتظام ، ولكنهم كانوا يركضون ويلبثون في مواقفهم كما يركض الحالم فان الرعب أوقف حركاتهم ، فقال برانكايل : ما هذا ؟

وقال براكايل : لا تحدث العجائب إلا مع هذا الفق ؟

وقال برايسكايل: لقد علمت اليقين فان ما حدث له الآن يشبه ما حدث له من قبل في بيت الساحر ، وكل ما يقال عن هذا الشفاليه دي باسافان انه ميت لا يموت .

أما هاردي فانه وقف وهو يقول ؟

الحق اني نجوت من الموت بفضل هؤلاء الثلاثة ، وبفضل حسن تمثيلي للموت .

ثم دنا من هؤلاء الفتيان فقال لهم : استودعكم الله أيها الرفاق وسنلتقي قريباً .

أما الثلاثة فانهم عادوا مسرعين الى الدوق فقال له برايسكايل : ان رئيس حراسك قد رآه ميتاً يا مولاي .

قال : نعم ، لقد اخبرني بذلك .

قال : انه مات حقيقة ، يا مولاي ، فربطنا حجراً ضخماً الى الكيس والقيناه في البحر فهو لا يعود.

قال : دون شك ، واني موفي بوعدي ، فمدوا ايديكم الى هذه الدنانير وخذوا .

فأخذ كل منهم قبضة من الذهب وانصرفوا .

أما هاردي فانه اسرع راكضاً الى شارع بيريت حتى وصل الى ساحة المعركة ولقي الخادم الجريح كما تقدم لنا وصفه .

ولكنه وصل بعد فوات الأوان ولم يعد يشغله غير معرفة القاتل فألح على الخادم حتى اذا وثق منه قال له :

نعم ، لقد عرفت الأربعة الذين قتلوه .

قال : اذكر لي اسماءهم اذا اردت ان انتقم لمولاك .

قال : هم تونفيل وغيليوم وكين .

ـ وكورتيز ؟

ـ إذن ، انك تعرفهم ؟

ـ نعم ، فلننظر الآن في شأنك ، اني سأحملك الى منزلي وأعالجك حتى تشفى .

ـ لا سبيل الى ذلك ، يا سيدي ، فاني ميت .

وقد دخل حقيقة في دور الاحتضار ، فلم تكن غير لحظة ، حتى أسلم الروح .

أما هاردي ، فانه حين تأكد موته اسنده الى جدار وانصرف ، وهو

www.mlazna.com-RAYAHEEN

آسف أسفاً عظيماً على الدوق دي أورليان، فسار تواً الى الفندق الذي كان مقيماً فيه .

وكان تونفيل ورفاقه قد ذهبوا بعد قتل الدوق الى ذلك الفندق وجعلوا يشربون كأنهم يريدون ان يغرقوا ما كانوا يجدونه من تقريع الضمير في كؤوس الخمر .

حتى اذا ملأوا بطونهم خرجوا يعربدون، وساروا الى قصر الدوق دي بورجونيا وهو لا يبعد عن تلك الخمارة .

أما هاردي فانه رأى اشباحهم وهو سائر الى الفندق فاقتفى اثرهم حتى وصلوا الى باب القصر .

وكان الباب مقفلاً والظلام مخيماً فجعلوا يقرعونه بعنف ووقف هاردي بعيداً عنهم بحيث لم يكونوا يرونه وناداهم بصوت جهوري قائلاً .

يا تونفيل ويا غيليوم ويا كين ويا كورتيز أتسمعونني ؟

فوقف الأربعة منذعرين وقد تمكن الرعب في قلوبهم اذ عرفوا ان الصوت صوت هاردي .

ولكنهم كانوا يعلمون علم اليقين انه مات فحسبوا ان روحه تكلمهم لأنتشار هذه الخرافات في ذلك العهد وكان رعبهم لا يحيط به وصف .

أما هاردي فانه قال لهم بعد ان أيقن انهم سمعوه :

ادخلوا أيها الغادرون آمنين الى قصر هذا الدوق السافل ولكن اعلموا يقيناً انكم لا تموتون إلا على يدي .

وكان الحارس قد فتح عند ذلك باب القصر فاسرعوا بالدخول فوجدوا ان سيوفهم كانت مجردة بايديهم فقد جردوها من اغمادها دون ان يشعروا لفرط اضطرابهم وصعدوا راكضين الى الدوق بعد ان اوصوا الحارس ان يحكم اقفال الباب :

فلما رأى الدوق اضطرابهم سألهم قائلاً :

أقضي الأمر ؟

فلم يجيبوه على سؤاله بل سأله غيليوم قائلاً :

أمات ، يا مولاي ، هذا الرجل الذي قاتلناه هنا منذ حين ؟

فانتهرهم الدوق قائلاً :

ويحكم ألعلكم سكارى ؟.. قولوا أقضي الأمر ؟

فقال كورتير : قل لنا ، يا مولاي ، ماذا جرى لهذا الرجل ؟

وقال كين : ماذا حدث لهذا الرجل الذي دفعناه الى السلم ؟

وركع تونفيل وقال :

نلتمس من مولاي العفو ولكننا نؤثر الموت على ان تجهل ما جرى للشفاليه دي باسافان .

فنظر الدوق اليهم نظرات انذهال ، وأيقن من حدوث أمر غريب ، فقال لهم :

لماذا تسألوني هذه الأسئلة ؟

فما أجابه أحد .

فغضب الدوق ونادى رئيس الحراس بصوت رهيب اقام القيامة في القصر فهرول الرئيس الى تلبيته فقال له :

قل لي مسرعاً ماذا فعلت في القاعة السفلى ؟

قال : اني فتحت الكيس وتفقدت الرجل فوجدته ميتاً لا حراك به فأعدت ربطه وأمرتهم انيذهبوا به الى النهر.

قال : ائتوني حالاً بالذين ذهبوا به !

وبعد هنيهة جاء برايسكايل ورفيقاه فقال لهم :

اعيدوا عليّ ما فعلتم بالجثة .

فقال برايسكايل : الجثة ؟

فقال : الويل لكم قل ما فعلتم بها ؟

فاطمأن برايسكايل حين سمعه يقول الجثة وقال :

ان مولاي يهزأ بنا دون شك ، فهل يأمر ان نخرجها من النهر ؟

www.mlazna.com-RAYAHEEN

وعند ذلك اعاد عليه تلك الحكاية التي لفقها له منذ ساعة، وكيف انهم ربطوا الكيس بحجر ضخم والقوه في المياه .

فأطمأن الدوق وقال : حسناً ، فاذهبوا في شؤونكم .

ولما خلا به المكان وبرجاله الأربعة قال لهم بلهجة المتهكم :

اطمأنوا الآن فقد علمتم انه مات وقولوا ماذا فعلتم بالدوق .

فاخبروه بما حدث وهم يتلعثمون رعباً لوثوقهم من ان هاردي قد مات فانه لو كان حياً لما خافوه وهم اربعة ولكنهم باتوا الآن يخافون روحه الهائمة وقد توعدتهم بالانتقام .

أما الدوق فانه نظر نظرة سريعة الى مستقبله ، فرأى انه لم يعد يحول بينه وبين التاج غير الدوق دي‌بيري وانه سيغدو ملكاً مطلقاً ومن يستطيع ان يمنعه من ان يضع على رأسه تاج المجنون .

وقد رأى نفسه ملكاً ويجانبه الملكة .

ولكن أية ملكة أهي إمرأته مرغريت ايزابو .. كلا ، فانه كان حاقداً عليها وهو يريد ملكة يحبها .. فهل تكون هذه الملكة إيزابو .. كلا ، فانه شعر من نفسه انه لا يحب هذه الملكة إلا حين يكون بقربها فهو لا يريد ان تكون خليلته وقد يرضي ان يتخذها خليلة .

إذن، من تكون تلك الملكة إلا تلك الفتاة الحسناء التي اذا لمست المجنون شفته من جنونه .

تلك النقية العذراء التي ابتسمت له مرة ، فهاجت كوامن حبه وتيمته بهواها .. إذن ان الملكة ستكون أوديت دي شامديفر .

٣٤

الوجنة الدامية

وقد حدث نفسه بهذه الاقوال بسرعة التصور ، فلما صحت عزيمته على ان تكون الملكة أوديت التفت الى رجاله الأربعة وقال لهم :

اذهبوا الآن واستريحوا واطمأنوا فقد كنتم خدامي الأمناء ، اما الآن فقد بتم من اصحابي وشركائي في مستقبلي فستصعدون معي الى المراقي التي اصعدها .

نعم ، انكم شركائي ، فقد كنت اطمع بالعرش ، وانتم قد بنيتم اول درجاته وصعدتم بي منذ الليلة الى هذا العرش .

اني سأصبح ملكاً فأجعلك يا تونفيل رئيس وزارتي وأنت يا غيليوم تكون التشريفاتي وأنت يا كورتيز اجعلك رئيس الصيد وأنت يا كين اجعلك رئيس الحرس في اللوفر لأني سأجعل مركز بلاطي في اللوفر لا في قصر سانت بول فان الملك الجديد يجب ان يقيم في قصر جديد .

وانما اقيم في اللوفر الى ان يتم بناء ذلك القصر الفخم الذي سأنشئه هناك فيكون موضع إعجاب الناس على مر الدهور .

هناك حيث تنوبون عني في مهام الملك ، واسير لأفتتاح الممالك وكسب التيجان .

اذهبوا أيها الرفاق واستريحوا ولا تخشوا أحداً حتى ذلك الرجل فانه اذا كان حياً سحقته واذا كان ميتاً سحقت روحه فاني اشعر باني بت قادراً حتى على الموت .

فانحنى الأربعة وانصرفوا .

وبعد ذلك نادى الدوق رئيس حراسه وقال له :

هل جاء الرجل ؟

www.mlazna.com-RAYAHEEN

قال : انه هنا ، يا مولاي.

ـ هل تصعب بالحضور ؟

ـ كلا ، بل انه اظهر ارتياحاً عظيماً الى الامتثال لأمرك .

فخرج الدوق من تلك القاعة وذهب الى قاعة أخرى بعد ان استوثق من درعه وخنجره .

وهناك لقي ذلك الرجل الذي دعاه اليه وهو ساتان .

وقد بادره بسؤاله قائلاً :

ماذا تدعى أيها الرجل ؟

فأجابه ساتان قائلاً :

لقد أسأت المطلع أيها الدوق اذ كذبت والكذب لا يحمل بنبيل عظيم مثلك فان ذلك يدلني على انك ضعيف خلافاً لما كنت اعهده فيك .

فاصفر وجه الدوق وقال : ويحك ايها الوقح كيف تجسر ..

فقاطعه ساتان قائلا :

انك تعلم يقيناً اني ادعى ساتان وتسألني عن إسمي ألا تكون قد كذبت وانت محتاج اليّ ، يا مولاي ، فلا تدع سبيلا للاستياء ، فانني طوع لأمرك ..

حسناً ، فقد رضيت اعتذارك على ان لا تعود الى هذه القحة .

ففرك ساتان يديه وقال :

اني انتظر منذ اثني عشر عاماً مثل هذه الفرصة لأخدم مولاي بعلمي .

ـ اثنا عشر عاماً .

ـ نعم ، أي منذ ١٢ أبريل سنة ١٣٩٥ .

فتذكر الدوق هذا التاريخ وذكر معه تلك الليلة الهائلة التي عقد فيها زواجه على لورانس وقتلتها وهي أم بنته روزالي .

ولكنه هز كتفيه إشارة الى عدم الاكتراث وقال :

لقد اكدوا لي انك تشتغل بالسحر ، فهل هذا اكيد ؟

ـ ذلك لا ريب فيه ما زلت قـد دعوتني لهذا الغرض ولبيت دعوتك .

فجعل الدوق ينظر اليه نظرات تشف عن الاحتقار وساتان منحن امامه مطرق رأسه بحيث لا يرى وجهه .

حتى اذا رفع رأسه رأى الدوق تلك النظرات النافذة وذلك الفم الكبير فمد يده وقال :

ما هذا الذي على وجنتك اليمنى :

فضحك ساتان وقال : على وجنتي .

ـ لا تضحك ، أيها الرجل ، وقل لي ما هذا .

ـ ما هـذا .. ماذا تنظر .. اني لا استطيع ان امتنع عن الضحك فهو من طبعي .

ـ حسناً ، فاضحك كما تريد واوضح لي ما هذا .

ثم تراجع خطوتين وقال :

يوجد على خدك اثر .. اثنان .. خمسة كأنها آثار اصابع صفراء .

فضحك ساتان وقال : هو ذاك ولكن كيف تقول انها صفراء ؟

فذعر الدوق وقال : بل هي وردية ، فهل ذلك من اثر الفصادة ؟

فضحك ساتان وقال : نعم ، ولكن كيف تقول انها وردية ؟

فتراجع الدوق منذعراً وقال : بل هي حمراء وقد اشتد إحمرارها كأنما الدم يخرج منها .

ثم رسم علامة الصليب على وجهه وقال انها علامة جهنمية .

فامتنع ساتان عن الضحك وقال .

نعم ، انها علامـة تدل على ان جهنم في قلبي ، ولكني ارجـو ان امحوها يوماً .

ـ لتكن كيف كانت والآن اجبني على ما أسألك فقد قيل لي انك ساحر تصنع الذهب ؟

ـ لقـد كنت أرجو ان تطلب اليّ ما هو خير من ذلك .. كلا ، اني لا

www.mlazna.com-RAYAHEEN

أصنع الذهب ، فاذا كنت محتاجاً الى الذهب فاطلبه من نقولا فلاميل في في شارع سانت جاك .

أما انا فقد سموت بنفسي الى ما هو اعلى من الذهب ، ولو كان الذهب مرامي لصنعت منه ما استطيع ان اشتري به مملكة بأسرها .

ـ إذن ما الذي تعمله ؟

ـ ألم تقل يا مولاي حين دخولي اني اشتغل بالسحر ؟

ـ ألا تعلم عقاب السحرة في شرائعنا ؟

ـ كيف لا اعلم يا مولاي ، فلو اثبت القضاة اني من السحرة لكان عقابي الشنق ، ولو علم الناس بأني اتخذ مهنة بيع الأعشاب حجة لستر سحري لألقوني في نهر السين او أحرقوني حياً .

غير اني لا اخاف ، وفوق ذلك فان كثيرين يريدون لي الحياة ومنهم الملكة ايزابو التي سألتك ان تدعوني اليك .

ـ اتعرف ذلك ؟

ـ اني لو شئت لقلت اني اعرفه بواسطة السحر ولكني اقول لك الحقيقة وهي ان الملكة اخبرتني بأنك تريد ان ترافي .

فوقف جان يتمعن بوجه ساتان ولا سيما بآثار تلك الأصابع الدموية على خده ثم قال :

الحق اني محتاج اليك وان الملكة قد اخبرتني عن مهارتك ولكن ماذا تسألني من المكافأة عما سأطلب اليك قضاؤه ؟

فاذا كنت تريد مالاً اعطيتك ما يغنيك ، وإذا كنت تؤثر الجاه والسلطة جعلتك من كبار الأسياد .

فأجابه ساتان قائلاً :

لقد قلت لك يا مولاي اني لو كنت من طلاب الذهب لصنعت منه ما يكفي لشراء ذلك العرش الذي تطمع فيه ، وأما الجاه والسلطة فلا تذكرهما لي فان ذلك يضحكني وكثرة الضحك يؤلمني .

ـ الضحك يؤلمك ؟

ـ نعم انه يؤلمني .. في اليد ..

فارتعش الدوق وخاف على ما اشتهر عنه من انه لا يخاف وقال : يؤلمك في اليد ؟

ـ نعم في اليد التي تراها على خدي ، ألا ترى ان اثرهـا قد احمر وكاد يخرج منه الدم فما ذلك إلا من الضحك .

وقد سالت نقطة دم من وجنته فمسحها ساتان وقال بلهجة المغضب :

كلا ، لا يحق لي ان اضحك الآن إذ لم يحن الوقت بعد .

فمشى الدوق في تلك القاعة مشية المضطرب ، ثم وقف امام ساتان وقال له :

إذن ماذا تريد ؟

ـ لا اريد شيئاً .

ـ كيف لا تريد شيئاً ؟!

ـ انك سألتني يا مولاي ماذا اصنع فوجب ان تعرف ذلك كي تعلم إذا كنت استطيع قضاء هذه المهمة التي تريد ان تنتدبني اليهـا .

ـ لقد اصبت ، فاني اؤثر ان اعلم ما الذي تستطيع ان تصنعـه قبـل انتدابك ؟

ـ إذن فاعـلم يا مولاي اني بدأت بصنع الذهب وصنعت كل ما تدعونه بالحجارة الكريمة حتى ذلك الألماس الوهاج وملأت منهـا خزائني .

ولكن كل ذلك من الامور السهلة الميسورة التي لا يقدم عليها غير صغار اهل العلم ..

وانك تدهش لقولي ذلك وما ذلك إلا لقلة رجال العلم بيننا وان الناس يدهشون لكل جديد لم يروه من قبل .

على ان الناس سيرون بعد الف عام على الاكثر ان الذهب والرخـام والخشب والهواء والماء وجميـع المواد مادة واحـدة لا تختلف إلا بالصيغ .

www.mlazna.com-RAYAHEEN

ـ الضحك يؤلمك ؟

ـ نعم انه يؤلمني .. في اليد ..

فارتعش الدوق وخاف على ما اشتهر عنه من انه لا يخاف وقال : يؤلمك في اليد ؟

ـ نعم في اليد التي تراها على خدي ، ألا ترى ان اثرهـا قد احمر وكاد يخرج منه الدم فما ذلك إلا من الضحك .

وقد سالت نقطة دم من وجنته فمسحها ساتان وقال بلهجة المغضب :

كلا ، لا يحق لي ان اضحك الآن إذ لم يحن الوقت بعد .

فمشى الدوق في تلك القاعة مشية المضطرب ، ثم وقف امام ساتان وقال له :

إذن ماذا تريد ؟

ـ لا اريد شيئاً .

ـ كيف لا تريد شيئاً ؟!

ـ انك سألتني يا مولاي ماذا اصنع فوجب ان تعرف ذلك كي تعـلم إذا كنت استطيع قضاء هذه المهمة التي تريد ان تنتدبني اليهـا .

ـ لقد اصبت ، فاني اؤثر ان اعلم ما الذي تستطيع ان تصنعـه قبـل انتدابك ؟

ـ إذن فاعـلم يا مولاي اني بدأت بصنع الذهب وصنعت كل ما تدعونه بالحجارة الكريمة حتى ذلك الألماس الوهاج وملأت منهـا خزائني .

ولكن كل ذلك من الامور السهلة الميسورة التي لا يقدم عليها غير صغار اهل العلم ..

وانك تدهش لقولي ذلك وما ذلك إلا لقلة رجال العلم بيننا وان الناس يدهشون لكل جديد لم يروه من قبل .

على ان الناس سيرون بعد الف عام على الاكثر ان الذهب والرخـام والخشب والهواء والماء وجميـع المواد مادة واحـدة لا تختلف إلا بالصيغ .

الظاهرة ، فمن اراد صنع الذهب فما عليه إلا ان يحول المادة من شكل الى شكل .

وقد عرف فلاميل سر هذا التحويل وعرفته انا فأكبر الناس هذا الأمر لانهم يعجبون بكل اكتشاف كما تقدم .

ومن يعلم ايضاً إذا كان هذا السر يتفشى بين الناس أم يبقى مكتوماً فان فلاميل شديد الغيرة على اكتشافاته ، فهو يكتم اسرارها ولا يبوح بها لأحد .

اما انا فاني أكشف سر صنع الذهب حين اجد تلميذاً جديراً بي ولكن هيهات ان أجد هذا التلميذ .

وعلى ذلك فان هذا السر سيموت بموتي وبموت زميلي ثم يحيونه في القرون القادمة ولكنهم لا يعتبرونه من الامور الخطيرة

اما الذي اشتغل به فهو عظيم يا مولاي ، وعندما افتكر بنتائجه يخيل لي ان الارض لا تسعني لكبريائي لأني سأغدو بما افعله شبيهاً بالآلهة .

نعم ، وسأبلغ ما أسعى اليه ، فاني أشعر منذ خمسة عشر عاماً اني لا يفرق بيني وبين الله غير حجاب دقيق ، وأنا اعمل الآن على إزالة هذا الحجاب .

فتصور ايها الدوق كم يكون قدر سلطاني حين استطيع ان أولد الذكاة والذاكرة والحب والبغض والخمول والكبرياء وجميع العواطف على ما اريد ، وإني استطيع تغيير هذه العواطف عشر مرات في اليوم إذا شئت أي اني أكون مسلطاً على افكار ليست لي .

هذا الذي اشتغل به يا مولاي وهذا الذي يؤدي بي الى الانتصار على الموت وجعل الانسان من أهل الخلود .

وكان ساكان يتكلم والدوق يصغي اليه كل الإصغاء إذ انه لم يدرك من معاني كلامه غير قوله :

« إني اولد الحب والبغض » .

www.mlazna.com-RAYAHEEN

وقد تنبه الى تلك الاعجوبة التي كان يراهـا في خده ، فان تلـك الآثار الحمراء التي جعل لونها يتغير فاستحـال من حمرة الدم القاني الى حمرة الورد ثم الى لون الاصفرار ثم توارى فلم يبقَ له اثر .

فمد الدوق يده معجباً منذهلاً وقال : اين اليد ؟

فانتبه ساتان وقال : اليد ، ثم ضحك وقال :

لقد أصبت يا مولاي ، فقـد شغلت بحديثي عن اثر تلك اليد ونسيتهـا فأذكرتني إياه . نعم يجب ان أمحو هذا الأثر فانه مـا زال بوجهي تضعف قوة كبريائي عن إتمام عملي العظيم .

قال : ولكن هذا الأثر قد امحى .

ـ كلا ، فلقد يظهر لك انه امحى،أما انا فأشعر بانه يحرقني . انظر فانه عاد الى الظهور

ـ نعم ، نعم . يا لله ما هذا الأمر الغريب ؟

ـ لا تفتكر يا مولاي بهذه ودعني افتكر بها وحدي ، أما وقد عرفت الآن ما استطيع ان افعل فقل لي ما تريده مني .

فاطرق الدوق مفكراً ، ثم التفت الى ساتان وقال له :

لقـد ادعيت انك تستطيع ان تولد الذاكرة ، فهل تقدر ان تولد النسيان ؟

قال : كيف لا استطيع فان الاثنـين واحـد . إذن ان مولاي يريد ان ينسى حادثة تؤرقه في رقاده .

او يريد ان ينسى رجـلاً او امرأة لا يُفتأ خيالهما يمر بباله ، وقـد تكون هذه المرأة اول امرأة احبها وقد ماتت بشراب شربته او بخنجر طعنت به .

فاصفر وجه الدوق وأوقفه باشارة فقال :

انك تعرف كثيراً من الامور ، فلا تهيج غضبي ، أمـا لورانس ابزيم

فسواء كان موتها بالسم او بالخنجر فاني لا افتكر بها وقد امحت من ذهني .

ـ إذن قل ما تريد ما زلت لا تريد ان ابحث .

فتردد الدوق هنيهة ثم قال :

اني اريد ان أنسى امرأة وليست هي ميتـــة بل لا تزال على قيد الحيـاة ، وقد نزلت من قلبي في الصمـــيم وجرى حبها بي مجرى دمي في مفاصلي ..

ـ اتريد إذن ان تسلوها ؟

نعم نعم ، فهل تستطيع ان تجعلني مع هذه الفتاة كأني لم أرهـــا ولم اعرفها وأن يكون موتها وحياتهـــا سيان عندي واني استطيع ان اراها دون ان اضطرب واني إذا ابتعدت عنها لا اذوب شوقاً اليها ؟

ـ نعم استطيع .

فشعر الدوق كأنما ضربة قد أصابت رأسه ، فانه كان يرجو بانه يعجز عن ذلك شأن من يريد الرجوع عن امر يتعلق به فيتخذ مثل هـذا العجز ذريعة إلى إقناع نفسه بأنه لا يستطيع الرجوع . .

ومضى ساتان في حديثه فقال :

انك تريد نسيان هذه الفتاة لوثوقك من انهـا لن تحبك وان هـذه الثقة تضعف جهدك .

ـ نعم نعم هو ذاك .

ـ يجب التدقيق في هذا الشأن ، فانك تريد نسيان اوديت دي شامديفر لانهـا لا تحبك ولأن ذلك يعيقك او يمنعك عن الوصول الى العرش .

فوثب الدوق من مكانه ، ولو بدر من الساحر في تلك اللحظـــة أقل بادرة خوف لسقط قتيلاً ، فان الدوق جرد خنجره وقد برقت عيناه ومشى الى ساتان .

ولكن ساتان لم يبرح مكانه وقال بملء السكينة :

www.mlazna.com-RAYAHEEN

ولكنك تصل الى العرش دون ان تنسى اوديت ، ويكفي ان تكرهها على حبك .

فسقط الخنجر من يد الدوق وخفق صدره وسالت الدموع من عينيه ، فقال :

أيمكن ذلك ان يكون ؟

ـ لقد سمعت من حديثي يا مولاي اني استطيع توليد الذاكرة ولكنك لم تسمع مني اني أولد الحب ايضاً .. مولاي ، انك تظهر للناس بمظهر القوة أما انا فاني أراك ضعيفاً وابحث عن قوتك فلم أجدها .

فجلس الدوق على كرسيه وقال :

نعم لقد قلت اني اريد ان انسى ولكني لم اكن صادقاً في قولي ، فاني أتنازل عما اطمع به من الملك وأتنازل عن دوقيتي وأرضى ان اكون معدماً فقيراً بشرط ان ارجو ساعة بانها تحبني وقد تكون لي .

فاضطرب ساتان وقال في نفسه :

لقد اصبحت لي ايها الفاسق وقد بلغت بك الى حيث اريد من حب بنتك وبلغت الى أقصى دركات الفساد ، فانك بت سفاكاً فاسقاً خائناً خنت عشيقتك وزوجتك وملكك .

حب ايها الشقي واشق بذلك الحب الشائن ، فلسوف تدنو تلك الساعة التي تنصب فيها دموعك ، فان تلك التي تحبها ستنتقم لي منك وان ابنتك هي التي ستسحقك .

ثم دنا الدوق فوضع يده على كتفه .

ومن غرائب هذا الدوق انه على فرط كبريائه لم يتأثر لوضع ساتان يده على كتفه وهو لو فعل ذلك في غير هذا المقام لعذبه أشد تعذيب واعتبر عمله قحة وجرأة نادرة .

غير انه كان شديد الاضطراب لا يفتكر إلا بما سيقوله هذا الساحر

اما ساتان فانه ابتسم ابتسام المنتصر وقال :

اي مولاي الدوق انك اذا كنت تحب هذه الفتاة فخذها واجعلها ملكة الغرام والجمال فيخضع لها الشعب كما يخضع لك إذ يجب ان يعبدها الناس ما زلت تهواها .

انها ستحبك اذا كنت قوياً وانا احملها على حبك .

وهب انها قاومت وأبت ان تتشرف بحب جـان دي بور جونيـا فهل يصعب عليك الاستيلاء على فتاة صغيرة لا مدافع عنها .

انها ليس لها من يحميها غير هذا الشيخ شامديفر وأنا أتعهد بتنويمه وذلك خير حل لهذه المسألة البسيطة التي تعدها من المشكلات المعضلات .

انك سيد قادر يا مولاي أفتثبت بالأفعـــال لا بالأقوال انك ذلـك السيد القادر .

ان من كان له اسمك وسلطتك لا يحق له ان يقنط او يفشل ولا سيما لدى هذه الهنات الهينات .

وبعد فكيف تبالي بصياحها او ببكائها فانها لا بد لها ان تمتثل وما الذي تريده مني .. انك تريد اكسير حب يلطف اخلاقها ويجعلها تميل اليك .

أليس هذا الذي تريده ؟ ولكن ذلك لا يخلق بجان دي بورجونيا .

ان الاكسير يا مولاي هو تلك الشجاعة التي ادخلهـــا الآن إلى قلبك الضعيف وانت أسد فأظهر براثنك يخافوك وأظهر بأشد مظاهر قوتك وضع يدك على كتف الفتاة وقل لها :

انك لي .

وهي ستبكي وتصيح دون شك ولكنها ستعجب بك فان قلوب النساء لا يفتح ابوابها المغلقة غير الأعجاب .

وأنا على اليقين بأنها ستكرهك اسبوعاً فلا تقنط ولا تكلمها إلا بلهجة السيد الذي يجب ان يطاع وأنا الضمين بأنها ستعجب بقوتك او ترضى عنك وتكون لك إلى الأبد بل تكون تلك الملكة التي تشتهيها .

ان هذا الاكسير الذي تسألني إياه انما يصلح لرجل لا شأن له ولا نفوذ

www.mlazna.com-RAYAHEEN

فانك اذا غلبتها بالاكسير احتقرتك مدى الحياة عندما يبطل فعل الاكسير والاحتقار أشد هولاً من الحقد يا مولاي وأما اذا غلبتها بالقوة غنمت قلبها وكانت كما تريد .

وبعـــد فمن يعلم يا مولاي فقد تكون تحبك بالسر وفي كل حال فاني سأخاطبها بشأنك واظهر لها من انت وماذا ستكون والبقية عليك .

فهل يجب ان اعلمك بأن الحق والعدل والشرف كلمات موضوعة لا معنى لها وانت تعلم يقيناً انه لا يوجد غير قوة واحدة وهي « القوة »

قف يا مولاي وسر لاغتنام قلب اوديت فهذا هو اكسيري .

وقد صادفت هذه النصائح هوى في فؤاد الدوق إذ كان يرتأى مثل هذه الآراء حين كان يناجي نفسه فكانت تمنعـه كبرياؤه عن التماس اكسير الحب ويرى انه لا بد له من استعمال العنف وقتل ذلك الشيخ الذي يحمي اوديت وانه لا ينال اعجاب الفتاة إلا اذا ظهر امامها بمظهر القوة .

وقد كان دعا ساتان اليه ليستعين بسحره فاذا به يستعين برأيه وقد بات حليفاً له فلما أتم حديثه نهض الدوق عن كرسيه وقال له :

أتتعهد بأن تخاطب اوديت في شأني ؟

قال نعم يا مولاي فاني استمهلك ثلاثة أيام فاذا لم تظهر لك اوديت بعد هذه المهلة بمظهر يرضيك من الميل اليك كان لك ان تسلمني الى الجلاد وتحكم باعدامـي .

– أخاف ان تكون هذه المهلة قليلة فهل انت واثق مما تقول ؟

– لا اطلب اليك اكثر من ثلاثة أيام .

فاتقدت عينا الدوق ببارق من الرجاء وقال له بصوت منخفض هائل .

حسناً فان البقية عليّ ولكنك إذا كنت خدعتني ..

فضحك ساتان وقال :

ثلاثة أيام يا مولاي .

وهنا انتهى الحديث بينهما فأوصل الدوق ساتان إلى ذلك الباب الذي خرج منه هردي محمولاً على اكتاف الفتيان الثلاثة وعاد الى غرفة رقاده فنام نوماً عميقاً.

٣٥

الذاكرة والقلب

بعد بضع ساعات مما تقدم كان ساتان يسير في غرفته ذهاباً وإياباً وقد اختفت تلك الآثار الدموية عن وجنته .

ولكن اثر الحقد لم يزل في قلبه الساخط على الدوق .

لأنه على فرط انهماكه بمشاغله العلمية لم ينسَ تلك الإهانة التي اهانه إياها الدوق حين صفعه تلك الصفعة على خده .

وهو الذي قال انه لا يستطيع اتمام عمله العظيم قبل ان يمحو اثر تلك الصفعة من قلبه لا من خده بالانتقام الذريع .

وبعد ان خفت وطأة اضطرابه وقف ونادى خادمته جيرود .

فأسرعت إلى تلبية ندائه فقال لها :

هل سقيتها الاكسير ؟

قالت : نعم ولكن ألا تريد ان تصغي إليّ ؟

قال : اسكتي فقد جعلته شريكتي في العمل العظيم ووجبت عليك طاعتي أسمعت .. والآن قولي لي ماذا أجابت ؟

ـ انها لم تجب بشيء سوى انها اضطربت ولكنك تذكر انك حين اطلقت سراح هردي قلت لك :

فقاطعها ساتان قائلاً :

قولي ماذا تعمل ؟

www.mlazna.com-RAYAHEEN

قالت : انها تبكي .. ولكنك الآن تريد اطلاق سراح لورانس دي ابزيم ايضاً وهو شقاء عظيم سيتبين لك شره .

– قلت لك اسكتي ايتها الثرثارة .

وقد جعل العرق يسيل من جبينه واصفر وجهه واصطكت اسنانه وعادت العجوز الى الثرثرة فقال لها :

قلت لك اسكتي ولكن اعلمي ان هذه المرأة التي سأرسلها الى قصر سانت بول لا تدعى لورانس دي ابزيم بل تدعى الانتقام .

والآن ضعي هذه الزجاجات في موضعها من الخزانة واحذري ان تشميها فان منها ما تقتل رائحته .

فهزت المرأة كتفيها وقالت :

مهما اسرعت بالذهاب إلى جهنم فاني موقنة بأننا سنلتقي فيها .

فتركها ساتان وصعد على سلم خشبي الى الدور الأعلى من منزله فدخل الى غرفة جميلة الاثاث تشبه كل الشبه غرفة لورانس حين كانت في منزل باسافان .

وكانت لورانس جالسة في تلك الغرفة على كرسي فلما رأت ساتان داخلا اليها وثبت من مجلسها واسرعت الى زاوية في الغرفة فلجأت اليها .

وكانت لا تزال على سابق جمالها يستحيل على المرء ان يحكم بأنها مجنونة غير ان حركاتها وتخاوفها وانذهالها كل ذلك كان يدل على فقد الذاكرة .

أما ساتان فانه مشى اليها وقال :

أتبكين يا لورانس دي ابزيم ؟

فنظرت اليه بانذهال عجيب وقالت :

لورانس دي ابزيم ! ولكني لا ادعى بهذا الاسم بل اني ادعى حنة المقيمة في شارع الدير كما قالته لي المرأة .

فوضع ساتان يده على جبهتها وحدق بها هنيهة فزال كل رعبها واشرق وجهها بنور الرجاء كما تشرق السماء بنور الشفق وقالت :

لورانس .. نعم اذكر اني ادعى بهذا الاسم أتقول بأني سأرى روزالي؟

ـ نعم يا لورانس سترينها جميلة يفتن حسنها العقول بعد ان افترقت عنها اثني عشر عاماً تذكري .

ـ اثني عشر عاماً ! أقمت هذا الدهر الطويل بعيدة عن بنتي في هذه الغرفة... ما أشد هول تلك الأيام التي تجرعني فيها تلك السوائل المحرقة فلا أستريح إلا في الليل حين تدعني أهيم على ضفاف السين .. وهذه المرأة الهائلة التي لم تفارقني لحظة .. رباه أأقمت اثني عشر عاماً هذا العذاب !

فقال لها ساتان : انك كاذبة فيما تقولين :

ثم قبض على عنقها وضغط عليه بعنف وقال :

انك كاذبة فانك تقيمين في منزل باسافان وانت وصيفة عند الملكة وستتزوجين بل انت مزوجة .

وعند ذلك قدم لها كأساً وقال لها :

اشربي :

فسقطت لورنس جاثية على ركبتيها وقد تمكن منها الرعب فقال لها ساتان .

احذري فاني ايزابو دي بافير ولا يخدعون الملكات انك وعدتيني ان تتحري فاشربي هذا السم .

فصاحت لورنس بلهجة المتوسل قائلة :

رحماك يا صاحبة الجلالة دعيني أتزود من بنتي بالنظر الأخير .

وقد بسطت لورانس يديها إلى الحضور إذ تمثلت لها حكايتها القديمة في ذاكرتها المضطربة فخيل لها انها ترى جان دي بورجونيا وريدون والملكة وتناديهم باسمائهم وان الملكة تناولها الكأس لتجرعها السم إلى كل تفاصيل تلك الحادثة الهائلة التي عرفها القراء .

www.mlazna.com-RAYAHEEN

فكان ساتان يراقبها وهو يكاد يطير سروراً بفوزه إذ بات قادراً على التلاعب بذاكرة هذه المنكودة كما يشاء .

وقد اخرج زجاجة من جيبه فصب ما فيها بكأس وتقدم منها فقال لها :

اشربي .

فأخذته بيد ترتجف وشربته وقد أصابها من الرعب نفس ما اصابها يوم أخذت الكأس من يد الملكة .

فجعل ساتان يراقب تأثير هذا الشراب عليها فرأى ان ملامحها قد تغيرت فجأة وعادت الى مـا كانت عليه من عدم الاكتراث فنظرت الى ساتان وقالت له :

لقـد اخبرتني جيرود بكل شيء وأنا متأهبـــة للذهاب الى قصر سانت بول .

فسر ساتان لفوزه الأكيد وقال لها :

اشكرك ايتها العزيزة حنة فالى اين تذهبين متى عدت من ذلك القصر ؟

ــ ألا تعلم إلى أين أعود اني اعود الى غرفتي في ذلك الشارع الذي اقيم فيه منذ اثني عشر عاماً فدعني الآن اعود الى غرفتي في ذلك الشارع الذي أقيم فيه منذ اثني عشر عاماً فدعني الآن اعود الى غرفتي .

وأما هذه الفتاة فسأخبرها كما تريد باسم امها وهو .. اصبر .

أرأيت كيف نسيت اسم امها ؟

ــ كلا لقد ذكرته فان الفتاة تدعى اوديت دي شامديفر وامهـا تدعى لورانس دي ابزيم .

ــ واسم الأب ؟

ثم ارتعش ساتان فانه وان يكن قد قتل ذاكرتها فقد ظهر كأنما عواطف قلبها وذاكرتها تتناوعان ثم قطبت حاجبيها وقالت :

نعم ان والد اوديت دي شامديفر يدعى جان الذي لا يخـــاف ، أي الكونت دي نيفر .

– أي الدوق دي بورجونيا .

– هو ذاك فقد صار دوقاً بعد وفاة ابيه .

– حسناً فاذهبي الى قصر سانت بول فانهم ينتظرونك فيه .

فانشحت لورانس بوشاحها وهي تحسب نفسها امرأة فقيرة تدعى حنة وسارت الى جهة الباب فتبعها ساتان وقال لها :

ألا تذكرين يا حنة مـــا وعدتك به جيرود امس في الشارع الذي تقيمين فيه ؟

– كلا .

– انها وعدتك بمكافأة عشرة ريالات اذا حضرت إليّ وقـــد حضرت فخذي المكافأة .

فأخذت المال وقالت له :

دعني الآن اذهب الى اوديت .

قال : اذهبي .

فخرجت لورنس من الغرفة التي كانت مقيمة فيها منذ اثني عشر عامـاً وهي تقول في نفسها :

يجب ان أعود الى منزلي وما كان يجب ان آتي إلى هنا .

ولم تعلم تلك المنكودة انها لم تبرح هذه الغرفة يوماً وان ساتان قد عبث بذاكرتها حتى اوهمها انها تقيم في ذلك الشارع .

ولما خرجت من هذا المنزل وقفت وقفة المتردد فان نور النهار قد ادهش بصرها وشعرت بقوة تعارض قصدها فجعلت تقول في نفسها :

من أنا.. أدعى أأدعى حنة حقيقة ومـا هذا الشارع الضيق وإلى أين أنا ذاهبـة ؟

وكان ساتان في اثرها يراقبها فدنا منها وهمس في اذنها قائلاً :

الى قصر سانت بول فانهم ينتظرونك .

www.mlazna.com-RAYAHEEN

فسارت دون ان تلتفت اليه ومشى ساتان في اثرها .

وما زال يراقبها حتى وصلت الى القصر ورآها دخلت اليه فعاد إلى منزله وهو يبسم ابتسام المنتصر .

* * *

كانت اوديت في تلك الساعة تقلب في يدها رسالة كانت قد قرأتها نحو مائة مرة وهي كما يأتي :

« ان فتاة فقيرة تدعى حنة تعرف سر ولادتك الذي لم تستطع دوقة دي اورليان ان تخبرك به وهي تعرف اسم ابيك وستحضر اليك لتراك » .

هذا كل ما كان مكتوباً في هذه الرسالة فكانت اوديت تنتظر قدوم هذه المرأة بفارغ الصبر وقد اصدرت امرها الى حراس باب القصر بأن يأذنوا لكل امرأة تريد مقابلتها بالدخول اليها . فكانت ترسل في كل دقيقة خادماً يسأل اذا كانت هذه المرأة التي تنتظرها قد حضرت .

وكانت مشتغلة بالتفكير بهذه المرأة فلم تسمع شيئاً مما كان يقال في القصر الذي اقامه واقعده خبر قتل شقيق الملك .

وبعد هنيهة ادخل احد الخدم لورانس دي ابزيم فنظرت اوديت اليها نظرت سريعة فشعرت لأول وهلة بخفوق في قلبها علمته بأنها ستعلم اسم ابيها ولكن الحقيقة ان وجه امها قد احدث في قلبها هذا الخفوق وهي لا تدري.

وكانت مربية اوديت واقفة معها تنظر إلى لورنس نظرات الحذر وعند قدميها كلب هائل الخلقة يدعى مأجور كان الملك قد اهداه اليها لحراستها .

فلما رأى الكلب لورانس داخلة نظر اليها نظرة الفاحص ثم احنى رأسه ولبث في مكانه فنظرت اوديت الى مربيتهـــا وقالت لها : لا تجزعي فان مأجور احسن استقبالها فلم يبق سبيل للخوف .

ووقفت لورانس تنظر الى اوديت وقد أصابها من ذلك الاضطراب الخفي نفس ما أصاب بنتها روزالي بحيث كانت تلك الام بجانب بنتها وهي مفترقة عنها بابعاد شاسعة إذ لم تكن تعرفها .

الى ان بدأت أوديت الحديث فأشارت بالرسالة الى أمها وقالت لها :
ذلك اكيد؟
قالت : ماذا ؟
ـ ذلك المكتوب بهذه الرسالة .
فأخذت لورانس الرسالة من يد أوديت فقرأتها ثم قالت :
لست فتاة ولا اعلم كيف عرفت ان أقرأ فاني فتاة فقيرة لم اتعلم القراءة على اني من امهر غسالات المدينة وقد اصبت بنكبة صيرتني الى ما أنا فيه فلا اجسر ان اخبرك بحالتي ولكني اكتفي باخبارك بانهم يدعوني حنة واني لا اعرف لي أباً ولا أماً ولا والداً وهذه كل قصتي .
ثم ضمت يديها وقالت :
سأخبرك بكل ما اعلمه دون ان اكذب بكلمة ، والله شاهد على صدق فيما أقول .
ـ لا ريب عندي بصدقك فقد أوحت نظراتك الثقة الى قلبي لأول وهلة فقول لي قبل كل شيء هل رأيت أمي .. من هي .. وأين هي ؟
ـ أمك ؟
ـ نعم ، نعم ، أمي .
فأطرقت لورانس برأسها وجعلت تحدث نفسها فتقول :
أمها .. اني لو كان لي بنت لما تمنيت إلا ان تكون مثلها ادبا وجمالاً فمن هي أم هذه الفتاة .. ولماذا نسيت اسمها .. ولكن هل عرفته فانساه .. ولماذا اتيت الى هنا ؟
وقد شعرت في تلك الساعة ان قلبها يكاد يخرج من صدرها وتمثل لها مهد بنتها روزالي وسمعت صوت مناغاتها ورأت نظراتها الساحرة .
ولكن هذه التذكارات الحقيقية كانت تمتزج في نفسها بالتذكارات الصناعية التي أوحاها اليها ساتان بشرابه فجعلت تشهق بالبكاء .
فتأثرت أوديت لبكائها وشعرت بعاطفة إشفاق غريبة لم تعرف تأويلها ،

www.mlazna.com-RAYAHEEN

واحست بقوة دفعتها اليها فأخذت يدها بين يديها وجعلت تنظر اليها نظرات ملؤها الحنان .

أما لورانس فانها انقطعت لفورها عن البكاء وقالت لها :

ان يديك تطفئان لهيب قلبي .

فابتسمت أوديت وقالت لها: انك تقولين كما يقول لي الملك المسكين حين تفاجئه النوبة فقولي لي الآن من هي أمي ؟

قالت : اني لا اعرفها وهذا كل ما اعرفه فاسمعي ماذا حدث منذ اثني عشر عاماً في إحدى الليالي الباردة .

ـ تكلمي ، تكلمي .

ـ انه في تلك الليلة جاءني رجل كان لي .. لا اعلم ماذا أقول ؟

ـ كان صديقك .

ـ نعم ، نعم ، وكان من بيت بورجونيا .

ـ بورجونيا ؟

ـ نعم ، وقد جاءني فقال لي : انه سيهبني مالاً جزيلا فتبعته ، وسار بي الى .. كلا ، لا يحق لي ان اذكر ذلك المكان .

ـ لقد تقيدت بيمين كما يظهر ؟

ـ نعم ، نعم ، ولكني استطيع القول بأنه ذهب بي الى قصر فخم ، وهناك عهدوا اليّ بطفلة بين الخامسة والسادسة من عمرها واعطوني التعليمات بشأنها ودفعوا لي المال الجزيل .

ـ من الذي اعطاك المال ؟

ـ والد الطفلة .

فسالت الدموع من عيني أوديت واضطربت لورانس لبكائها فقالت لها: لا تبكي فان بكاءك يقطع قلبي وسأقتل من يبكيك .

ـ أتمي حديثك .

أتريدين ان اسكت ؟ أتريدين انا اذهب ؟ ويل لي مما فعلت فاني اسلت دموعك .

ـ كلا ، كلا ، أتمي حديثك .

فظهر على لورانس كأنها تصغي الى صوت داخلي يحدثها ، ثم عادت اليها سكينتها تباعاً فقالت :

انك اذا اعدت كلمة مما اقوله لك قضي عليّ الموت .

ـ اطمأني فاني اكتم ما تقولين .

ـ أمك تموت اذا بحت بحرف .

ـ وأنا افديها بحياتي .

ـ الويل لأمك اذا عرف ابوك انك تعرفينه .

ـ اطمأني فهو لا يعرف شيئاً .

فوضعت لورانس يدها على جبينها كأنها تتذكر وقالت :

نعم ، لقد خرجت بك من القصر حسب الأوامر التي تلقيتها في مركبة كان يخفرها فرسان مسلحون وخرجنا بك من باريس .

حتى اذا ابتعدنا بك عن باريس، جردتك من ملابسك والبستك ملابس الفقراء .

فصاحت أوديت صيحة دهش لأنها ذكرت هذه الحادثة تمام الذكرى ولم يبق لديها شيء من الريب بحكاية لورانس .

أما لورانس فانها اجفلت لصياحها وقالت لها :

لقد ارهبتك ، أليس كذلك ؟

قالت : كلا ، فاني اعلم يقيناً انك لم تفعلي ذلك غير مكرهة ، وانك لم ترتدي بي السوء .

ـ بل كنت احسب اني احسنت صنعاً لأني كنت اعتقد اني لو لم امتثل لأمرهم قتلوك .. نعم ، وبأمر ابيك .

ـ أبي .. كلا ، انه لم يكن يريد قتلي .

www.mlazna.com-RAYAHEEN

– انه ..

– ماذا تريدين ان تقولي ؟

– نعم يجب ان أقول .. انه ..

وقد ظهر التردد على لورانس فانها كانت تريد أن تقول شيئاً ظهر لها انه اكيد ولا تريد قوله إذ ظهر له انه هائل .

ورأت اوديت ما كان من ترددها فقالت لها :

أتوسل اليك ان تقولي :

فبذلت لورانس جهداً عنيفاً وقالت :

نعم انه كان يحبك .

فأشرق وجـــه اوديت بنور البشر إذ لم يبق مجال لاتهـام ابيهـا وايقنت ان هذا الأب الذي لم تعرفـه لم يبعدها عنه إلا لوقايتهـا من خطر أكيد ، أي انها تستطيع أن تحب ذلك الأب .

وعلى ذلك فقد انتصر ساتان أتم الانتصار بهذه المكيدة الأدبية التي نصبها.

وأتمت لورانس حكايتها فذكرت لأوديت كل ما فعلته بهـا جيرود حين ذهبت بها إلى القرية وأودعتهـا عند الكاهن وعرضهـا في الكنيسة الى ان أنقذتها الدوقة دي اورليان وعهدت بها الى شامديفر .

غير انها كانت تعتقد في كل تلك الحكاية ، انها هي التي فعلت كل ذلك لا جـــيرود .

اوديت فانها وثقت كل الوثوق من صدق تلك الحكاية وسألتهـا قائلة :

ماذا كنت ادعى في ذلك الحين .

قالت : كنت تدعين .. انك كنت شبه ملاك ويخال لي اني اراك الآن كما كنت اراك من قبل بذلك الشعر الأشقر الجميل الذي كان يشبه غيوماً ذهبية وان يديك الجميلتين حول .. حول ..

وهنـا توقفت منذعرة وكانت تود لو خسرت حياتهـا وتمكنت من ان تجيب نداء قلبها فتقول لها :

حول عنقي . عنق امك وانك تدعين روزالي .

ولكنها شعرت بقوة عظيمة تمنعها عن هذا التصريح فقالت لها :

اني لا استطيع ان اقول لك اسمك او اني لا استطيع ان اقوله اليوم .

فقالت لها اوديت : لا بأس فلا تقولي اليوم غير ما تستطيعين ان تقوليه ولكن هل تستطيبين ان تقولي اسم ابي ؟

— نعم وذلك واجب عليّ فاعلمي ان أباكِ كان يدعى من قبل الكونت دي نيفر ، أمـا اليوم فانه يدعى الدوق دي بورجونيـا الملقب بجان الذي لا يخاف .

فغطت اوديت وجهها بيديها فان هذا الدوق كان مكروهاً من الجميع في ذلك العهد وقالت !

أبي الدوق دي بورجونيا !

— نعم ولكن احذري ان يعلم بأنك تعرفين انه أبوك فاذا عرف ذلك منك باتت امك مقتولة لا محـالة .. نعم نعم امك يا ابنتي .. اشفقـي على امك واحذري ان يعلم ما تعلمينه .

ثم اصفر وجهها وصاحت قائلة :

جان الذي لا يخاف .. كونت دي نيفر .

وسقطت على الارض مغمياً عليها .

٣٦

صباح ليلة القتل

وكان الشيخ شامديفر وحاضنة اوديت واقفين عند الباب فأسرعـا وانهض لورانس عن الأرض فأجلساها على كرسي وعالجتهـا الحاضنة بالماء

www.mlazna.com-RAYAHEEN

والروائح العطرية فاستفاقت بينما كان الشيخ قد أخذ بيد اوديت وهي مصفرة الوجه فقال لها :

ماذا قالت : ماذا قالت ؟!

فأجابته اوديت بصوت يضطرب قائلة :

لا أستطيع ان أبوح بما قالت :

— الا تقولين ذلك لي ؟

— ولا لأبي.

فنظر الشيخ نظرة استياء الى لورانس ثم رق قلبه لها فقال : مسكينة .

فقالت اوديت : نعم انها مسكينة ويظهر انها كابدت كثيراً من الشقاء وحبذا لو تمكنت من مداواة شقائها باقامتها هنا وتعزيتها وحملها على نسيان الماضي اذا أرادت .

وكانت لورانس قد استفاقت وسمعت ما قالته اوديت فقالت :

من يكلمني عن النسيان ؟

فأسرعت اوديت اليها واخذت يدها بين يديها فقالت بحمية .

اذا احببت ان تقيمي هنا نسيت احزانك في اقرب حين وفوق ذلك فاني احب ان اسألك ايضاً عن امور كثيرة .

وكانت اوديت تتوقع منها القبول ولكنها رأت ان وجهها قد احمر . ثم سمعتها تقول :

كلا فقد حظ علي ان انسى وحبذا لو تمكنت ان انسى بأني حنة المقيمة في شارع الدير وذكرت .. اسماً لا اعرفه واجهد نفسي عبثاً بتذكره فاستودعك الله فاني عائدة الى منزلي .

— أتعودين . عديني على الاقل بأنك تعودين .

— لا ادري فاني لا استطيع ان اعود إلا إذا ذكرت .

— اذن خذي مني هذه المكافأة على الأقل .

وقد ناولتها اوديت كيساً مملوءاً بالدنانير فأخذته لورانس دون ان تدري

ماذا تفعل ثم رفعت يديها كأنها تبارك ابنتها وانصرفت دون ان تقول كلمة فشيعها الشيخ شامديفر الى باب القصر .

وعندما وصلت الى ذلك البـاب اضطرت ان تقف اذ رأت فرقـة من الفرسان داخلة منه يتقدمهم دوق دي بورجونيا وهو بملابسه الرسمية .

فنظرت لورنس الى هذا الفـارس الجميل ونظر الدوق اليها فاضطرب واوقف جواده وقد اصفر وجهه وجمد الدم في عروقه .

وقد لبث بضع ثوان ينظر كل منهما الى الآخر إلى ان رفع الدوق يديـه شأن الخائف المستغيث وقال :

انه خيالها.. خيال التي كنت احبها .

وأما لورنس فانهـا لم تطق احتمال هذه النظرات فهربت وهي تصيح :

وعند ذلك صاح الدوق بأحد فرسانه قائلاً :

اسرع الى القبض على هذه المرأة .

غير انه اصدر امره بعـد فوات الأوان فان لورنس كانت قـد توارت عن الانظار .

أما الدوق فانه اضطرب اضطراباً عظيماً وجعل يقول في نفسه .

انه خيالها فماذا يريد مني هذا الخيال ؟

وقد رأى غليوم وهو احد رجاله الأربعة امامه فقال له :

أرأيت هذه المرأة ؟

— نعـم يا مولاي فهي متسولة كما يظهر ولا ادري كيف اذنوا لهـا بالدخول هنا ؟

— اذن انت واثق من انك رأيتها .

فذهل غليوم لسؤاله وقال : دون شك يا مولاي .

فذكر الدوق اسم لورانس همساً وسار إلى قصر الملكة .

وكان يقف من حين الى حين ويلتفت الى ورائه فلا يرى غير رجال البلاط .

www.mlazna.com-RAYAHEEN

غير انه لم يلبث ان نسي هذا الخيال وانصرف الى اطماعه فجعل يناجي نفسه فيقول :

لقد زال الحائل فان اورليان قتل، وايزابو باتت لي، وبيري لا أبالي به، والملك غير محسوب من عداد الأحياء وقد صحت احلامي دون شك ولم يبق غير خطوة بيني وبين عرش فرنسا .

وعند ذلك دخلت فرقة من الفرسان الى قصر سانت بول وترجل فرسانها على مقربة من فرسان الدوق دي بورجونيا ، فعرف الدوق انهم رجال الدوق دي اورليان القتيل ، والكونت دي ارمانياك ، الذي كانت ابنته مخطوبة لابن الدوق دي اورليان .

وكانوا جميعهم بملابس الحداد فلما ترجلوا عن جيادهم صاحوا جميعهم بصوت واحد .

الانتقام .. الانتقام .. ليمت القاتل .

وكانت بينهم فالنتين ارملة الدوق ، وقد رأى جان ان الكونت دي ارمانياك اسرع الى مركبتها فأنزلها منها وجعل يقول بصوت جهوري .

أيها الملك شارل أين انت .. أيها الملك انهم قتلوا أخاك وهذه ارملته آتية اليك تطلب العدل والانتقام .

فصاح الجميع من ورائه قائلين :

الانتقام الانتقام .

وكان الكونت دي ارمانياك هذا من كبار الأسياد وأشد اهل القتال في فرنسا وله كثير من الاتباع فأيقن دوق دي بورجونيا ان هذا الكونت سيكون من أشد خصومه .

ولكنه تركه وشأنه في ردهة القصر وصعد مسرعاً الى الملكة فلقيها وقال لها بصوت منخفض .

هذه الليلة .. لويس دي اورليان ..

فقاطعته قائلة : لقد عرفت ما جرى فان رئيس حراسي رأى كل شيء واخبرني بما فعل رجالك بحيث اصبحت الآن سائراً في طريق العرش .

وكانت تكلمه بلهجة خطيرة وجان ينظر اليها فيراها تنظر اليه نظرات اعجاب ويقول في نفسه :

انها باتت لي لا محالة .

ثم فتح ذراعيه وضمها إلى صدره فلم تعترضه هذه المرة وربما كانت قد احبته في تلك اللحظة حباً صادقاً فكانت تقول له :

لقد اصبحت ملكاً ويقول لها : وانت اصبحت امبراطورة ورجال ارمانياك يصيحون في الردهة .

الانتقام .. الانتقام .

وبعد هنيهة ارتعشت ايزابو فجأة وقالت له :

لم ينته كل شيء فقد بقيت امرأتك مرغريت .

قال : انها تموت .

– والدوق دي بيري ؟

– سيقتله الجلاد فان مؤامرته على الملك ثابتة وهي كافية لاعدامه .

– والملك ؟

– ان مرضه سيقتله ومع ذلك فقد احضرت طبيبين ليجهزا عليه .

فجعلت تلك الفاجرة تضحك وهي تنظر نظرات اعجاب الى الدوق ثم انقطعت فجأة عن الضحك وقالت :

اننا لا نستطيع التعجيل على الملك ما زالت هذه الفتاة عنده وربما شفته من جنونه .

فقال لها الدوق وقد شعر كأنما ضربة قد أصابت قلبه .

اوديت دي شامديفر ؟

فضحكت الملكة وقالت :

www.mlazna.com-RAYAHEEN

نعم هي تلك التي يلقبونها بالملكة الصغيرة فلا بد من اخفائها عن العيون وسأسرع في ذلك منذ اليوم .

– تخفيها عن العيون ؟

– نعم فاني اختطفها مثلاً وحين تغدو في محل امين .. لا تقلق لذلك فاني اعرف رجلاً يتولى هذه المهمة .

وقد كانت تفتكر بهردي فقال لها الدوق : بل أنا أتعهد بقضائها .

وانما قال لها ذلك كي يأمن بطش الملكة بها فقد خطر له خاطر وهو ان يختطفها ويقيمها في قصر دي بورجونيا وهناك تكون آمنة لا تصل اليها يد الملكة ولا تعلم انها خليلته .

أما الملكة فانها مضت في حديثها كأنها لم تسمع ما قاله فقالت :

وعندما تصير في محل أمين ننظر في امرها اذ لا يمكن قتلها الآن في قصر الملك واما في خارج قصره فان الخنجر الذي قتل لورنس دي ابزيم يقتلها .

فاصفر وجه الدوق وتمثل له خيال لورنس فقالت الملكة .

وأما الرجل الذي يتولى اختطافهـــا فهو عندي ولا بد من الاسراع في ابعادها عن الملك .

فقال الدوق : اني أتعهد باختطافها قبل انقضاء ثلاثة ايام .

فقالت الملكة في نفسهـا : ان هردي يقضي هذه المهمة قبل ثلاثـة ايام ثم قالت للدوق :

اذهب الآن إذ لا يجب ان يشك بك احـــد وقاوم عاصفـة الكونت ارمانياك بل اذهب الى الملك وكن اول من يطلب الانتقام من قاتلي الدوق دي اورليان .

ولكن قبـل ان تذهب لماذا ارتكبت هذا الخطـــأ وجعلت رجالك يقتلون الدوق .

قال : لأن الرجل الذي كنت اعتمـد عليه أبى قتله في آخر ساعة فلم يتسع الوقت لاختيار سواه .

ـ من هو هذا الرجل ؟

ـ الذي لقيك في غابات فنسان .

ـ أهو الشفاليه دي باسافان ؟

ـ هو بعينه .

فاتسعت حدقتا الملكة ونظرت إلى الدوق محدقة قلقة وقالت : ماذا فعلت بـــه ؟

ـ اطمأني فانه لا يبوح بسرنا لانه ينام الآن نومة الأبد في أعماق السين .

فشعرت ايزابو بيأس لا يوصف وهمت لفورها ان تبطش بالدوق ولا ندري ما الذي دفعها إلى اليأس حين علمت بموت هذا الفتى ولعلها كانت قد عينت له مكاناً في قلبها المتسع للشهوات .

ولكنها اسرعت الى اخفاء اضطرابها فضحكت وقالت :

أتعلم من هو باسافان الذي قتلته ؟

ـ لقد قال لنا من هو في الغابة ؟

ـ انه كان كاذباً وقد اعترف لي بالحقيقة فهو ذلك الغلام الذي سجنتـه في هيدلون وانت تحسب انـه مات فيه وهو ذلك الغلام الذي حضر عقـد زواجك بلورانس دي ابزيم وجاءك به ساتان .

فارتعش الدوق لحظـــة ثم اطمأن حين ذكر انـه ميت في نهر السين واستأذن الملكة بالانصراف فتصافحا باليدين وجعل كل منهما يتمعن في وجه رفيقه ويناجي نفسه فكانت الملكة تقول :

انه الرجل الوحيد الذي اعتمد عليه الآن بعد قتل هردي .

وكان الدوق يقول : اني لا غنى لي عنها الآن فانها النجم الهادي الذي يرشدني في الطريق الذي اسلكها .

وقد شعر كل منهما انه بات مقيداً بالآخر وانه لا بد من التظاهر بالحب ولكنهما كانا يستران بهذا الحب ما يضمر انه في قلبيهما من الاحقاد .

فان الدوق كان يعتبرهـــا تلك العدوة اللدودة التي تريـد ان تبطش

www.mlazna.com-RAYAHEEN

بأوديت وكانت هي تعتبره قاتل هردي ولا تأمن كيده في مستقبل الأيام وكفى بذلك مثيراً للاحقاد .

وبعد هنيهة فارقها الدوق وذهب تواً إلى قصر الملك فدخل الى قاعته ووقف بجانب الكونت دي اروانياك فقال مخاطباً الملك .

مولاي ، لقد علمت الآن نبأ تلك الجريمة الهائلة التي حرمت المملكة من أشد اعوانها وحرمت الملك من أخ محبوب وحرمتني من صديق وفي.

مولاي ، انه يجب إيجاد القاتل ومعاقبته عقاباً يكون عبرة تتحدث به الأجيال القادمة ، وألتمس من جلالتك ان تعهد اليّ بهذه المهمة .

وكان الملك يسمع ما يقال وهو يبكي أسفاً على اخيه ، فلما أتم الدوق حديثه قال له :

لقد جئت بعد فوات الأوان يا دوق .

فاصفر وجه الدوق وقال : ماذا تعنون بذلك يا مولاي ؟

فوقف الملك وقال : سل الكونت دي ارمانياك .

ثم مشى إلى فالنتين أرملة أخيه وقد انهكها الحزن ، فأخذ بيدها وقال لها :

تعالي ايتها الأخت العزيزة فان الحزن عقد لساني فلا أجد كلمة عزاء ، تعالي فاني أعرف ملاكاً يعزيني ويعزيك .

وعند ذلك التفت الملك وقال فجأة :

هذا هو الملاك قد حضر .

فالتفتت فالنتين فرأت اوديت قادمة والدمع يحول في عينيها .

وذلك ان اوديت علمت بمقتل الدوق ، فلما علمت بان زوجته في القصر اسرعت اليها .

ويذكر القراء ان فالنتين ارملة الدوق هي التي أنقذت اوديت يوم العرض في الكنيسة وعهدت بها الى شامديفر فكانت اوديت تدعوها عرابتها منذ ذلك اليوم .

ومشت اوديت الى فالنتين ولكنها قبل ان تصل اليها وقفت وقد اصفر وجهها ومشت ثلاث خطوات مسرعة الى الدوق دي بورجونيا ، ثم وقفت ايضاً وجعل صدرها يخفق وهي تقول في نفسها .

ابي .. انه ابي .. ويلاه ، لا يحق لي ان أدعوه بأبي ولا ان أدعه يعلم بأني اعرفه .

اما الدوق فانه رأى نظراتها اليه واحمرار وجهها واضطرابها فكاد يجن سروراً وقال في نفسه :

لا شك ان ساتان قد نجح نجاحاً باهراً ، فانها تحبني دون شك بعد ان كانت تهرب مني ، وهذه نظراتها شاهدة على صدق ما اقول .

وقد حدث ذلك بسرعة فلم ينتبه له غير الدوق فان اوديت قد تمكنت من ضبط نفسها فنظرت الى الدوق نظرة حنو ظاهر أضاعت رشده ، ثم سارت الى الدوقة دي اورليان .

وبعد هنيهة خرج الملك من تلك القاعة يتقدمه ارملة الدوق اورليان وأوديت .

وقد بقي الدوق دي بورجونيا وهو يشعر ان قلبه سيخرج من صدره لشدة خفوقه .

ولكنه بات واثقاً من ان اوديت تحبه وانها ستكون له فقرر لفوره خطة اختطافها وإغوائها حتى اذا توارت عن نظره التفت الى الكونت دي ارمانياك عدوه الجديد وقال له :

لقد اقترحت على الملك ان أتولى البحث عن قاتل ابن عمنا العزيز لويس دي اورليان فقال لي لقد أتيت بعد فوات الأوان ، ثم أضاف الى ذلك قوله سل الكونت ارمانياك يخبرك .

فأجابه قائلاً :

ـ انما أراد جلالته بما قاله لك انه عهد اليّ بالبحث عن ذلك القاتل الأثيم ..

www.mlazna.com-RAYAHEEN

— انت ؟

— نعم انا ، وسأجده وأجعله عبرة للناس .

فالتفت الدوق الى ما حواليه وقد رأى من نظرات الكونت ونبراته ما يدل على وعيد عدو لا يرحم فاتقدت عيناه لخاطر هائل خطر له ووضع يده على قبضة خنجره فأسرع تونفيل ورفاقه اليه .

اما الكونت فانه نظر اليه بعين المحتقر وكتف ذراعيه وقال :

ارفع يدك عن خنجرك ايها الدوق ، او أحسب ان سفك الدماء من عاداتك ..

فذعر الدوق وتمثلت له المشنقة فبذل جهداً عنيفاً حتى تمكن من ضبط نفسه فقال :

أسألك المعذرة ، فليس ما بدر مني لأني غير موافق على اختيارك لهذه المهمة ولكني كنت أحسب ان ذلك من حقي ، فلندع البحث في هذا الشأن وقل لي ألعلك وجدت أدلة ترشدك الى القاتل ؟

فدنا ارمانياك منه وحدق به وقال له بصوت أجش :

ربما .

فارتعش الدوق واصفرت وجوه اتباعه الأربعة وسار ارمانياك ببطء الى حيث كانت تقيم اوديت .

وهناك لقي الدوقة تبكي بين ذراعي الفتاة فانحنى امامها وقال :

سيدتي ان بكاء الأموات لا بد منه ولكننا يجب علينا الآن ان نهتم لأمرين اولهما الانتقام .

فقال الملك : نعم يجب ان ننتقم لأخي من قاتله مهما يكن ذلك القاتل ..

فقال الكونت : ان ذلك منوط بي يا مولاي ما زلت قد عهدت اليّ بالبحث عن القاتل .

اما الأمر الذي يجب ان نهتم به فهو الحرص على حياة هذه السيدة النبيلة الدوقة فالنتين .

فنظرت الدوقة نظرة تشف عن حزنها الأكيد وقالت :

لم أعد اكترث للحياة وإني استقبل الموت بملء الارتياح .

فأجابها ارمانياك : ان حياتك ثمينة لدينا يا سيدتي ولا حق لك بالتصرف بها لا في قصر دي اورليان ولا في قصر سانت بول ، فانك معرض للخطر حق في حماية الملك .

فأطرق الملك المنكود برأسه وأخذ بيد فالنتين فقال لها :

لقد أصاب ايتها الأخت العزيزة ، فاني لا أستطيع حماية نفسي فكيف احميك ؟

فقال ارمنياك : ان قصرك في بيارفون شديد المناعة يستطيع المحاصرة ضد جيش ، فتفضلي يا سيدتي الى مركبتك حيث يخفرك رجالي الى ذلك القصر ، وسأسير اليك بعد ثلاثة ايام .

فامتثلت الدوقه وعانقت الملك ، ثم عانقت اوديت وسارت مع الكونت دي ارمانياك .

وكان في زاوية في تلك القاعة رجلاً واقفاً وهو ينظر الى الملك والدوقة ويبكي ..

فلما انصرفت الدوقة مع ارمنياك خرج من تلك القاعة الى رواق مظلم وكان هذا الرجل جاكمين المصور وهناك وقف مضطرباً إذ سمع رجلاً يقول من إحدى غرف الرواق.

« هذا المساء .. عند انتصاف الليل .. وأما الشيخ . . » .

فأزاح جاكمين ستارة تشرف على هذه الغرفة وأطل منها فرأى الدوق دي بورجونيا ورجاله الأربعة .

ولم يعد يسمع شيئاً ، فانه اسرع الى إرخاء الستارة إذ رأى من هيئة

www.mlazna.com-RAYAHEEN

هذا الدوق ما استدل منه انه يقتله لا محالة إذا علم بأنه رآهم ، فان عينيه كانتا تدلان على شر مستطير .

وقد اسرع جاكمين الى الخروج من هذا الرواق وهو يقول في نفسه :

انهم يأتمرون دون ريب ولكن ترى على من يأتمرون ، اعلى الملك وهو ليس من الشيوخ ام عليّ وأنا من الفتيان . ومن هـذا الشيخ الذي ذكره الدوق . لا شك انه الشيخ شامديفر يريد الدوق قتله ليحصل آمناً على الفتاة فاذا كان ذلك فماذا يصيب تلك الفتاة الطاهرة ملاك القصر بل ملاك مولاي الملك ؟

وقد أشفق اشفاقاً عظيماً على الملك وعلى اوديت وعلى الشيخ وخرج من القصر وهو يقول :

يجب ان أتمعن في هذه الحادثة وانظر كيف اذيع أمر هذه المؤامرة دون ان أدع الدوق يعلم بأني انا الواشي .

ولم يكن لجاكمين غير طريقـة واحدة للتفكير وهي طريقة شرب الخمر ولذلك ذهب تواً الى الفندق الذي يقيم فيه هردي فما أقبل المساء حتى كان قد بلغ إلى الرأي السادس أي الى الزجاجة السادسة .

٣٧

كرسي جاكمين

لقد علم القراء مما تقدم نية الدوق دي بورجونيـــا فقد كان له مأربان بالاستيلاء على اوديت بالعنف وبالحيلة .

احدهما مأرب مطامعه إذ لا بد له ان يقول لايزابو لقد نفذت اوامرك ولم تعد تلك الملكة الصغيرة في قصر سانت بول .

والثاني مأربـه الشخصي إذ رأى ان وعد ساتان قد نفذ بسرعة فانـه

أيقن الآن ان اوديت تحبه ولا بد له من ان يغتنم هـذه الفرصة قبـل ان يبطل مفعول هذا السحر اذا كان يعتقد ان ساتان لم يلقها اليه إلا بسحره .

وكان موقف جان واوديت من اعجب المواقف وادقها فان جان لم يكن يعلم انها ابنته وهي لم تكن تعلم انه يحبها حب غرام فاسد .

وقد وضع خطته فكانت كما يأتي :

قتل شامديفر بالخنجر او بالخنق وقتل حاضنة اوديت بالطريقة نفسها وتكميم فم اوديت كي لا تستغيث وارشاء حراس القصر ونقل الفتاة الى قصر دي بورجونيا .

وكان انفاذ هذه الخطة سهلاً عليه وعلى رجـاله ولذلك بات واثقاً ان اوديت ستكون عنده في الليلة القـادمة بعد انتصاف الليل بقليـل واخبر رجاله بخطته فبدأوا يتأهبون لتنفيذها .

* * *

ولنعد الآن إلى جاكمين الذي كان يشرب ليفتكر لا ليشرب فقد أقام حول مائدة الشراب كل يومه وهو تارة يرتعد من الخوف وتارة يشتد ويتشجع وهو لا ينقطع عن الشراب راجيـاً ان تهديه أشعة الخمر إلى طريقة ينقـذ فيها اوديت دون ان يعرض نفسه لشيء من الأخطار .

ولكنه لم يهتدِ إلى هذه الطريقة فلما شرب الزجاجة الثانية جعل يقول في نفسه :

عجباً كيف يقولون ان الخمر توحي الافكـار فقد سكرت كما سكر نوح اول سكرة دون ان اهتدي .

ومع ذلك فلا بد لي من انقاذ هذه الفتاة الطاهرة التي بت احبها لأنهـا تحب الملك او اكون خائناً دنيئاً سافلاً مخادعاً محتالاً إلى كل مـا حواه القاموس من هذه الصفات .

www.mlazna.com-RAYAHEEN

إذن لم يبقَ عليّ غير ان اذهب بنفسي للدفاع عنها فأخاطر بحياتي أي بأعز شيء لديّ في هذا الوجود .

وقد نهض عند ذلك عن كرسيه وهو حزين النفس منقبض الصدر حتى ان ليتبود رآه يبكي فأسرع اليه وقال له :

ان الدمع يا سيدي يوصف بالملوحة ولا يحمل ان تفسد به هذه الخمر الطيبة فما الذي يبكيك ؟

قال : وأأسفاه يا ليتبود اني ابكي لموتي القريب .

فضحك ليتبود لما سمعه ونادى احد خدمه وقال له : اسرع باحضار زجاجة خمر .

حتى اذا جاء بها صب له كأساً وقال له :

لماذا تريد أن تموت يا سيدي اشرب وتنعم واحتفظ ما استطعت بهذه الحياة فليس لنا غير حياة واحدة .

فعاد جاكمين إلى الجلوس على كرسيه وهو يقول : لقد صدقت أيها الصديق فاسقني فان المستقبل لا يظهر بلون الورد إلا إذا نظرت اليه من خلال اقداح الخمر .

وعاد إلى الشراب والتفكير فلما بلغ الزجاجة الخامسة تحمس فجأة ولم يعد يخطر له أن يذهب إلى قصر سانت بول وينذر اوديت بل تمثل له اولئك الأربعة وقد هجموا بخناجرهم على الشيخ شامديفر وخيل له انه هجم عليهم وهزمهم شر هزيمة .

فبرقت عيناه بأشعة الانتصار وضرب المائدة بقبضة حسامه ضربة اهتزت لها القاعة .

فهرول ليتبود مسرعاً وقال له :

ماذا تفعل : أعدت إلى ندب حياتك ؟

قال : كلا ولكني سأبيدهم جميعاً .

قال : كنت اؤثر يا سيدي لو كنت تبيد ما عندي من القناني .

قال : بل البراميل فهات الآن زجاجة فقد خطر لي الآن خاطر جديد أريد أن أتمعن به .

ولما شرب الكأس الأولى من الزجاجة السادسة قال في نفسه :

نعم ان هذا الخاطر لا يخطر إلا لأعظم الحكماء فان هذا الفتى من أشجع من رأيت وهو كريم نبيل لا يتأخر لحظة عن انقاذ الفتاة والشيخ .

وليس هناك شيء من التعب عليّ سوى ان اصعد على هذا السلم واطرق باب غرفتـه .

وقد نهض عن كرسيه المرة الثالثة وكان عازماً عزماً اكيداً هذه المرة على ان لا يعود الى الجلوس .

ولكنه جلس لفوره وقد ذهل ذهولاً عظيماً ، إذ رأى تونفيل وغليوم وكين وكورتيز قد دخلوا الى هذا الفندق .

وقد دخلوا يتقدمهم تونفيـل فرأى اثنين جـالسين على مائدة وعليهما دلائل الفقر فنادى صاحب الفندق وقال له بصوت مرتفع .

اخرج هذين الرجلين وأعد لنا مائدتهما .

فاصفر وجه احدهمـا ووضع يده على قبضة خنجره ، ولكن رفيقـه امسك بيده ونظر الى تونفيل فقال :

لقد صدقت يا سيدي فان الفقراء لا يجب ان يجلسوا في مجالس الاسياد وها نحن ذاهبان .

ولو كان هردي حاضراً لعرف ان هذين الرجلين كانا من اولئك اللصوص الذين هاجموا الملكة في الغابات يوم انقذها .

أما الرجلان فانهما خرجا من الفندق وذهبا إلى منزل هردي فتسلقا سور الحديقة ووثبا اليها دون ان يراهما احد .

أما الأربعة فانهم جلسوا وجاءهم ليتبود بمـا طلبوه من الخمر فجعلوا يكرعون الكأس تلو الكأس إذ كانوا في حاجة الى تهييج اعصابهم وشعورهم

www.mlazna.com-RAYAHEEN

لأن زمن الهجوم كان قد دنا فان الساعة بلغت العاشرة ولا بد لهم ان يكونوا بعد ساعة عند باب قصر سانت بول .

على انهم لم يكونوا يلتمسون بالسكر التحمس لقتل شيخ والقبض على فتاة بل انهم كانوا يريدون نسيان هذا الصوت الرهيب الذي سمعوه في ظلام الليل .. صوت هردي الذي قال لهم :

« يا تونفيل وغيليون وكورتيز وكين انكم ستموتون بيدي » .

وكانوا يقهقهون ضاحكين وهم يشربون ولكن عيونهم لم تكن تضحك كأفواههم .

وكانوا يعربدون ويشتمون الخدم ولكنهم كانوا ينظرون في كل حين نظرات قلق إلى ما حولهم كأنهم يخافون مباغتة هذا الخيال .

أما جاكمين فانه نهض للمرة الرابعة عن كرسيه وقال في نفسه :

لقد آن الأوان فلأصعد الى ذلك الفتى الباسل ولكنه سمع في تلك اللحظة تونفيل يقول :

لا تفتكروا به ايها الرفاق فان هردي قد مات .

فعاد جاكمين إلى كرسيه وقد اصفر وجهه وقال في نفسه : أمات ذلك الباسل ؟

فقال كرتيز : ألم يلقه الفتيان الثلاثه في النهر ؟

وقال كين : انه ما زال مشغول عنا بشرب الماء فلأشرب عنه من الخمر .

أما جاكمين فان الشراب كان قد بلغ منه ولكن هذا النبأ اذهب سكره فنظر الى الأربعة وهو يضطرب وقال لهم :

- ألم تقولوا ايها السادة ان الشفاليه دي باسافان قد مات ؟

فأجابه كين قائلا :

نعم يا حضرة المصور انه مات وقبر .

وقال تونفيل : اننا نأسف عليه فقد كان من الشجعان فلنشرب ايها الرفاق نخب باسافان الا تشرب نخبه يا سيدي جاكمين ؟

وقد افرغ الأربعة كؤوسهم في افواههم واقتدى بهم جاكمين على سبيل العادة وقد طاش رأسه وعلم ان اوديت والشيخ سيقتلان بخطائه فجعل يفتكر بما يجب ان يفعله إلى ان خطر له ان ينتظر ذهاب الأربعة فيسرع راكضاً إلى القصر بحيث يسبقهم فينذر الملك .

وعند ذلك دقت الساعة الحادية عشرة فنهض الأربعة وخرجوا من الفندق مسرعين .

فنهض جاكمين عند ذلك عن كرسيه وحاول ان يذهب ولكن قدر له في ذلك اليوم ان يبقى ملتصقاً بكرسيه .

وذلك انه ما لبث ان وقف حتى سقط على الكرسي وقد جحظت عيناه وفتح فمه وتلعثم لسانه من الرعب فقال :

هذا هو .. انه بعينه .

وكان هذا الداخل هردي فدنا من جاكمين وقال له وهو يبتسم .

انك تفرط في الشرب حتى اني اخاف ان لا تكون ابقيت لي شيئاً اشربه .

قال : ماذا تقول .. أأنت في قيد الحياة ؟

— ولماذا تريد ان أموت ؟

— كيف ذلك ألم يدفنوك في نهر السين كما يدعي تونفيل ورفاقه ؟

— اذا كان ذلك فاعلم اذن ان موتي لا ريب فيه واحذر ان تنسى والآن استودعك الله فلا تنسَ اني ميت .

ثم تركه وانصرف ولكن جاكمين وثب اليه فأمسك بذراعه فقال له :

اني انتظرك هنا منذ الصباح ألا تعلم ان تونفيل ورفاقه قد ساروا الآن إلى قصر سانت بول ليقتلوا الشيخ شامديفر فباالله يا سيدي الا ما اشفقت على هذا الشيخ وعلى تلك الفتاة التي .

— من هي هذه الفتاة .. اوديت ؟

— نعم نعم .

www.mlazna.com-RAYAHEEN

ـ أهناك خطر يتهددها ايضاً ؟

ـ هي او الملك او الاثنين معاً ولكن الذي اعلمه يقيناً ان تونفيل ورفاقه قد دخلوا الآن إلى قصر سانت بول .

ـ أتستطيع انت الدخول الى القصر ؟

ـ دون شك ولكن ..

ـ أتعرف كلمة المرور ؟

ـ نعم ولكن ..

ـ اذن اسرع بادخالي اليه او تكون من الهالكين .

سأدخلك فاني ما أتيت إلا لهذا ولكن كفاك تضغط على ذراعي فانك ستسحقه .

فأفلتـه هردي وسار الاثنـان حتى وصلا إلى باب القصر الاكبر فطلب جاكمين إلى هردي ان يقف بعيداً وتقدم إلى حارس الباب فجعل يحدثـه بصوت منخفض بينما كان هردي يذوب جزعاً .

وبعد هنيهة عاد جاكمين اليه فسأله هردي قائلاً :

أتستطيع الدخول ؟

فأجابه بصوت مختنق قائلاً :

كلا فان كلمة المرور قد تغيرت هذه الليلة .

٣٨

الهجوم

كان الدوق دي بورجونيا قـد اتخذ احتياطه في النهار فقد كان من اهل الشدة والحيلة كما وصفناه

فبعـد ان التقى بارمانياك وبعد ان سكر بابتسامة أوديت ذهب الى

الملكة ، فقال لها : سأخلصك هذه الليلة من تلك الفتاة التي يلقبونهـا بملاك القصر .

فجعلت الملكة تصغي اليه ، وقـد وافقت على شروطه ولكنها بقيت مشككة بالدوق ، لاعتقـادها انه لم يتول ، هذه المهمة ، إلا لأنه يحب أوديت .

وقد احتاطت لهذا الهجوم لاعتقـادها ان أوديت يردها المدد من ثلاثة مواضع :

أولهـا الحراس الذين اقامهم الملك لأوديت ، ثم كلبها الهـائل ، ثم المدد الذي قد يمكن ان يردها من الخارج .

أما الشيخ شامديفر فان رجال الدوق دي بوجونيا يكفون لقتله .

وأما الامداد غير المنتظرة فقد اكتفت لاتقائها انها أمرت بتغيير كلمة المرور منذ الساعة الحادية عشرة بحيث لا يستطيع أحد الدخول الى القصر ما خلا توفيل ورفاقه .

وأما الكلب فقـد قبض عليه احد جنود الملكة وحبسه في غرفة بعيدة كي لا يصل صياحه الى أوديت .

بقي الحراس وهؤلاء تعهد بهم ريدون .

ففي الساعة العـاشرة من تلك الليلة جاء ريدون الى القاعه التي يقيم فيها حراس أوديت الاثني عشر وهو يقول في نفسه :

اني اود قتل هؤلاء الحراس كما كنت أود قتل ذلك الكلب لو أذنت لي الملكة بقتله ، ولكني لا ادري لماذا عفت عنه ، ولعل ذلك لمـا اصابها من ضعف النساء .

على ان ريدون كان مخطئاً في ما توهمه فانها لم تأمر بابعاد الكلب لضعف تولاها ، بل لحكمتها وحيلتها لأنها ارادت ان توهم الملك بان أوديت قد هربت من القصر من تلقاء نفسهـا لا قتلت ولا اختطفت ، ودليل ذلك ان كلبها لم

www.mlazna.com-RAYAHEEN

يجرح ولم ينبس لأنها كانت تريد ارجاعه الى غرفة أوديت بعد اختطافها ونقل جثة الشيخ .

ولما وصل ريدون الى غرفة الحراس وجدهم مجتمعين فيها فحياهم الف تحية وقال لهم :

لقد تولاني الضجر هذه الليلة فجئت اليكم كي اشرب وإياكم واقامركم .

فنظروا اليه جميعهم نظرات تشف عن الاندهال لأنه كان رئيس حراس الملكة والتباين في المقام عظيم بينهم .

أما ريدون فانه صب في كأس خمراً من زجاجة وشرب نخبهم، ثم أخرج من جيبه كيساً محشواً بالدنانير فأفرغه على المائدة وقال لهم :

اني سألاعبكم على شرط ان يكون درهمكم ديناراً فاذا قمرتكم كسبت درهماً واذا قمرتموني كسبتم ديناراً ، وهكذا الى ان تفرغ دنانيري أو تفرغ دراهمكم .

فبهت الجميع لمنظر الدنانير الوهاجة وقالوا :

لقد رضينا الشرط فلنشرب ولنلعب .

واقاموا يلعبون ويشربون ، وقد شغلوا بتلك الدنانير عن كل امر حتى لو هوجم القصر وهم في هذه الحالة لما انتبهوا .

ولبث ريدون يلاعبهم ويتساهل معهم بالتغاضي حتى بلغت الساعة الثانية بعد منتصف الليل فوقف وقال :

لا بد ان يكون الأمر قد انتهى .

فسأله احد أولئك الحراس وقد سكروا جميعهم قائلاً :

ما هذا الذي انتهى ؟

قال : الضحك .

ثم جمع تلك الدنانير التي كان الحراس قد كسبوها منه، وهم ينظرون اليه منذهلين لا يعلمون ما يريد ووضعها في كيسه وخرج من تلك القاعة دون ان يجسر احد على اعتراضه وهو يقول :

أأترك مثل هذه الثروة لمثل هؤلاء السكارى كما تريد الملكة .. كلا ، فانها ضعيفة وأنا احق منهم بهذه الدنانير .

هذه هي الحيلة التي احتالها ريدون ، في تلك الليلة ، على حراس أوديت فنتج من ذلك ان تونفيل ورفاقه تمكنوا من فعل ما أرادوه دون ان يعترضهم أحد .

وقد دخلوا الى قصر سانت بول بعد ان رأوا مركبة واقفة بقرب ذلك الباب ، وهي المركبة المعدة لنقل أوديت الى قصر الدوق دي بورجونيا .

ولما دخلوا من الباب الاكبر واقفل في اثرهم وجدوا انهم باتوا في ظلام دامس ووقفوا يتشاورون .

وفيما هم على ذلك سمعوا صوتاً لطيفاً يقول لهم :

اتبعوني فسأقودكم .

فانحنوا بملء الإحترام اذ علموا ان الصوت صوت الملكة وجردوا خناجرهم كاتما وجود الملكة بينهم قد اهاجهم الى القتل .

وتقدمتهم الملكة في الأروقة والدهاليز والقاعات ، وهم يتبعونها حتى وصلت الى باب فوقفت عنده ، وقالت لهم :

هذا هو الباب فيجب ان تدخلوا منه دون ان تحدثوا ضجيجاً .

فادخل تونفيل خنجره في ثقب الباب يحاول فتحه فانكسر الخنجر وشتم شتما قبيحاً .

فانتهرته الملكة قائلة . اسكت .

وحاول كورتيز ان يفعل فعل رفيقه فانكسر خنجره ايضاً .

وعند ذلك ، اسند كين وغيليوم كتفيهما الى الباب ، وجعلا يهزانه هزاً عنيفاً .

وللحال سمعوا صوتاً من الداخل يقول :

من أنتم ؟

فقالت الملكة : اسكتوا .

www.mlazna.com-RAYAHEEN

وبقي الأربعة يهزون الباب ، فعاد الصوت من الداخل يقول :

من انتم أيها الأوغاد ، اذهبوا من هنا .

فهاج الأربعة لهذه الإهانة وثارت بهم عاطفة القتل وأخذوا يهزون الباب بعنف عظيم .

فقال لهم الصوت: كفاكم أيها الاسافل فسأفتح لكم وسترون ما يكون.

فصاح الأربعة قائلين : إفتح أو نكسر الباب .

وكان صاحب هـذا الصوت الشيخ شامديفر ففتح الباب وجرد حسامه ووقف في وجوههم وهو يقول :

الستم سوى أربعـة ، لقـد حسبت من اصواتكم انكم جيش ، فماذا تريدون ؟

اني طالما لقيت العشرة والعشرون وكانوا رجالاً، أما أنتم فاني القاكم كما القي الأطفال .

ثم انقض عليهم انقضاض الصاعقة ونشب بينهم قتال عنيف فكان يدافع عن نفسه خير دفاع الى ان شعر بطعنة اصابته بين كتفيه فصاح صيحة ألم ، ونظر الى باب غرفـة أوديت نظرة قنـوط ، ثم سقط صريعاً على الأرض يتخبط بدمائه.

ذلك ان يد الملكة الأثيمة قد عالجته بطعنة خنجر من ورائه غدراً كي لا يطول زمن القتال وينبه الحراس .

ولما رأته سقط صريعاً اشارت بيـدها الى الباب الذي يدخلون منه الى أوديت فمشى الأربعة الى الباب ولكنهم قبل ان يصلوا اليه فتح وظهرت منه حاضنة أوديت .

وكانت قد فتحته لتعلم ماذا يجري فلما رأت الشيخ قتيلاً والأربعة هاجمين عليها صاحت مستغيثة .

ولكنها قبل ان تتم جملتها طعنها تونفيل بخنجره فسقطت قتيلة والتفت تونفيل الى الملكة فقال لها :

ـ من يجب ان نقتل أيضاً ؟

ـ كفى .

ثم نظرت الى الجثتين ، واشارت الى الأربعة ان ينتظروها وتراجعت الى الرواق .

وبعد هنيهة عادت يصحبها ستة رجال ، فحملوا الجثتين وخرجوا بهما .

وعنـد ذلك قالت الملكة للاربعة : انكم تعرفون ما يجب ان تفعلوا .

فأجابها تونفيل قائلاً :

نعم اننا سنأخذ أوديت دي شامديفر فنضعها في المركبة التي تنتظرنا عند باب قصر سانت بول .

ـ والى أين تذهبون بها ؟

ـ الى قصر مولانا الدوق .

فأطرقت ايزابو مفكرة وقالت في نفسها :

لماذا يذهبون بها الى قصر الدوق ؟

وبعد ان تمعنت هنيهة نظرت اليهم وقالت وهي تبتسم : حسناً ، فخذوا الفتاة ولا تسيئوا اليها .

فقال تونفيل : لقد تلقينا مثيل أمر جلالتك من الدوق .

ـ نعم انكم ستأخذونها ولكنكم لا تذهبون بها الى قصر مولاكم .

ـ الى أين يجب ان تسيروا بها ؟

ـ الى قصري .

ثم اجتازت تلك القاعة التي قتل فيها شامديفر واجتازت بعـدها القاعة التي قتلت فيها الحاضنة ، ثم اجتازت بعدها تلك القاعة التي تلاعب بها أوديت الملك بالورق الى ان وقفت عنـد باب ، وقالت للاربعة الذين كانوا يتبعونها ساكنين واجمين .

انها هنا فاسرعوا واكسروا هذا الباب .

فوضع كورتيز يده على تفاحة الباب ، وقال : لا حاجة الى كسره فهو مفتوح .

وانما كانت تدعه مفتوحاً لأنها كانت آمنة مطمئنة فقد كان يحرسها اثنا عشر رجلاً وشامديفر والحاضنة وكلبها .

وقد دخلت ايزابو يتبعها الأربعة ، وكانت أوديت جالسة على كرسي امام مائدة ، وقد فاجأها الرقاد ، فانتبهت لوقع الخطوات ، وفتحت عينيها ، فكان أول ما أصابها ان وجهها قد اصفر ، وجعل قلبها يخفق بعده .

ولكنها افتكرت ان الملكة لم تستطع الدخول اليها إلا بموافقة شامديفر والحاضنة فانحنت امام ملكة فرنسا بملء الاحترام وقالت :

اشكر جلالة مولاتي لتفضلها عليّ بهذا التشريف، ولو لم اعلم ان جلالتها تريد ان تبقى معتزلة عنها لما تأخرت عن الذهاب اليها .

فهاجت عواطف الكبرياء في قلب الملكة وقالت :

أنت .. أنت عندي .. ولماذا ؟

ـ لأن لدي كثيراً من الامور يجب ان اقولها لك ، يا سيدتي .

ـ انت .. وما الذي يجب ان تقوليه انت لزوجة الملك شارل ؟

ـ سيدتي ، اني احب ان اكلمك عن الملك ، فان جلالتك لا تجهل السبب الذي وجدت من اجله في هذا القصر ، ولماذا انا باقية فيه ، ويكفيني يا سيدتي ان وجودي يخفف شقاء هذا الملك المنكود الذي تخلى عنه الجميع، فأنسى ما ألقاه من سوء المعاملة ، فاذا تفضلت بسماع ما اريد قوله بت موقنة من انقضاء مهمتي ، فاني اترك بعدي لإنقاذ شارل السادس ، تلك التي تقول لي نظراتها الآن : ماذا تفعلين في قصر سانت بول؟

فابتسمت ايزابو ابتسامة هائلة وقالت :

اظن ان هذه الفتاة تحاول إهانة الملكة .

قالت : معاذ الله ان اجسر على ذلك يا سيدتي ، ولكـــني ادافع عن نفسي ، فاني ما اتيت الى هذا القصر إلا بالرغم عني ، وقد اتيت اليه بدافع الشفقة ، ثم اخذت تلك العاطفـة بالزيادة في كل يوم حتى رضيت بالبقاء في القصر وانا اعـلم اني أخاطر فيـــه بما هو اشد من الموت أي باساءة ظن جلالة الملكة .

وقد قالت هذا القول وتراجعت خطوة الى الوراء وأشرق وجهها بنور العفاف الطاهر بحيث شعرت الملكة لأول مرة بغيرتها من هذه الفتاة .

ولكنهـا نظرت نظرة سريعة الى ما حولهـــا فكبحت جماح غضبها وقالت :

حسناً ، تعالي اليّ وهناك تكلميني بما تريدين .

فانحنت اوديت وقالت : متى تأمر سيدتي ان أتشرف بالذهاب اليها ؟

قالت : الآن

ـ كيف ذلك يا سيدتي ، أفي هذه الساعة المتأخرة من الليل ... إذن يجب ان يصحبني الشيخ دي شامديفر وحاضنـــتي ، ولكن مالي لا أراهما هنا ؟ ..

وقد نظرت نظرات قلق الى تونفيـل ورفاقه ، فالتفتت الملكة ايضـاً اليهم وقالت :

إذن خذوها اليّ ما زالت لا تريد ان تأتي بمحض ارادتها .

وعند ذلك تجلت حقيقة الخطر لأوديت وعلمت انها مائتة وان الملكة لم تأتي اليها مع رجالها إلا وقد قضت عليهـا ، ثم خطر لها بسرعة التصور ان هؤلاء الرجـال لم يستطيعوا الدخول اليهـا إلا بعد مرورهم على جثتي شامديفر وحاضنتها .

اما الأربعة فانهم تقدموا اليها وكان غليوم يحمـل منديلاً ليكم به فمها وتونفيل يحمل وثاقاً ليربطها به .

فتراجعت اوديت منذعرة الى النافذة وقهقهت الملكة ضاحكة وهي تقول: انها تبكي .

وكانت اوديت تبكي بدموع غزيرة ذلك الشيخ وتلك الحاضنة اللذين كانا يحبانها أصدق حب وقد قتلا بسببها .

وكان تونفيل قد رفع يده اليها وقال : هلمي ايتها الحسناء .

فوثبت الى النافذة وفتحتها بسرعة ثم التفتت الى الملكة وقالت :

انك تكرهينني يا سيدتي على الانتحار فأنا أغفر لك موتي ، ولكني لا اغفر لك موت ذينيك العجوزين اللذين لم يكن ذنبهما إلا انهما يحبانني ..

فأسرع الاربعة اليها وعلقت ايديهم بها ..

٣٩

تابع الهجوم

لقد تركنا جاكمين يقول لهاردي : اننا لا نستطيع الدخول ، فان كلمة المرور قد تغيرت فجأة هذه الليلة .

فوقف هاردي وقد جمدت دماؤه في عروقه فقال :

ـ كيف تغيرت ولماذا ؟

ـ لا اعلم ، ولكني واثق من ان هذا التغيير من إحدى ضرباتها .

ـ اوضح ما تقول .

ـ اقول ان ذلك من صنع ايزابو ملكة فرنسا وأميرة الدهاء وسيدة المكر والحيلة و ..

كفى ، فقد قلت لك اني لا اريد ان اسمعك تهين الملكة امامي .

ـ ليكن ما تريد ، ولكن اعلم يقيناً انها هي التي غيرت كلمة المرور

كي تقتل تلك المنكودة دون ان يزعجها احد .

فضم هاردي قبضته وقال : انها اذا فعلت ذلك ..

ـ ماذا تصنع ؟

ـ اصنع ؟ كلا ، اني لا استطيع ان اسيء الى الملكة ، فانها هي التي انقذت روزالي

ـ روزالي ؟

فلم يسمع هاردي سؤاله وقال : الويل لي فان كل ما اسمعه عن هـــذه الملكة يدل على انها من شر المخلوقات ولكنني مدين لها بالامتنان إذ لولاها لماتت روزالي قانطة .

ثم التفت الى جاكمين وقال له : تعال .

ـ اني اريد ان اتبعك ولكن الى اين ؟

فمشى هاردي وهو يقول : اني لا اعلم بعد .

وتبعه جاكمين وهو يقول في نفسه : ألعله اصيب بالجنون .

ولم يكن هاردي قد جن ولكنـــه كان قانطاً ، ولا فرق بين اليأس والجنون سوى ان اليأس نوع من انواع الجنـــون المؤلم ، فان هاردي كان يود ان يخسر حياته في تلك الساعة على ان يستطيع الدخـــول الى قصر سانت بول .

وقد جعل يسير حول سور القصر وجاكمين يتبعه وهو لا يعلم إلى اين يسير ولم يخطر له خاطر على الاطـلاق سوى انه لم يكن يريد الابتعـاد عن القصر .

وكان يعلم يقيناً ان الدخول اليه محال فقد كان مطوقاً بالأسوار العالية والخنادق العميقة محدقة بتلك الأسوار والجنود تسير من حين الى حين ولكنه كان يقول في نفسه .

لا بد لي من الدخول .

وجعلا يسيران حتى وصلا إلى مثال من الرخام يمثل صورة العذراء وقد

وضع أمامه مصباح يضيء بالزيت فأخرج جاكمين من جيبه مصباحاً من الورق يطوى ويوضع في الجيب فاذا اريد اثارته نشر فكان في اعلاه قطعة مستديرة من الكرتون يحمل المصباح بها وفي أسفله قطعة اخرى من الكرتون يغرس في وسطها شمعة تنار وهو يشبه المصباح الذي كانوا يحملونه عندنا في الليل من عهد بعيد ويدعونه « الفنار » .

وقد أثار جاكمين مصباحه من مصباح العذراء وسار في اثر هردي حتى رآه وقف عند احد ابواب القصر وهو ذلك الباب الذي خرج منه هردي حين انقذته اوديت من سجنه .

ولم يكونوا يخفرون هذا الباب عادة غير ان الحذر كان شديداً في تلك الليلة لقد رأى جاكمين حارساً واقفاً على السور فوق الباب .

وكان هردي قد وقف عند ذلك الباب فخطر لجاكمين خاطر سريع فدنا من هردي وقال له :

ان البرد يؤذيك اذا لبثت واقفاً على ما انت إلا اذا وافقتني على اللعب بالورق ولا اخالك إلا توافقني .

وجلس فوق العشب قبل ان يسمع جواب هردي واخرج من جيبه ورق اللعب ووضع مصباحه على الأرض .

فصاح به الحارس يقول :

من أنت أيها الرجل وما هذا المصباح ؟

فنظر اليه جاكمين وأجابه قائلاً :

ألا ترى أيها الجندي الباسل إني احمل مصباح ديوجنس الفيلسوف .

— لا شأن لي مع الفلاسفة فابتعد من هنا .

— ولكنه مصباح ديوجنس[1] وانا ابحث به عن رجل يا ابن الجاهلة .

---

(١) كان ديوجنس من مشاهير فلاسفة الاقدمين في عهد الاسكندر وله نكتة المصباح المشهورة وهي انه كان يسير في الاسواق نهاره وهو يحمل مصباحاً فلما سئل في ذلك قال : إني أبحث بمصباحي عن رجل ولم أجده حتى الآن .

– لا تشتم امي او ارميك بسهم لا يخطىء صدرك وابتعد من هنا .

– ألم تفهم بعد أيها الابله اني لا ابحث عن رجل عاقل كما كان يبحث ديوجنس بل ابحث عن مقامر يلاعبني بالورق .

فساد السكوت هنيهة ثم أطل الجندي من فوق السور وقال بلهجة مسالم . أتريد ان تلعب الورق ؟

– دون شك .

– وأين هو ورق اللعب ؟

– انه أمامي ألا تراه على نور مصباحي ؟

– لقد عرفتك الآن فأنت السيد جاكمين مصور جلالة الملك .

ولم يكن هردي قد انتبه في البدء الى هذه الحادثة فجعل يصغي الى حديثهما بملء الانتباه .

أما جاكمين فانه أجاب الحارس قائلا :

نعم أنا هو جاكمين مصور الملك وقد افرطت في الشرب هذه الليلة فلم استطع الرقاد ولذلك طفت باحثاً عن رجل ألاعبه فأما اخسر ما في كيسي او اضاعفه .

فلم يسمع جاكمين تنهد الحارس ولكن هردي سمعه فدنا من جاكمين وقال له :

أنا هو ذلك الرجل الذي تبحث عنه .

– انت !

– نعم انا فقد افرطت في الشرب مثلك ولا استطيع الرقاد فلنلعب فأعاد جاكمين سؤاله قائلا :

انت !

فقبض هردي على ذراعه وقال له :

لنلعب في الحال او اقضي عليك .

ثم جلس على الأرض وأخذ الورق من يده فجعل يخلطه كما اتفق وهو يقول في نفسه :

إني سأبهر الجندي بالذهب فاذا لم ينخدع قضى علي اوديت لا محالة .

وهنا لا بد لنا ان نقول ان المقامرة بلعب الورق كانت مطمع جميع الناس في ذلك العهد لحداثة اختراع ورق اللعب وقد شاع شيوعاً عظيماً حتى ان رجال الدين حرموه وجعلوه من الخطايا المميتة وذلك لأن كثيراً من الأسياد باعوا قصورهم وكل ما يمتلكونه لما أصابهم من الخسائر ولم يكن القمار قاصراً عليهم بل انه تناول جميع طبقات الشعب فكان السعيد منهم من يستطيع ان يجد ما لا يقامر به .

وقد ادرك جاكمين غاية هردي وجعل يلاعبه وبعد هنيهة ارتعش هردي سروراً إذ سمع صرير المفتاح في قفل فقال في نفسه لقد أتى .

وذلك ان الحارس وقف على السور ينظر إلى اللاعبين وهو يذوب شوقاً إلى التفرج عليهما ويخشى النزول اليهما .

الى ان تغلب عليه الضعف فنظر نظرة الفاحص الى داخل القصر فلم يجد رجال العسس فنزل وفتح الباب ووقف فيه وهو لا يزال يتردد .

وعند ذلك افرغ هردي كل ما كان في كيسه من الدنانير على العشب فلم يعد الحارس يطيق الصبر فدنا منهما وقال :

وأنا ايضاً أريد ان ألعب .

فالتفت هردي اليه وقال له :

حسناً فخذ مكاني .

فتمتم الحارس قائلاً :

ولكن ليس لي غير القليل من المال .

فقال له جاكمين ، اني ألاعبك بالدين .

وقال هردي : لا حاجة الى ذلك فخذ هذه الدنانير وقامر بها .

فنظر الحارس إلى هردي والى الدنانير نظرة المتفهل كأنه حسب انه لم يفهم .

وقال له هردي ، قلت لك خذ هذه الدنانير وقامر بها فهي لك .

قد قال له هذا القول ومشى الى الباب المفتوح .

فذعر الحارس وصاح قائلاً :

يا للخيانة .. إليّ .. إليّ .

وقبل ان يتم استغاثته كان هردي قبض على عنقه بيده اليسرى ووضع رأس الخنجر على رقبته وقال :

اذا صحت صيحة واحدة فانك من الهالكين . والآن فاعلم اني لا اريد لك سوءاً فانك لم تسيء إليّ ولكن اعلم اني اذا لم ادخل في الحال الى قصر سانت بول كانت حياة الكثيرين فيه معرضة للخطر فابق في مكانك ولاعب جاكمين واني اقسم لك بشرفي انك اذا تركتني ادخل الى القصر لا تكون قد ارتكبت خيانة .

فأثرت هذه الأقوال على الجندي اكثر مما اثر عليه الخنجر .

ورأى هردي ذلك منه فابتعد عنه كي يدع له مزية الاختيار دون انذار .

فقال له الحارس : أتعدني أن لا يعلم احداً بأنك دخلت الى القصر من هذا الباب كي لا اجازي بالشنق فاني لا ازال في مقتبل الشباب :

قال : اقسم لك بشرفي .

قال : اذن ادخل وليأخذ الله بيدك فاني ارى من لهجتك ان الله قد ارسلك .

فتركه هردي ودخل مسرعاً ووقف الحارس وقد عاوده الاضطراب ولكن منظر الذهب والورق قد تغلب على مخاوفه .

ويذكر القراء ان هذه الدنانير التي كان ينفقها هردي انما كانت من

اموال المملكة التي بعثتها اليه مع جاكمين فاذا نجت اوديت من القتل فانما تكون قد نجت بهذه الأموال نفسها التي عينت جزاء لقتلها فكانت سبباً لانقاذها .

أما هردي فانه سار في نفس تلك الطريق التي سلكها حين خرج من قصر اوديت ووصل إلى تحت نوافذها .

وكان السكون سائداً وليس هناك أقل أثر يدل على حدوث هجوم فخطر لهردي ان تلك الحكاية التي سمعها من جاكمين لم تكن غير حكاية وهمية مثلها له السكر .

وقد ابصر نوراً ينبعث من نوافذ اوديت فقال في نفسه : انها لا تزال ساهرة وهي تقرأ دون شك .

وعند ذلك ذهب ما كان يخامر قلبه من الريب دون ان يعلم السبب وجعل يضحك وينظر نظرات حنو إلى النوافذ .

ثم تمثل له تونفيل ورفاقه وقال في نفسه : انهم ما أتوا إلى القصر وما تغيرت كلمة السر لخير إذ لا خير في هذا المكان .

وعند ذلك عاد الى التفكير باوديت فعاودته الهواجس ورأى انه لا يطمئن إلا اذا رآها .

ولكن كيف يستطيع ان يراها في مثل هذه الساعة وبأية حجة يتذوع واذا تمكن من مقابلة الحراس ونال الاذن بمقابلتها فماذا يقول لها ؟

وقد نظر الى النافذة وارتعش إذ خطر له ان يراها من تلك النافذة اذا تمكن من الصعود الى المشرف الكائن تحتها .

وكان المشرف مرتفعاً نحو قامة فضحك ضحكاً عصبياً وقال بصوت مرتفع :

كيف السبيل الى بلوغ المشرف إلا اذا طرت اليه بأجنحة ؟

فأجابه صوت من ورائه قائلاً :

او اذا رفعتك اليه .

فاجفل هردي وجرّد خنجره والتفت فرأى رجلاً واقفاً ورآه يخفيه الظلام فقال له :

من انت ؟

قال : أنا صاحبك سجان الهيدرون .

فأغمد هردي خنجره وقد عرفه فصافحه وحياه تحية الأصدقاء فقال له السجان :

ألا تذكر يوم اخبرتك بأنك لا تخرج من السجن حياً وانك عولت على الانتحار واني حين جئت اليك بسيفين لاسليك بالمبارزة غلبتني ووضعت سيفك على عنقي فقلت في نفسي : انك سوف تقتلني وتهرب :

قال : لقد توهمت ذلك .

قال : بل انك كنت ناوياً قتلي فلما تغلبت عليّ القيت سيفك الى الارض وذهبت إلى زاوية في السجن فجعلت تبكي .

وعند ذلك اخذت السيفين وخرجت بهما من السجن واقفلت بابه ووقفت اصغي فسمعتك تبكي نحو ساعة ووالله اني وددت لو فديت كل دمعة من دموعك بنقطة من دمائي فلما انقذتك هي وفارقتني جعلت ابكي كما كنت تبكي .

فاضطرب هردي وقال : هي ؟

قال : نعم هي تلك الفتاة التي أتيت الآن لتراها أتعلم انها منذ انقذتك كانت تأتي إليّ في كل يوم فبتنا نلقيها بملاك السجن كما يلقبونها بملاك القصر .

ولماذا كانت تأتي اليك ؟

ـ لتحدثني عنك فانها كانت تريد ان تعلم كل امرك وكيف القوك في السجن وكيف تعيش وماذا تعمل وتفتكر وتقول وعلى الجملة فانها كانت تأتي كل يوم ولا غرض لها إلا الحديث عنك وامس وهبتني هذا الكيس .

وقد اخرج السجان الكيس من جيبه وأراه إياه ثم أعاده فقال له هردي:

اني اشتري منك هذا الكيس بالثمن الذي تريده .

قال : كلا فاني لا ابيعه والآن فلنبحث في شأنك فاني كنت منذ هنيهة أسير فوق الأسوار قرب الحارس دون ان يراني فرأيتك وعرفت قصدك من ملاعبة جاكمين ولو لم يفتح لك الحارس البـاب لفتحت لك باباً آخر وادخلتك .

ولما دخلت سرت في اثرك حتى رأيتك وقفت تحت هذه النوافذ وسمعت ما تقول :

وأنا اعلم الآن ما تريد .

فقـال هردي : اني امنح خمسة اعوام من عمري على ان استطيع الوصول إلى هذا المشرف .

قال : حسناً فاصعد الى كتفي تبلغ اليه دون جهد .

فكاد هردي يطير سروراً إذ لم يخطر له هذا الخاطر واسرع فوثب الى ظهر السجان ووقف فوق كتفه فتعلق بالمشرف وصعد اليه وجعل ينظر من تلك النافذة الى داخل الغرفة .

وكان زجاج النافذة مغطى بستائر رفيعة فلم يكن يستطيع النظر بجلاء ولكنه كان يرى .

فلم يكد يخرق نظره حجاب تلك الستائر حتى ارتعد وقال في نفسه . ان جاكمين اسداني خير نصح ولم يكن من المخطئين .

ذلك انه رأى الملكة ايزابو واقفة في تلك الغرفة يحدق بها تونفيل ورفاقه ورأى اوديت واقفة وقد اصفر وجهها من الخوف .

ولم يكن يسمع ما يقال ولكنه علم مما رأى ان اوديت تدافع عن نفسها لدى ايزابو .

ثم رأى الملكة أشارت اشارة عنيفة وسمعها تقول :

خذوها بالعنف ما زالت تأبى الذهاب بالرضى .

فاهتز هردي اهتزاز الغصن حركته ريح عنيفة وضرب الزجـاج بيده فتحطم ووثب الى الغرفة .

حتى اذا صار في داخلها عادت اليه سكينته فقال :

السلام لكم ايها الأسياد فاني رأيت الأبواب مقفلة فدخلت من النافذة . وانت يا سيدتي الملكة تفضلي بمعذرتي .

وكانت أوديت واقفة عند النافذة فجعلت تنظر الى هردي نظرات ملؤها الامتنان وقد عادت اليها سكينتها كأنما أمنت بوجوده كل خطر .

اما ايزابو فانها نظرت الى هردي معجبة والغريب في امرها ان اول عاطفة شعرت بها حين رأته كانت عاطفة سرور وقالت في نفسها .

لا شك ان الدوق دي بورجونيا كان مخطئاً وكاذباً فان الرجل لم يمت كما قال .

وقد رأت نظرات اوديت اليه ونظراته اليها فقالت في نفسها :

لا ريب انهما متحابان فاتقدت عيناها ببارق مخيف والتفتت إلى تونفيل ورفاقه فقالت لهم :

اذن اقبضوا على الاثنين .

فجرد هردي حسامه الطويل وقال لأوديت بلطف .

لا تخشي يا سيدتي فلا يجسر احد من اولئك اللصوص ان يمسك بسوء .

قالت : اني لا اخاف وانت معي .

وصاحت ايزابو مغضبة فقالت :

ما بالكم أيها الجبناء انقضوا عليهما .

فضحك هردي ضحكاً عالياً لما رآه من ذعر الاربعة فانهم تراجعوا حين رأوه وقد اصفرت وجوههم فقال كين :

انه بعث من القبر .

وقال غليوم : اننا لم نسمع صوت خياله بل صوته ولكن الأموات يحيون.

أما تونفيل وكورتيز فانهما لم يقولا شيء لأن الرعب عقد لسانهما .

وساد السكوت الهائل بضع ثوان والملكة تنظر اليهم منذهلة ثم رأت

تونفيل قد وثب الى الباب كالمجانين وخرج منه راكضاً والذعر ملء قلبه فتبعه الثلاثة .

وبعد هنيهة كانوا يركضون هائمين في شوارع باريس .

وكان الدوق دي بورجونيا ينتظرهم في قصره في قاعة السلاح فرآهم قد دخلوا مرعبين مذعورين والعرق يسيل من جباههم.

فقطب حاجبيه وقال لهم : أين هي ؟

فقال كورتيز : باسافان .

وقال تونفيل : الميت .

وقال غيليوم : ان نهر السين ، يا مولاي ، لا يكون قبراً .

فضرب الدوق الأرض برجليه مغضباً ، وأقام نحو ساعة يسألهم ويتزلف اليهم تارة بالوعيد وتارة بالرجاء الى ان سكن رعب الأربعة واخبروه بكل ما اتفق .

فلما وقف الدوق على الحقيقة قال في نفسه :

ان هؤلاء الأربعة لا شك جبناء ، واقسم على ان يعاقب هاردي افظع عقاب وان يشنق برايسكايل وبراكايل وبرافكايل .

ولم يكن غضب الدوق لخيانة الفتيان الثلاثة ولفوز هاردي فانه كان واثقاً من فوزه بمعاقبتهم ولكن الذي هاج غضبه وجود الملكة ايزابو عند أوديت فقد علم انها باتت تحقد عليه حقداً لا ينتهي إلا بالموت .

وهنا فلا بد له من واحد من أمرين وهما : اما ان يصرح بحب أوديت ويتخلى عن كل مطامعه ، أو يتعلق بايزابو ، ويضحي أوديت ، ولكنه لم يستطع في تلك اللحظة الاعتماد على أمر ، فنظر الى رجاله الأربعة نظرة مغضب وقال :

أتخافون وانتم اربعة من فرده ؟

فقال كين : اننا لم نخف من رجل بل من خيال .

ـ لقد قلت لكم من قبل انه حي ولكنكم اربعة خفتم من واحد فلا ارضى بعد الآن ان تكونوا من رجالي .

فنظر كل منهم الى الآخر وجعل الدوق يمشي في القاعة ذهاباً وإياباً وهو يراقبهم خلسة ويسمعهم يتحدثون باصوات منخفضة الى ان افترق تونفيل عن رفاقه ودنا من الدوق فقال له :

مولاي .

فقال له الدوق بجفاء .

لقد قلت لكم انكم لستم من رجالي فاذهبوا .

قال: مولاي اننا نلتمس ان تؤجل حكمك هذا الى الغد، فاذا كان الذي لقيناه خيالاً كان عذوفاً واضحاً واذا كان بعينه لا خياله فاني اقسم بالله ان يوم غد يكون آخر أيامه .

ـ أتهاجمونه ؟

ـ نعم ، فاننا نعلم أين يقيم .

وقال كين: وفوق ذلك فان غداً موعد جنازة الدوق دي أورليان ولا بد لنا ان نكون محيطين بك ، فان رجال الكونت أرمانياك سيكونون كثيرين .

حسناً ، فاني امهلكم ثلاثة أيام وستبقون في خلالها من اصحابي .

فخرج الأربعة وهم متأثرون اشد التأثر حتى انهم لو لقوا هاردي و كانوا يعتقدون انه خيال لهاجموه غير مكترثين .

ولما خلا الدوق بنفسه قال : انهم بواسل وفوق ذلك فقد يكونون مصيبين ، فان أسقف ديجون اكد لي ان الأموات تظهر ارواحهم في اكثر الأحيان للاحياء بالشكل الذي كانت فيه اجسامهم في قيد الحياة ، بحيث يصعب على من يراهم ان يفرق بينهم امواتاً ، وبينهم حين كانوا في قيد الحياة .

على ان رئيس حرامي رآه ميتاً لا حراك به ، والفتيان الثلاثة وضعوا

الحجر في عنقه والقوه في النهر فلا بد لي من ان استوثق من هؤلاء الثلاثة ، ثم ترى .

وعند ذلك نادى رئيس حراسه فحدق بعينيه وقال له :

قل الحقيقة أرأيته ميتاً في الكيس ؟

ـ كما أراك الآن حياً ، يا مولاي .

ـ ولكن تونفيل ورفاقه يؤكدون انهم رأوه .

ـ رأوه !

ـ نعم ، في هذه الليلة .

فرسم الرئيس علامة الصليب على وجهه ، وجعل يتمتم بصلاة كان يسمعها الدوق .

حتى اذا فرغ منها رسم الدوق ايضاً علامة الصليب على وجهه ، وقال : آمين .

ثم قال لرئيس حراسه : اذهب الآن باثني عشر جندياً واقبض على برايسكايل وبرانكايل وبراكايل .

***

٤٠

ولنعد الآن الى هاردي وأوديت فقد تركناهما ينظران الى الملكة نظرات غريبة كأنهما كانا يقولان لها :

أيمكن ان تتدانى ملكة عظيمة الى دس الدسائس ؟ أيمكن ان تكوني اتيت الى هنا مع اربعة رجال لقتل فتاة

اما ايزابو فانها نظرت اليهما نظرة الفاحص ، ثم قالت :

أيها الشفاليه دي باسافان ، كيف تبني سيفك مجرداً بيدك امام ملكتك ؟

ولم يكن في لهجتهـا شيء من الوعيد أو الجفاء أو الاحتقار ، بل كانت لهجة ملكة واثقة من قوتها وحقوقها وامتيازاتها .

فارتعش هاردي لسكينتها اذ كان يؤثر غضبها ، ثم حياها وأغمد حسامه ولكنه قال :

اسألك المعـذرة ، يا سيدتي ، ولكن لا بد من تنبيه جـلالتك الى ان أولئك الرجـال الأربعة الذين هربوا ، كانوا مشهـورين السيوف أمام ملكتهم أيضاً .

ـ نعم ، ولكنهم جردوها في سبيل خدمتها فلندع البحث في هذا الشأن فانك غير متعود عادات أهل البلاط وأنا اغفر لك هذه الهفوة كما اغفر لك خطتك ولكني اريد ان اعلم كيف دخلت فأجبني بسرعة .

فأجابها هاردي بملء البساطة قائلاً :

انك رأيتني ، يا سيدتي ، قد دخلت من هذه النافذة .

فالتفتت الملكة الى أوديت وقالت لها :

إذن ، يوجد رجل يحق له الدخول اليك في ظلام الليل من النوافذ حين يجد الأبواب مقفلة .

فاصفر وجـه أوديت لهذه الإهانة وارتجفت شفتا هاردي من الغضب فدنا من الملكة خطوتين وقال لها :

ان شخص جلالتك مقدس لدي ليس لأنك ملكة ، بل لأنك فيما مضى اشفقت على طفـلة صغيرة عرضت للاهانة وجعلتهـا تموت موتاً هادئاً اذ لم تستطيعي إنقاذها .

ولذلك اقسم لك انك لو سألتني دمي في خـدمتك لما ترددت ولكن لا تسأليني ان اسمع بسكينة مثل هذه الإهانة التي بدرت منك الآن .

فقالت له بلهجة المحتقر ولماذا ؟

قال : لأني اضطر عند ذلك الى قتلك .

فأطرقت ايزابو مفكرة وقد ارتفع صدرها بتنهد عميق فنظرت الى أوديت نظرة لا تشف عن غضب ، بل عن حزن وقالت في نفسها :

انها مجنونة .

ثم قالت لهاردي بصوت منخفض :

ان الملكة تريد ان تكلمك فهل تحضر غداً الى قصري ؟

فقال : اسأل مولاتي المعذرة والتمس من جلالتها ان تصدر لي أوامرها حيث تشرفت بمقابلتها .

قالت: انك تظهر بمظاهر التمرد والعصيان فاحذر لنفسك فاني استطيع القبض عليك والقائك في سجن هيدرون بحيث لا يخرجك منه هذه المرة غير ملاك الموت .

وانك تسألني ان اصدر اليك أوامري فاسمعها :

اني آمرك ان تخرج من هنا الآن فتذهب وتسلم نفسك الى رئيس حراسي وسأرى غداً ما يجب ان اصنع بك فاذهب .

فقال صوت أجش من ورائها :

بل ابقى هنا .

فالتفتت الملكة وأوديت وهاردي فرأوا الملك شارل السادس المجنون .

فارتعشت ايزابو وانحنى هاردي وقال الملك للملكة :

ليس لسواي الحق هنا باصدار الأوامر ، وهـذه هي اوامري التي القيها عليك الآن .

اذهبي الى قصرك وربما انسى انك اتيت الى قصري يخفرك رجال مسلحون لغرض لا اعلمه ولا ابحث عنه .

اذهبي ولنعش كما عشنا من زمن بعيد مفترقين فقد احببتك من قبل حين لقيتك في سهول شامبانيا وخلت ان سعادتي قد بدأت منذ ذلك اليوم وأنت تعلمين ماذا كانت السعادة .

ان الملك قد يفقد رشده ولكن لا يحق له أن يبكي ولذلك لم يعلم احد ان ملك فرنسا بكى نعيمه المفقود .

اذهبي فقد غفرت لك كل شيء ولكن احذري ان تصيبي الذين احبهم بسوء فان انتقامي سيكون هائلا .

وأنت ايها الشفاليه فقد علمت الآن سر جنوني ،ولو كنت أحسنت نظم الشعر لقلت في وصف حالتي :

لا تعجبوا يا ناس من مقتـه وما به من علة تمقتـه
فانما العـلة من غيره يا ويل من علته زوجتـه

فاكتم سر السبب في جنوني فاني اودعته شرفك .

وأنت يا اوديت ، اعذريني يا ابنتي لاعترافي بمثل هـذا الشقاء أمامك ، فقد تمر بي ساعات أتمنى بها لو لم اخلق ، ولكن ما قلتـه خفف شقائي .

وقد تنفس الملك الصعداء ، ثم مد يده مشيراً الى الملكة وقال لها : اذهبي ..

فاصفروجه ايزابو وقالت بصوت مختنق :

اتطرد الملكة امام هذه الماكرة وهذا التمرد ؟

ـ كلا اني لم اطردك بل قلت لك اذهبي .

فلم تمتثل الملكة ولبثت في مكانها وهي تنتفض من الغضب فقال لها الملك بلهجة عنيفة :

قلت لك اذهبي وهذا أمر الملك .

فشعرت ايزابو انها مغلوبة وذهبت وهي تزيد من الغيظ بعد ان نظرت الى هاردي واوديت نظرة هائلة .

وسارت ركضاً حتى بلغت غرفتهـا ، وكان ريدون رئيس حراسها ينتظرها فيها .

فلما رأته صاحت به بصوت يتهدج من الغضب قائلة :

انتقم لي .. انتقم لي ..

فجرد ريدون خنجره وقال : مري أطع .

ـ بل اذهب اذهب .

فذهل ريدون ولم يسعه إلا الامتثال ، فقد تعود الخضوع لأوامرها دون جدال وهمّ بالانصراف فقالت له :

إذهب فما انت ولا الدوق ذلك الرجل الذي احتاج اليه إذ لا يوجد غير رجل واحد في العالم ولكنه ليس لي واأسفاه .

ثم مشت الى الغرفة التي تقيم فيها النمرة ، فوضعت يدها على رأسها وقالت لها .

انت هي التي تنتقم لي .

فأجابتها النمرة بزئير مخيف .

* * *

اما الملك فانه جلس على كرسي وقال :

ان سافوزا اخبرني بكل ما حدث ، فانهم اختطفوا شامديفر والحاضنة

فصاحت اوديت صيحة رجاء وقالت :

إذن لم يقتلوهما ؟

ـ اطمئني يا ابنتي فسأردهما اليك بعد بضعة ايام .

ـ ولكني أخشى ان يكونا قد اصيبا بسوء ، فأتوسل الى جلالتك ان تأمر بالبحث عنهما في الحال .

ـ ولماذا يسيئون اليهما وهما لم يسيئا الى احد ؟ كلا انهم كانوا يريدون الاساءة اليك وإلي فقط .

فنسيت اوديت مخاوفها وقالت له :

اطمئن يا سيدي فلم يبق خوف عليك الآن .

وقد قالت هذا القول ونظرت الى هاردي ، فقال له الملك وقد رأى هذه النظرة :

كيف اتفق وجودك هنا ؟

فأخبره هاردي بما اتفق له مع جاكمين وانه حين وثق بان حياة الذين انقذوه معرضة للخطر اسرع الى افتدائهم بحياته .

وكان الملك يسير في القاعة ذهاباً وإياباً ويضع يده على جبهته من حين الى حين .

الى ان وقف وقال :

انهم كانوا يريدون قتلي .

وعند ذلك نادى سافوز وقال له :

أقم الحراس في كل مكان من القصر في الليل والنهار وفرقهم عند كل باب من الابواب ، وليقتلوا دون رحمة كل من يحاول الدنو منه سواء كان من الاصدقاء او من الاعداء ، فانهم يريدون قتلي ، نعم انهم يريدون قتلي .

ـ اطمئن يا مولاي فان الأوامر التي اصدرتها ...

ـ ولكنهم قد يرشون حراسي ، وقد يضعون السم في الطعام الذي آكله والموت في الماء الذي اشربه . نعم نعم لقد بت من الهالكين .

وقد جعل يرتجف فرقاً فقال له هاردي .

اظن يا مولاي انه لا يجب الآن ان نخاف .

قال : نعم ، فاني أتوسم فيك خصائل النبل والشجاعة والإخلاص ولكن غداً .. ايها الشفاليه : من يتولى حمايتي اذا خانني حراسي ؟

ثم صفق بيديه وقال : لقد نجوت .. نعم فاني سأبرح قصر سانت بول

غداً عند مطلع الفجر وأنت تذهبين معي يا اوديت ، وستخفر مركبتك فرقة من الفرسان بقيادة الشفاليه .

فقالت له اوديت :

لماذا يا مولاي هذا القرار ، ألا تصبر الى ان ..

فقاطعها الجنون قائلاً بلهجة ملوك المسارح .

اسكتي ، فمتى أمر الملك لا يجب إلا الامتثال . إذن ستذهبين معي وانك ايها الشفاليه ستتولى قيادة الفرقة فاحضر في الساعة الثامنة من صباح غد الى القصر أتعدني بذلك ؟

فابتسم هردي وقال :

ـ دون شك يا مولاي فمتى أمر الملك وجبت الطاعة وليس هناك وعود .

ـ لقد احسنت وليس هذا كل ما اريد قوله فهل تستطيع ان تبلغ بنا سالمين إلى قصر أخي المرحوم اذا كان تحت قيادتك مائة فارس ؟

ـ دون شك يا مولاي حتى بأقل من هذا العدد وكان يريد ان يقول اني اكفي وحدي لهذه المهمة ولكنه لم يجسر على ذلك .

فبش الملك اليه وقال له :

حسناً فسنسافر في الساعة الثامنة من صباح غد ونسير تواً الى قصر بيارفون فقد اكدوا لي انه شديد المناعة واني اريد ان أتحقق ذلك بنفسي وهناك نعيش آمنين إلا اذا أبت ابنة عمنا قبولنا .

فقالت له اوديت : كيف خطر لك يا مولاي ان تشتبه بمثل هذه السيدة النبيلة ؟

ـ حسناً فسنذهب الى امرأة اخي ونسألها ان تضيفنا في قصرها المنيع فنقيم فيه قدر ما ينبغي .

والآن فاذهب ايها الشفاليه ولا تنس انه يجب ان تتولى قيادة الحراس في الساعة الثامنة صباحاً .

فانحنى هردي امام الملك وامام اوديت وهو يكاد يطير سروراً بهذه المهمة وخرج من تلك القاعة كما دخل اليها أي من النافذة فوثب منها الى المشرف ومنه الى الأرض .

وهناك سمع صوت أنين الملك فعلم ان النوبة قد بدأت ووقف هنيهة يسمع تلك الصيحات المحزنة وهو لا يعلم ان هذه النوبة الفجائية التي اصابته كانت العامل الأكبر في تغيير مستقبله .

وذلك انه لو فرضنا ان الملك بقي سالماً معافى الى الغد وتولى هردي قيادة حراسه لصحت امانيه وكان له منصب رسمي في البلاط .

ولكن هذه النوبة التي اصابته لزمته كل الليل وفي صباح اليوم التالي كان منهوك القوى لا يستطيع حراكاً .

وبقي على ذلك يومين فلما عادت اليه قواه كان قد نسي أتم النسيان مشروع الهرب الى بيارفون .

٤١

منزل باسافان

اما هردي فانه حين وثب من النافذة الى المشرف ومنه الى الأرض ذهب الى ذلك الباب الذي دخل منه وبحث عن السجان كي يشكره فلم يجده فخرج من الباب فوجد جاكمين والحارس لا يزالان يلعبان .

فلم ينتبها اليه لانهماكهما في اللعب ولا سيما الحارس فقد كان خسر كل ما اخذه هردي .

ولما خسر آخر دينار شتم شتماً قبيحاً اجابـــه جاكمين عليه بضحك المنتصر . .

ثم التفت الاثنان فرأيا هاردي واقفاً امامهـا وقد رأى من يأس الحارس لخسارته فالتفت الى جاكمين وقال له :

أعرني هذه الدنانير التي كسبتها ، اتريد ؟

فقبض جاكمين على الدنانير بيد ترتجف وقال :

أعيرك إياها ؟

قال نعم ، واسرع فان الوقت غير متسع لدينا .

فلم يسع جاكمين غير الامتثال واعطاء الدنانير فأخذهـــا منه هاردي ودفعها إلى الحارس قائلاً :

خذ هذه الدنانير فهي نصيبك واسرع الى الدخول وإقفـال الباب فاني أسمع صوت العسس .

فأخذها الجندي وهو يحسب نفسه حالماً وأسرع راكضاً الى الأسوار .

وعند ذلك قال هاردي لجاكمين : اتبعني ،وسار الاثنان الى الفندق الذي يقيم فيه هاردي

وقد جرى ذلك حين كان تونفيل ورفاقه يتشاورون في قصر الدوق وقد قر رأيهم على البحث عن هردي فتدججوا بالسلاح وبرحوا القصر .

أما جاكمين وهردي فانهما بلغا الفندق فوجداه مقفلاً فـا زالا يقرعانه بعنف حتى استيقظ كل من كان فيـه ونزل صاحبه ليتبـــود مغضبـاً ففتح الباب .

ويسوءنا ان نقول ان ليتبود بالرغم عن اطمئنانه بعـد رعبه حقد على هاردي وعول على الانتقام منه ، فانه كان دمث الأخلاق لين العريكة دائم

البشاشة ولكنه لم يكن يغفر لمن يوقظـــه من رقاده فعزم على الانتقام من هاردي بزيادة الحساب وتقديم القائمة .

وقد دخل هاردي يتبعه جاكمين ، وصعد الاثنـان الى الغرفة ، فقال له هاردي :

افتح هذا الصندوق واخرج منه كيس ايزابو ، فاني مهما انفقت منه فلا بد ان يكون باقياً فيه ما يكفي لسداد ما اخذته منك ودفعتـــه الى الجندي .

فأخذ جاكمين الكيس وأفرغ ما فيه على المائدة وجعل يعد تلك الدنانير حتى اذا انتهى من عدها قال له :

يبق لي عليك نصف دينار ولكني اتجاوز عنه .

ـ كلا ، فاني مدين لك بنصف دينار ادفعها لك حين ..

وقد قطع عليه حديثه دخول ليتبود بقائمة الحساب ، فقال له هاردي : أيقدمون الحسابات في مثل هذه الساعة والناس نيام ؟

ـ ولكنك ايقظت جميع الناس يا سيدي فلم يبقَ احد نائماً .

فضحك هادي وقال : لا يجب ان توقظ هاردي بعد الآن .

فضحك ليتبود ايضاً لأنه اطمـأن حين رأى الدنانير على المائدة ، فقال له هاردي :

لقد خطر لي خاطر يا ليتبود وهو اني محتاج الى نصف دينـار قبل ان ادفع لك حسابك فاذهب وأتني به .

ـ اني ادفعه لك في الحال .

وقد حسب انه يمازحه ، ونقده نصف دينار فأضافه هاردي الى الدنانير وقال لجاكمين :

هوذا حسابك قد تم ولم يبق لك عليّ شيء ، فخذه .

فوضع جاكمين جميع المال في جيبه ، واضطرب ليتبود فقال :

وأنا ؟

فقال له هاردي : اني اردت مراراً ان ادفع لك مطلوبك فأبيت ، فاصبر الى ان يهبط عليّ كيس جديد واذهب الآن ونم .

فقال بلهجة القانطين : أأنام بعد ان خربتني .

فدفعه جاكمين الى الباب وقال له : اذهب فانك تكاد تسقط من فرط النعاس .

وقال له هاردي ، بل انك نمت وأنت واقف فاني اسمع غطيطك . ودفعه ايضاً الى الباب.

ولكنه قبل ان يصل الى الباب فتح من الخارج بعنف ودخل خمسة او ستة رجال يتقدمهم تونفيل وهو يقول :

انه حي .

فتراجع هاردي خطوتين الى الوراء وجرد حسامه الطويل فطعن به اول من وصل اليه من اولئك القتلة .

وعند ذلك أسرع ليتبود الى الصندوق ففتحه واختبأ به .

وركض جاكمين الى النافذة ففتحها ووثب منها الى الشارع .

ورأى هاردي ان خمسة آخرين قد دخلوا الى الغرفة فأيقن انهم يقتلونه لا محالة اذا قاتلهم فلا يستطيع ان يتولى خفارة اوديت ، فقال لهم :

اني اعاهدكم ايها السادة على الملتقى بعد ثلاثة أيام ، وأتعهد بالحضور الى حيث تشاؤون ، اتقبلون ؟

فهجموا عليه وهم يقولون : ليمت الخائن .

اما هاردي فانه فرق بسيفه من كان قد دنا منـــه وأسرع الى النافذة فوثب منها الى الشارع وهو يضحك ويقول :

انتظرني يا جاكمين .

ولما وصل الى الشارع رأى انه يوجد نحو عشرة ايضاً من اعدائه كانوا يتربصون له .

ولم يكن يريد ان يقتل ولا ان يجرح فمرق من بينهم مروق السهم وجعل يعدو عدو الجياد وهم في اثره حتى وصل الى منزله فتسلق الجدار ووثب منه الى الحديقة ومنها الى الردهة وبعد هنيهة كان في قاعة السلاح فتنفس الصعداء وقال في نفسه :

يجب ان ابذل كل جهدي كي اكون في الساعة الثامنة من صباح غد في قصر سانت بول

وقد لاحظ عند ذلك انه لم يتبعه احد الى داخل المنزل فقال في نفسه :

انهم ربما تراجعوا إذ لم يستطيعوا إدراكي في الطريق .

وعند ذلك أطل من النافذة واصفر وجهـــه ، فانه رأى مطارديه قد تضاعف عددهم وانهم يريدون محاصرة المنزل .

فلبث ينظر اليهم وهو يعجب كيف انهم لا يهاجمونه الى ان رأى بعد هنيهة انهم كانوا ينتظرون المدد وان النجدة قد أتت فبلغ عدد المحاصرين خمسين رجلاً .

فارتعد هاردي وقال :

انهم سيظفرون بي لا محالة ولكن لا بد لي ان اكون حراً قبل الساعة الثامنة من الصباح .

وقد جعل ينظر الى ما حواليه ويفحص بنظراته أثاث ذلك البيت الذي

كانت فيه روزالي تنيره بابتساماتها وقد عاشت معه فيه الى ان اختطفتها تلك اليد الأثيمة .

ومن غريب تعلقه بهذه الفتاة انه كان يفتكر بها في تلك الساعة والمحاصرون يطوقون منزله ولم يبق بينه وبين الموت غير خطوة

والأغرب من ذلك انه بينما كان يحسب ان يفتكر بزوزالي كان يفتكر باوديت بحيث كانت تتمثل له بصورتها فيقول :

رباه ، ترى ماذا تقول عني اذا لم أجيء اليها في الوقت المعين لأخفرها . نعم سأنزل الى هؤلاء القتلة وأمر من بينهم فأما أفوز بالنجاة او يقتلوني فيصل اليها خبر قتلي وتعذرني . نعم فلأذهب .

وكان الفجر قد بدأ ينبثق فنظر نظرة سريعة من النوافذ الى الحديقة فرأى ان معظمهم قد دخلوا الى الباب ووقفوا في الردهة وأقام بعضهم تحت النوافذ ، فقال في نفسه :

انهم باتوا يحذرون من النوافذ وذلك يعلمني ان ادخل وأخرج من الأبواب كجميع الناس.

وعند ذلك جرد حسامه واستل خنجره وفتح الباب المطل على الردهة ، فلما رأوه صاحوا جميعهم :

ليمت اللص .. اقتلوا اللص .

ولكن لم يتقدم منهم احد .

فابتسم هاردي وحاول ان ينزل اليهم .

ولكنه لم يخط الخطوة الاولى حتى تراجع منذعراً وقد جمد الدم في عروقه وجحظت عيناه . ذلك انه سمعهم يصيحون قائلين :

ليمت الدوق دي اورليان .

وقد فتحت نوافذ البيوت لهذه الصيحات وكثر لغط الناس فكان بعضهم يقولون :

يظهر ان هذا اللص هو الذي قتل شقيق الملك .

فيقول آخر : ان حفلة اعدامه ستكون من أبهى الحفلات :

اما هاردي فقد شعر انه اصيب بدوار فرجفت ركبتاه وعلم مراد تونفيل ورفاقه من هـذه الحيلة الشنعاء ، وانهم يريدون بها قتله شنقاً قتل اللصوص السفاكين فسقط الخنجر من يده ومسح عرق جبينه وهو يقول :

انها تهمة هائلة فظيعة .

وعند ذلك تقدم رجل وصعد الى السلم الذي كان هاردي واقفاً عليه ، وكان هذا الرجل تونفيل فقال له بصوت مرتفع :

ان شريكك بالجريمة قد اعترف بأنك قاتل لويس دي أورليان ، شقيق جلالة ملكنا وقد صدر الينا الامر بأن نذهب بك الى دار القضاء لمحاكمتك فهل تريد ان تتبعنا برضاك فقد يفيدك هذا التسليم .

فقال هاردي كأنه لم يسمعه : انه امر هائل .

قال : لا فائدة من التمرد ، وقد صدر الينا الأمر بان نأخذك حياً فهات سيفك .

فنظر اليه هاردي نظرة دموية ورأى بجانبه كين ، وغينيوم ، وكورتيز وقد وقف كل منهم بجانب الآخر ، ووراءهم الجنود المسلحة فقال له الأربعة بصوت واحد .

سلم حسامك .

فخطر لهاردي خاطر جنون في تلك الساعة وقال في نفسه :

اني اريد ان اموت هنا .

ثم رفع حسامه الى ما فوق رأسه وكانت هيأته مخيفة وربما نسي التهمة في تلك اللحظة ، فان السكوت قد ساد على الجميع ، وجعل الناس ينظرون اليه نظرات تشف عن الخوف وهو مشرف عليهم من ذلك السلم ، وسمعوه يقول :

يا تونفيل ، ويا غيليوم ، وكين وكورتيز ، انكم تموتون من يدي .

ثم جعل ينزل درجات السلم حتى بلغ الى الأربعة فتراجعوا منذعرين اذ كانوا يقرأون سور الموت بين عينيه .

ولكن هاردي كان قد طعن كين طعنة هائلة في صدره فاخترقه السيف من جانب الى جانب .

وهم ان يطعن غيره ولكنه رأى ان الثلاثة الباقين قد تواروا عن انظاره ووقفوا وراء تلك الجماهير التي هجمت على هاردي بالسيوف والخناجر وكلهم يريدون قتله .

غير انهم لم يطعنوه ، اذ سمعوا قوادهم الثلاثة يصيحون من وراءهم قائلين :

لا تقتلوه .. لا تقتلوه .. خذوه حياً .

فتراجع هاردي على السلم وقد انقبضت نفسه وظهرت عليه علائم الأسف على هذه الحياة القصيرة التي قضى نصفها في السجن ونصفها الآخر بالحداثة ، فكأنه لم يعش إلا بضعة أيام .

وكان الجنود يسيرون في اثره على ذلك السلم وهم يدفعونه الى المنزل كما كانت تدفعه جنود ريدون ، منذ اثني عشر عاماً ، دون ان يصيبوه بطعنة والثلاثة من وراءه يصيحون :

احذروا ان تقتلوه .. اننا نريده في قيد الحياة .

أما هاردي فقد ابتسم ابتسام القانطين وقال :

خسئتم فلا تظفرون به حياً أيها اللئام .

ثم انقض عليهم وهو يرجو ان يقتلوه متى شعروا بطعناته القاتلة .

وعند ذلك شعر ان يدين قويتين قد قبضتا عليه والقتاه الى الوراء ، ثم رأى أولئك الجنود يتراجعون منذعرين هاربين دون انتظام ، ورأى حوله نحو عشرين رجلاً يشبهون الشياطين بنظراتهم الهائلة وملابسهم البالية فكانوا ينقضون على الجنود بالسيوف وبالخناجر دون ان يقولوا كلمة .

فلم تكن غير دقيقة حتى نزل جميع الذين كانوا على السلم الى الردهة وهم ينظرون نظرات حقد وخوف الى أولئك الأبالسة ويقولون :

عصائب الجن .. عصائب الجن .

وكان أولئك الذين يلقبونهم بعصائب الجن قد ادخلوا هاردي الى قاعة السلاح التي كان فيها واحكوا إقفال بابها بينما كان المتجمهرون يصيحون وينقلون جثث قتلاهم وجرحاهم .

وقد أحاط بهاردي نحو اثني عشر رجلاً وكلهم صفر الوجوه ينظرون نظرات تشف عن الحقد الهائل ، ويبتسمون ابتسامات تدل على صحة العزيمة .

وكانت الخناجر لا تزال مجردة بايديهم وهي مصبوغة بالدماء فجعلوا يمسحونها بملء السكينة .

وعند ذلك سألهم هاردي قائلا : من أنتم ؟

فتقدم واحد منهم وهو اطولهم قامة وقال : : ألم تعرفني ؟

فتمعن هاردي هنيهة بوجهه وقال : كلا .

ـ ألم تسمع باسم بوليفيه [1] ؟

فابتسم هاردي وقال : اني لم اقم في باريس غير ايام قليلة ولم اختلط بالناس فلم اعرف بعد اسماء المشاهير .

قال: ألم تسمع بتلك العصابات التي يلقبونها بالمردة ويكرهونها ويشبهون رجالها بالذئاب الخاطفة لأنهم يريدون ان يعيشوا احراراً .

أولئك الرجال الذين ينهبون ويقتلون ، ويكمنون في الغابات لأولئك الأغنياء والأمراء فينالون من اموالهم ما كانوا ينالون باستبدادهم ونفوذهم من اموال الناس ..

أولئك الذين اتخذوا القتل مهنة فاذا قبضوا عليهم وقتلوهم ماتوا موت السعداء غير مكترثين .

فعلت أصوات العصابة من حوله إشارة الى موافقتهم على ما يقول زعيمهم .

ونظر هاردي فلم يجد امامه غير رجال يفرحون لذكر الموت ومضى بوليفيه في حديثه فقال :

نعم، نحن قوم كرهنا الاغنياء وخافنا النبلاء وحقد علينا الأمراء وحملوا علينا الحملات المنكرة قصد إبادتنا ولكننا لا نبيد إلا متى باد الفقر والشقاء بين الناس فهم يحقدون علينا ، ونحن نحقد عليهم ، ونعاملهم بتلك الشريعة القائلة عين بعين وسن بسن .

أما أنا فقد وضعت الحكومة جائزة مالية لمن يأتيها برأسي ولو قتلتني

---

(١) ليس هذا الاسم من مخترعات المؤلف بل هو اسم رجل يذكر التاريخ انه كان رئيس عصابة هائلة الفت الرعب فيضواحي باريس في ذلك العهد بينما كانت عصابة الدوق دي بورجونيا ترعبهم في قلب العاصمة .

ذلك اليـوم الذي هجمنا فيه على مركبة الملكة ايزابو في الغـابات لنلت جائزة قـدرها الف دينار ، ولكنك عفوت وتغاضيت عني حتى مهدت لي سبيل الفرار .

ـ لقد عرفتك الآن .

ـ أما أنا فقد عرفتك لأول وهلة لحسن الحظ فان هذا المنزل قد جعلناه مركزاً لعقد جلساتنا وفي اقبيته نكنز اموالنا واننا نضيفك الآن فيه .

ـ انك مخطيء ، فانتم اضيافي ولست أنا ضيفكم ، كما تقول ، فان هـذا المنزل منزل أبي باسافان ، الملقب بالباسل ، وفيه ولدت وأنا الشفاليه دي باسافان .

فأطرق الزعيم هنيهة مفكراً ، بينما كانت الأصوات تترنفع من الخـارج ثم قال :

اني مدين لك بالحياة فبماذا يجب ان اكافئك ؟

ـ وأنت انقذتني أيضاً فلست مديناً لي بشيء .

ـ لكن ما تريد فحياة بحياة ولكننا اضيافك في هـذا المنزل منذ عهد بعيد ، فكيف نكافئك عن ذلك ؟

ـ ان آرائنا مختلفة ، فأنت غير مدين لي بشيء ، ولكن اصغ اليّ ، فاني مقترح عليك إقتراحاً عسى ان نتفق عليـه وهو اني مضطر الى الخروج من هنا سليما دون ان اصاب بخدش ، لأني محتاج الى كل قوتي ، فهل تستطيع إخراجي ؟

ـ أنا لك فمر نطع .

ـ كلا ، فاني اعتبر ان لا شيء مجاني في الوجود .

ـ ليكن ما تشاء فماذا تريد ان يكون جزاءنا ؟

ـ سوف تعلم فاعطني ادوات الكتابة .

فأشار بوليفيه الى أحد رجاله ، وبعد هنيهة عاد بتلك الأدوات فأخذ هاردي القلم وكتب ما يأتي :

« أنا الشفاليه هاردي دي باسافان ، اكتب هذا الصك في الخامس والعشرين من شهر مارس سنة ١٤٠٧ ، وأنا سليم العقل والجسم ، واقر به اني وهبت منزلي الكائن في شارع سانت مرتين في باريس الى بوليفيه ، رئيس عصابات المردة ، هبة صحيحة لا رجوع فيها ، وله ان يتصرف به كما يشاء » .

وبعد ان وقع على الصك دفعه الى بوليفيه فقرأه وانحنى امام هاردي ، ثم قال له :

لقد رضيت بهذا الشرط فقل ماذا تريد ؟

قال : اريد ان اكون في الساعة الثامنة من الصباح عند باب قصر سانت بول .

ـ في الساعة الثامنة ؟

ـ نعم .

ـ أصغ .

وكانت ساعة نوتردام تدق في تلك اللحظة فجعل الاثنان يعدان الدقات وهاردي يصفر وجهه حتى دقت الساعة الثامنة فاضطرب ووثب من مجلسه فجرد حسامه وقال بصوت مخيف :

ـ افتحوا الباب .

فتردد المردة وجعل بعضهم ينظر الى بعض .

فقال لهم هاردي : يا ويحكم ألعلكم تخافون ؟

فصاح بوليفيه بهم قائلاً : الى الامام .

وعند ذلك فتحوا الباب وانقضوا على الجنود انقضاض الكواسر فعلت الصيحات وسالت الدماء واغمدت الخناجر في الصدور فكانت ساعة هائلة تشيب لهولها الاطفال وكان المردة يجتمعون وينقضون جملة عليهم فاذا تفرقوا عادوا الى الاجتماع والانقضاض على طريقة تبينت فيها دربتهم بحيث كانوا ينتصرون عليهم في كل معركة .

أما هاردي فقد كان يجول بينهم جولة الأسد الغضوب ، ثم توارى فجأة عن الانظار وخرج من بينهم راكضاً الى فندق ليتبود فذهب الى الاصطبل حيث كان جواده فامتطاه وعاد الى حيث كانوا لا يزالون يقتتلون فرأى بوليفيه يتعقب الهاربين ويطعنهم الطعن الدرك فقال :

لقد احسنت يا بوليفيه فكفى الآن وعد مع رفاقك الى منزلك .

ـ أتريد ؟

ـ نعم ، فاذهبوا .

وعند ذلك صفر بوليفيه صفيراً شديداً فتوارى المردة ولم تكن غير لحظة حتى كانوا داخل المنزل .

وقد دامت المعركة نصف ساعة فارتعد هاردي حين ذكر انه تأخر عن الموعد ولكز بطن حصانه بعنف شديد فمرق السهم وجرى رجال الدوق في اثره وهم يصيحون :

اقبضوا على اللص .. اقبضوا على القاتل .

وبعد برهة وصل هاردي الى قصر سانت بول فلطم وجهه اذ لم يجد مركبة ولا موكباً ولا احداً من الحراس فقال في نفسه :

لا شك ان الملك وأوديت قد سافرا ، فماذا عسى تقول عني ؟

وكان هناك حارس فقال له هاردي :

قل لي أسافر الملك مع حراسه ؟

فنظر الحارس الى وجه هاردي المضطرب والى لهجته الغريبة فما شك انه من المجانين فضحك وقال :

نعم ، انه سافر ومن يعلم الى أين ذهب ومتى يعود .

وقد حسب هذا الجندي انه مزح اغرب مزاح اذ كان عارفاً بمرض الملك وان اليوم موعد جنازة اخيه ولذلك جعل يضحك ضحكاً عالياً .

أما هاردي فقد سمع المطاردين من بعيد يقولون :

اقبضوا على قاتل الدوق دي أورليان .

فدفع جواده وهو يقول :

لقد وصمت بوصمة عار لا تمحى ، فأين لأوديت ان تعلم سبب تأخيري ؟

وكان يعلم ان الملك يريد الذهاب الى قصر بيارفون فدفع جواده الى جهة هذا القصر .

٤٢

رجل الرعب

كان ذلك اليوم موعد جنازة الدوق دي أورليان ، فكانت حفلة مهيبة عظيمة وقد سار في الجنازة دوق دي بورجونيا يحيط به فريق عظيم من رجاله مدججين بالسلاح .

وكذلك الكونت دي أرمانياك فقد كان حراسه يشبهون الجيش .

وليس غرضنا هنا وصف هذه الجنازة ولكننا نكتفي بالقول انهم اقاموا الصلاة عليه في دير سلستين ، ووجـدوا في وصيته انه يطلب ان يقدموا له مائة قداس عن كل عام عاشه وكان عمره عند وفاته ستة وثلاثين عاماً فيكون عدد القداديس التي قدموها له ثلاثة آلاف وستمائة قداس .

وفي ذلك اليوم انقطعوا عن تفتيش منـــازل باريس بغية إيجاد القاتل وأطلقوا سراح نحو خمسين رجـلاً من المتهمين بقتل الدوق اذ علموا ان القاتل يدعى هاردي دي باسافان .

فلم يبق إلا ان يبحثوا عن الرجل ويقبضون عليه ويحكموا عليه بالاحراق في قيد الحياة .

وقد وصلت هذه الإشاعة بالطبع الى الكونت دي أرمانياك فسأل رجاله قائلاً :

من هو باسافان هذا ؟

فأجابه احدهم قائلاً :

لا شك انه من رجال الدوق دي بورجونيـا ، فقد رأوه مرات يسير مع تونفيل ورفاقه ، ويجالسهم في مجالس الشراب في خمارة في شارع سانت مارتين .

فقـال الكونت : ان هذا الكونت يحسب انه سينجو من العقاب الذي أعد له .

ولكنه مخطيء فيما توهم فهو القاتل لا سواه ولم يكن هذا الشقي باسافان غير آلة في يده ، والويل له متى ظفرت به .

وبعد ان انتهت حفلة الجنـازة سار الكونت برجاله في طريق بيارفون

كي يعين لأرملة الدوق دي أورليان حرساً كافياً ، ثم يعود الى باريس فقد كان يعتقد إعتقاداً راسخاً ان الدوق دي بورجونيا بعد ان قتل الدوق دي أورليان سيقتل إمرأته .

أما الدوق دي بورجونيا فانه عاد الى قصره وقد اتصل به قتل كين ، فأسف عليه ولكنه تعزى بانه سينتقم من قاتله بتلك التهمة التي أتهمه بها وهي قتل الدوق دي أورليان .

وقد استطرد من التفكير به الى التفكير بأوديت فقال في نفسه :

انها تحبني دون شك بعد ما رأيته من ابتسامها ونظراتها وكل ذلك بفضل ساتان فانه استمهلني ثلاثة أيام لحملها على حبي فقضى هذه المهمة في يوم .

وما زال لهذا الرجل مثل هذا السلطان ، فلماذا لا ألجأ اليه فاني لا أأمن عليها ايزابو بعد الآن .

وفيما هو يفتكر دخل اليه احد الحجاب وقال :

ان في الباب رجلاً ، يا مولاي ، يلتمس التشرف بمقابلتكم .

فأشار الدوق إشارة تدل على الرفض فقال الحاجب :

وهذا الرجل يقول ، يا مولاي ، انه يدعى ساتان .

فارتعد الدوق وخيل له ان ساتان كان يسمع ما يناجي به نفسه من بعيد فأمر الحاجب بان يدخله اليه وصرف من كان عنده بالاشارة .

فلما دخل ساتان تمعن الدوق بوجهه وقال له :

لقد ذهب اثر اليد الدموية كما يظهر .

قال : كلا ، يا مولاي ، بل هو باق ، ولكني اليوم مسرور فبات غير منظور .

ـ وما هذا مسرور ؟

ـ اني مسرور لسببين : أولهما اني نجحت بالقاء الحب في قلب أوديت دي شامديفر ، وثانيهما ان موت الدوق دي أورليان قد قربك مما تطمع فيه وثبت ان باسافان قاتله ما زال جميع أهل باريس يقولون ذلك .

ـ بأي شأن تتداخل أيها الساحر ؟

فظهرت علائم الاستياء على سالفان وللحال ظهر اثر اليد على وجهه، ثم اختفى مسرعاً .

ولكن الدوق رآه وقال : هوذا اثر اليد .

فابتسم سالفان وقال :

لقد اصبت ، يا مولاي ، فلا يجب ان اعرف ما منعت معرفته عن الجميع .

وبعد فماذا يفيدني اذا كان باسافان قاتلاً أو بريئاً فان كل الذي اهتم له ان أفي بوعدي وقد اتيت لأسألك اذا كنت راضياً عني ؟

ـ نعم ، فلا شك عندي بعلمك ولكن هذه الفتاة ؟

ـ تريد ان تقول ، يا مولاي ، انها ابت ان تأتي اليك مع رجالك .

ـ نعم ، نعم ، وارجو ان تساعدني ايضاً في هذا .

ـ كلا ، يا مولاي .

ـ كيف ذلك أترفض ؟

ـ انها لا تتبعني ولا تتبع رجالك ومع ذلك فان في إقامتها في قصر سانت بول خطراً عليها .

ـ إذن ، ماذا يجب ان اعمل ؟

ـ يجب ان تذهب اليها بنفسك فهي لا تتبع سواك لا سيما حين تقول لها « انني اعرف من أنت » .

فسر الدوق سروراً لا يوصف ودنا من ساتان وقبض على ذراعه وقال :

قسما بالله انه اذا حدث ما تقول ..

ـ ولكنه حادث ، يا مولاي ، فاني لا أخطيء.

ـ إذن ، سلني ثروتي ، بل سلني ما تشاء .

ـ لقد قلت لك اني لو كنت اطمع بالذهب لكان منه اضعاف ما يوجد في صناديقك وصناديق الملك .

ـ إذن ، لا استطيع ان امنحك شيئاً ؟

ـ كلا ، يا مولاي .. بل انك تستطيع .. ولكن لا فان الملكة نفسها لم تستطع .

ـ قل ماذا تريد فاني قد استطيع ما لا تستطيعه الملكة .

فتردد ساتان هنيهة ، ثم قال :

ان ابحاثي العلمية التي اشتغل بها منذ اعوام بعيدة تحتاج الى جثث .. ولكن ماذا اصابك ، يا مولاي ؟

وذلك ان الدوق ارتعد لذكر الجثث فابتعد عن ساتان ، ورسم علامة الصليب على وجهه .

ولا يستغرب القاريء ذلك، فقد كان حرف الساحر والأبالسة والأرواح مستحوذاً على العقول في ذلك العصر ، حتى ان الملكة ايزابو نفسها على فظاعة قلبها ودهاها وعلى كونها لم تجزع من قتل الشيخ شامديفر كانت تخاف ان تشارك ساتان في اعماله .

اما ساتان فانه ضحك وقال :

ألعلك رجعت عن وعدك ، يا مولاي ؟

قال : كلا ، فامض في حديثك .

قال : اني احتاج ، في أكثر الأحيان ، الى جثث الأموات ولدي عصابة انفق عليها المـال الكثير ، فيأتون في ظلام الليـل بتلك الجثث من ساحات الاعدام ، ولكنها لا تفيدني فائدة تذكر ، فان بعضها يكون من ثلاثة أيام وأكثر ، وأنا محتـاج الى جثتين أو ثلاث ، تكون عنـدي ساعة موت أصحابها ...

وقـد عض ساتان على شفتيه كي لا يقول اكبر مما قال وقال له الدوق : اني في سبيل نيل أوديت افعل كل ما تريد .

قال : أحق ما تقول ، يا مولاي .

فرسم الدوق علامة الصليب على وجهه وقال :

نعم فسأعطيك الجثث .

انى محتاج الى ثلاث جثث .

ستكون لك قريباً فنشنق ثلاثة ولا ابالي بذنوبهـم اذا كانت تستحق الشنق ..

ـ يجب ان يكونوا فتياناً اشداء .

ـ انهم كما تقول وهم الآن في اسري وسأشنقهم وراء القصر في الليل وبعد نصف ساعة من شنقهم تكون الجثث عندك .

ـ اتقول يا مولاي ان هؤلاء الثلاثة في اسرك ؟

ـ انهم في سجن القصر .

ـ أتأذن لي ان اراهم ؟

ـ تعال معي .

* * *

لا بد لنا لبيـــان ما سيحدث من ان نعود الى تلـك الساعة التي أمر بهـا الدوق رئيس حراسه بالقبض على برايسكايل وبرانكايل وبراكايل .

فان هؤلاء الفتيان الثلاثة كانوا نائمين آمنين في مكان عين لهم في قصر الدوق .

فبينما هم نائمون شعروا بيد تهزهم فانتبهوا منذعرين ورأوا رئيس الحراس يناديهم ويقول لهم :

إسرعوا فان الدوق يريد ان يراكم في الحال .

فأسرع الثلاثة الى لبس ملابسهم وحاولوا ان يتقلدوا خناجرهم .

فقال لهم الرئيس : دعوا خناجركم فلا حاجـة بكم اليها في المهمـــة التي ستجرونها .

فنظر برايسكايل نظرة ارتياب الى الباب فرأى نحو عشرة جنود واقفين متأهبين للقبض عليهم إذا ارادوا المقاومة .

اما برانكايل فانه قال للرئيس :

ولكن بماذا نهاجم اذا اضطررنا الى الهجوم ؟

فأشار برايسكايل الى الجنود الواقفين على الباب وقال :

ان هؤلاء يعطوننا خناجرهم .

فقال لهم الرئيس : كفى وهلموا بنا .

فسار الثلاثة في اثر رئيس الحراس خائفين واجمين فأنزلهم الى سجن تحت الأرض ففتح بابه وأدخلهم اليه وهو يقول :

أتموا رقادكم ، وإذا أرقتم وعجبتم لوجودكم هنا فاسألوا انفسكم لماذا ثقل الحجارة لم يكن كافياً لاغراق ذلك الرجل الذي أريتمـــوني إياه ميتاً في الكيس .

ثم أقفل الباب وانصرف .

فذعر برانكايل وقال : ماذا يعني ؟

فأجابه برايسكايل قائلاً : يعني ان امرنا بات مقضياً .

ـ ولكن لماذا وضعونا في السجن ؟

ـ ألم يقل لك ايها الأبله ان الحجارة لم تكن ثقيلة ؟

فحك برانكايل اذنه وقال : أخشى ان نقيم ثلاثة ايام في هـذا السجن كالمرة السابقة .

فضحك برايسكايل وقال : كلا فاننا غداً نخلص .

ـ اذا كان ذلك فسأنام .

وقـد توسد يده ونام على أرض السجن فلم تكن غير هنيهـة حتى سمع غطيطه .

وبقي برايسكايل وبراكايل ساهرين ، فقال براسكايل .

ـ الحق اني غير نادم .

ـ على ماذا ؟

ـ على اني لم اغرق باسافـان .

ـ ولكن ذلـك ظلم ، فـاذا نجوت ذهبت الى الكاهن الذي اعترف عنده ، وانا واثق مقدماً من انه يوافق ، وانت ايضـاً توافق عليه ايها الصديق .

ـ ما هذا الفكر ؟

ـ الفكر هو انه ليس من العدل قتل ثلاثة لانقاذ واحد ، افهمت ؟

ـ كلا .

ـ اريد ان السير هاردي باسافان من اكارم الفتيان وخيار الشجعان وانه

انقذنا من .. اتعلم ما اريد ان اقول ؟

فارتعش برايسكايل وقال : نعم فامض في حديثك .

ـ وانه يستحق اعجابنا وامتناننـا الخالد ، ولكن هاردي دي باسافان ليس بالإله .

ـ ماذا تعني بذلك وأي دخل للألوهية ؟

ـ اعني ان الله وحـده ثلاثة بواحـد ، أي مثلث الأقانـيم كما يقولون ، أي انـه مؤلف من الآب والابن والروح القدس ، أتجسر على الاعتراض ؟

ـ معاذ الله فاني مسيحي .

ـ وعلى ذلك فلو كنا انقذنا الله من الكيس ومن السين لكان من العدل ان نشنق نحن الثلاثة ، أنت للآب ، وبرانكايل للابن ، وانا للروح القدس ، أفهمت ؟

ـ نعم .

ـ واذا كنت قد فهمت هـذا فكيف لا تفهـم ان هاردي دي باسافان ليس هو بآب ولا بروح قدس بل هـو ابن باسافان فلا يحـق له ان يشنق به ثلاثة .

ليس له حق .

ـ هو ذاك ، فان مشنوقاً واحداً يكفي ، واذا فعلنـا ذلك نكون قد اسأنا الى العدالة وارتكبنا ظلماً نعاقب عليه في اليوم الأخير .

وعلى ذلك فقد وجب على واحد منا ان يعترف بأنه هـو وحده الذي سهل فرار هاردي فيشنق وينقذ رفيقه ، افهمت ؟

ـ امض في حديثك .

افعل ذلك ايها الصديق ، وثق اننا نحضر ساعة شنقك ونعين الجلاد بحيث لا يدعك تشعر بعذاب حين يضع الحبل في عنقك ، وقد عرفت يقيناً ان المشنوق يشعر بارتياح عظيم حين يجذبون رجليه بعد الشنق ..

وفوق ذلك تستطيع الاعتماد عليّ ، فاني اقيم لك قداساً في كل عام ما حييت تذكاراً ليوم شنقك ، فماذا تقول ايها الصديق ؟

فقهقه برايسكايل ضاحكاً وقال : اني ابكي .

ـ لماذا تبكي ، فاني اقسم لك بأن اصلي عن نفسك كل عام ، افهمت ؟

ـ اسكت ايها الأبله وكفى ، فاني لا افهم هذه المعاني .

وسكت الاثنان وقد راعهما وثوقهما من الشنق ليس لأنهما كانا يطمعان ان يموتا غير هذه الميتة بل لخوفهما من الموت

ومرت بهما الساعات الى ان علما من الأصوات الخارجة ان الصباح قد طلع ، فقال براكايل : ترى لماذا لم يحضروا لنا الطعام ؟

فقال له برايسكايل : لقد فهمت الآن .

ـ ماذا فهمت ؟

ـ فهمت ما كنت تقوله لي وهو اننا لو أنقذنا الله لشنقت انا بالآب وأنت بالروح القدس وبرانكايل بالإبن وقد قلت ايضاً ان هاردي ليس هو بآب ولا بروح القدس .

بل هو ابن ، إذن فلنشنق برانكايل .

وكان برانكايل قد صحا من رقاده وسمع هذه الجملة الاخيرة وطلب إيضاحها .

وحيث قلت لي في بـدء الحديث انك غير نادم على إنقـــاذ هاردي، فلماذا لا تعترف ايهـا الصديق انك انت الذي انقذته وحـدك فتنقـذ رفيقك ؟

فأخبراه بكل ما تباحثـا به وانه يجب ان يشنق هو لأنه يمثـل الابن، فصاح بهما قائلاً :

ويل لكما ايها الشقيان ، انكما تريدان ان أشنق وحدي وتعيشانبعدي ولكني اثبت منكما في مجال الصداقة والوفاء ، فأنا لا اموت إلا معكما ولا أسير الى جهنم إلا ويدى بأيديكما .

وقد حاول الاثنان عبثاً إقناعه بأنهما سيسرعان الى موافاته ، وأقسم له برانكايل الايمان الغليظة بأنه سيصلي عن نفسه في كل يوم .

ولكنه أصر على العناد وانه لا يشنق إلا معهما ولا يشنق وحـده على الاطلاق .

وساد السكوت بينهم وقد ظهرت عليهم علائم الحزن وجعـل كل منهم يعزي الآخر ، فقال برانكايل :

الحق انه كان يجب ان نكون امواتاً من عهد بعيد ولكني افضل أفظع شنق على ان اموت في بيت ساتان .

فقال برايسكايل : وانا ايضاً .

واصطكت اسنان برانكايل وقال : وانا افضـــل ان اغلى على النار في مرجل .

وقد ساد عليهم الرعب لتذكارهم ساتان واصفرت وجوههم ، وتمثلت لهم تلك الكراسي التي كانوا مربوطين بها .

وفيما هم على ذلك رأوا ان باب السجن قد فتح ودخل منه رجـــلان يحملان مشعلاً ، فصاح الثلاثة صيحات رعب منكرة وتراجعوا منذعرين الى زاوية السجن .

اما الرجلان فقد كانا الدوق دي بورجونيا وساتان .

*

[تم الجزء الأول]

« ويليه الجزء الثاني »

www.mlazna.com
^RAYAHEEN^

www.mlazna.com-RAYAHEEN